أحمد الملك
كهنة آمون
رواية
Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

أحمد الملك

كهنة آمون

رواية

إهداء: الى ذكرى شُهداء ثورة ديسمبر المجيدة.

"يا دامي العينين و الكفين!

إن الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

و لا زرد السلاسل!

نيرون مات ، ولم تمت روما...

بعينيها تقاتل!

وحبوب سنبلة تجف

ستملأ الوادي سنابل"!..

محمود درويش

.....

... في عيونك

ضجة ... الشوق ... والهواجس

ريحه الموج البنحلم فوقو

.. بي جية النوارس

ياما شان زفه خريفك

.. كل عاشق أدي فرضو

ومافي شمسا طاعمه طلت

.. إلا تضحكي ليها برضو

والغمام الفيكي راحل

.. في الصنوبر يلقي أرضو

.. والصباح امتد ياما .. كلما جاوبني نبضو

أبو ذر الغفاري

والدك مريض جدا رجاء أن تحضر فورا!

كان ذلك نص البرقية التي تسلّمها، قرأها من خلال دخان الشيشة الكثيف الذي يعبئ هواء البيت برائحة التفاح المُتخمر الشبيهة برائحة الروث الجاف.

قرأ البرقية بصوت فخيم، كان يمسك بالورقة بعيدا عن وجهه، كأنه يريد أن يشاطره العالم صدمة الأخبار التي تنقلها برقية مشئومة الى هذه الأحراش النائية، يبعدها عن وجهه حتى يستطيع قراءة كلماتها بدون أن يرهق نفسه بالبحث عن نظارته الطبية، قرأ البرقية وهو يضغط على مخارج الحروف وحوافها، يمرّغها في وحل صوته الغليظ مثل مطرقة، في ضوء الغسق الباهت الزاحف نحو الظلمة الشاملة، الذي أعطى صوته مسحة غرائبية، يستحيل تمييزها عن الخيط الرقيق لحياة موازية تنشأ في سحر الظلمة التي كانت تتدفق من المستنقعات ومن سفوح الجبال والغابات المطيرة، وضوضاء

عصـــافير المغيب. كأنه يقرأ بيانا عســـكريا، كأنه يتمرّن على البيان الذي ســيقوم بتســجيله خلال أيام قليلة، فتوقف زملائه عن لعب الورق ربمـا لأنهم كـانوا يعرفون ردة أفعـالـه غير المنطقية التي لا تكون ذات صــلة بالضــرورة بأية وقائع على الأرض. تشــمّم الورقة، كأنه ســيجد في رائحة الحبر والورق تفسـيرا للكلمات السـبع التي إحتوتها البرقية، ثم ألقى بالورقة بعيدا عن أنفه الضخم قبل أن ينفجر ضاحكا!

قال أحد زملائه مندهشـا: ما الأمر هل فهمت شـيئا آخر غير ما سمعناه؟

ملأ صــدره بِالدُّخَانِ قبل أن يقول ببطء، كأنه لا يقول شــيئا بل تتدفق الكلمات من جوفه، بسبب امتلاء صدره بِالدُّخَانِ ،: لم أر أبي أبدا!

لم يثر إعلان عقوقه لوالده أية ردة فعل، أثار مجرد ذكر والده بعض الدهشـــة، كان وجوده يعطي دائما انطباعا بأنه جاء لوحده إلى هذا العالم، خرج وحده من مكان ما، نفض الغبار عن ثيابه واستأنف الحياة كأنه كان موجودا منذ الأزل.

قال زميل آخر: تعني أنه كان مسافرا؟

واصـــل كلامه البطيء كأنه لم يســـمع شـــيئا، كأنه يرد على شـــخص غير مرئي يقبع في دواخله، وليس على زملائه الذين

خبروا نوبات جنونه العسكرية، أعلن دون حتى شعور بالندم: مات أبي قبل أن أولد!

ضحك زملائه جميعا هذه المرة.

قال أحدهم، كأنه يحثه على قراءة المزيد من هذه الفوضى الإخبارية البريدية: يحدث هذا أحيانا ربما البرقية موجهة لشخص آخر! وحكى الرجل قصة حدثت لهم قبل سنوات، كان والده يعمل لفترة مؤقتة في مدينة بعيدة، حين وصلتهم يوما برقية تفيد بوفاته، وبعد أيام من إقامة العزاء وبدء مراسم الحداد عليه، فوجئوا به يدخل عليهم في البيت بشحمه ولحمه!

نظر حوله بهدوء من لا يرغب حتى في أن يشاركه أحدهم هدوء أعصابه: البرقية موجهة لي شخصيا!

تعني أنهم ربما يقصدون والدتك؟

لا، والدتي بخير.

ثم صمت.

وماذا ستفعل؟

سأسافر غدا، سنعرف غدا كل شيء!

سافر في الصباح، لم يروه مرة أخرى طوال بضعة أيام حتى فوجئوا به في جهاز التلفزيون وهو يقرأ بيان الانقلاب الأول! لم تكن الصور في جهاز التلفزيون واضحة، وبدا لهم صوته

مختلفا، لا يشبه الصوت الذي اعتادوا عليه طيلة إقامته معهم في البيت الواقع داخل الحامية العسكرية.

(أيها الشعب الكريم أن قواتكم المسلحة المنتشرة في طول البلاد وعرضها ظلت تقدم النفس والنفيس حماية للتراب السوداني وصونا للعرض والكرامة وتترقب بكل أسى وحرقة التدهور المريع الذي تعيشه البلاد في شتى أوجه الحياة وقد كان من أبرز صوره فشل الأحزاب السياسية في قيادة الأمة لتحقيق أدنى تطلعاتها في الأرض والعيش الكريم والاستقرار السياسي حيث عبرت على البلاد عدة حكومات خلال فترة وجيزة وما يكاد وزراء الحكومة يؤدون القسم حتى تهتز وتسقط من شدة ضعفها وهكذا تعرضت البلاد لمسلسل من الهزات السياسية زلزل الاستقرار وضيع هيبة الحكم والقانون والنظام.

أيها المواطنون الكرام

لقد عايشنا في الفترة السابقة ديمقراطية مزيفة ومؤسسات دستورية فاشلة ،وإرادة المواطنين قد تم تزييفها بشعارات براقة مضللة وبشراء الذمم والتهريج السياسي)

جلسوا بعد نهاية تلاوة البيان، حول جهاز التلفزيون، لا يصدقون ما سمعت آذانهم، حتى أن أحدهم فحص جهاز التلفزيون ليتأكد أن الأمر ليس خدعة ما، معتقدا أن الأمر مجرد مزحة مسجلة على شريط فيديو.

قال أحد زملائه أخيرا وكأنه يخاطب نفســـه: هل أنت متأكد أنه كتب هذا البيان بنفسه؟ لم أره يوما يقرأ أو يكتب شيئا!

أعلن ضــابط صــغير الرتبة: طلب مني مرة واحدة كتابة برقية لأسرته، كنت مصابا بجرح في يدي اليمنى، فاعتذرت أنني لا أســـتطيع الكتابة، لكنه لم يهتم بكلامي وقال لي : هذا أمر عســكري! اضــطررت أن اســتخدم يدي اليســرى، يبدو أنهم أرسلوا يبلغونه بوفاة شقيق والدته، كتبت برقية تعزية عاطفية جدا وصفت وفاة خاله بالفقد الجلل، ضحك وقال لي حين قرأت له ما كتبت، لا أظن فقده ســيكون جللا! كان رجلا بخيلا رغم أنه يملك الكثير من المال! تأخرت وفاته كثيرا! بعض الأغنياء يعيشـــون أطول من عمرهم الحقيقي! اعرف أبنائه لابد أنهم ســعدوا ســرا لوفاته! لكنهم بالطبع ســيبكون قليلا أمام الناس حتى لا يشعر الناس بشيء!

قال أحدهم ضاحكا: ومن الذي كتب له هذا البيان إذا؟

قال أحد زملائه وكأنه يتذكر شـــيئا: هل تذكرون وفد حزب (الاخوان المسلمين) الذي زار حاميتنا قبل أشــهر، وقدموا لنا بعض التبرعات والمواد الغذائية؟ لقد رأيت رئيس الوفد يتحادث مع الأخ العميد، كنت قد خرجت لالتقاط بعض ثمار المانجو من الأشجار القريبة من البيت، حين وجدتهما يجلسان أرضــا خلف الأشــجار، شــعرت كأنّ ظهوري أمامهما فجأة قد أربكهما قليلا، فانســحبت معتذرا معتقدا أنهما يتحدثان في

موضوع شخصي، حزب الإخوان كان هو الحزب الوحيد الذي أبدى اهتماما بالجيش، بل أنّ نوّابهم في الجمعية التأسيسية تنازلوا عن السيارات التي منحتها لهم الحكومة لصالح دعم الجيش! كان واضحا للكثيرين أنّ تبرعاتهم كانت استثمارا، لكن لا أحد توقع أن يتم الأمر بهذه السرعة!

هل تعني أنّ رئيس الوفد اتفق معه هنا خلف أشجار المانجو على قيادة الانقلاب!

لا أعرف لقد قلت لكم ما شاهدته فقط! كانا يتهامسان، من الذي يصدّق أنّ الأخ العميد، يمكن أن يجلس مع شخص ما ليضع خططا للإستيلاء على السلطة أو لأية شئ يمكن أن يحدث غدا، لم يكن الأخ العميد من عشّاق وضع الخطط، حتى وهو يحارب كانت كل تحركاته عشوائية، لا يستطيع أي من رفاقه أن يتنبأ بخطوته القادمة!

لابد أنهم كتبوا له البيان وجعلوه يتمرّن عدة مرّات على قراءته! هل رأيتم كيف مسح عن وجهه كل آثار لا مبالاته، وسخريته من كل ما حوله، لقد بدا في غاية الجدية! لا أصدّق أنه أصبح فجأة جادا ونسي لامبالاته واستهتاره بكل شيء!

هناك من يقف خلفه، أوضح زميل آخر: من يضع له علامات حمراء في كلمات البيان حتى يتجهم وجهه أحيانا، أو يرفع صوته ليؤكد جديته في فرض هيبة الدولة والقضاء على

الفوضـى الحزبية، أو يخفض صـوته وينفرج وجهه قليلا حين يعد الناس بالأمن والرخاء والعدالة!

قال أحد زملائه: لابد إنه قضـى الليلة السـابقة كلها يقرأ البيان ويعيد قراءته عدة مرات، تحت إشـراف الرجل الذي كتبه، حتى يتأكد أنه لن يقع في أية أخطاء أثناء القراءة!

مرّت فترة صـــمت، كأنهم كانوا في انتظار بيان آخر، يكذّب البيان الأول. كانوا في انتظار أن يأتي أحدهم ضـــاحكا ويقول: هل أعجبكم أدائه؟ إنه ممثل هاو اقتحم الاســـتديو بســـلاحه وفرض علينا إذاعة هذه الفقرة الضـــاحكة! انتظروا أن يعلن أحدهم ضاحكا أن ذلك كان برنامج الكاميرا الخفية

يا للكارثة قال ضابط برتبة العقيد: هذا البلد ذاهب إلى الجحيم!

00

أوقف عبد الرحيم سـيارة أجرة وطلب من السـائق الاتجاه إلى منطقة الصـحافة، كان يبدو متعجلا فاليوم يوم زفافه، قبل قليل تمت مراسـيم عقد الزواج، وانفض الحضـور على أمل العودة للمشـاركة في الحفل مسـاء، عبد الرحيم كان مرتبكا قليلا لكنه كـان واعيـا لأهميـة الزيـارة التي عليـه القيـام بهـا الآن، رغم شـعوره بالإرهاق من سـيل الزيارات التي تعين عليه القيام بها منذ حضـوره قبل يومين، من إحدى دول الخليج التي يعمل بها منذ سنوات.

هنأه سـائق عربة التاكسـي العجوز على الزواج، دهش في البداية ثم انتبه إلى الحناء في يديه، والتي لابد أن السـائق عرف منها أنّ الرجل تزوج أو أنه على وشـك الزواج، شـكر السـائق، مازحه السـائق حين علم أنّ حفل الزواج سـيكون في مسـاء اليوم نفسـه قائلا: في زماننا لم يكن يسـمح للعريس بالخروج من البيت حتى نهاية حفل الزواج، وفي فترة الحظر المنزلي، تقوم أخواته وخالاته بتدليك جسـمه يوميا بالزيت والعطور المحلية.

توقفت السيارة أمام بيت صغير تظلل مدخله شجرة نيم، هرع عبد الرحيم داخلا، كان المساء يرخي سدوله، وسمع دقات الساعة السابعة تنطلق في جهاز الراديو، استقبله عمه المقعد بحفاوة بالغة وبدموع غزيرة أغرقت عبد الرحيم في نوبة بكاء، فمنذ وفاة والده المفاجئة قبل سنوات تولي عمه عبد الكريم تربيتهم هو وإخوته وَتَحَمُّل نفقة تعليمهم، كان البيت خاليا إلا من عمه الذي ذهبت زوجته إلى بيتهم للمشاركة في مراسيم الزواج، جلس بجانب عمه وساعده على أداء صلاة المغرب، ثم دخل إلى المطبخ وصنع كوبين من الشاي له ولعمه، وقبل أن يستأذن خارجا قام بتشغيل جهاز التلفزيون الصغير في الفناء وفي تلك اللحظة جاءت جارتهم للاطمئنان على الرجل المقعد فوجدت عبد الرحيم يساعده للانتقال من الكرسي إلى فراشه.

قال العم: اذهب يا ولدي لابد أنهم في انتظارك.

فقال عبد الرحيم سنراك غدا، سنحضر أنا والعروس.

وسأله العم: هل ستبقي طويلا أم أنّ عطلتك قصيرة، فقال عبد الرحيم للأسف عطلتي قصيرة لابد أن أعود خلال أسبوعين فقط والا واجهتني مشكلة في إقامتي هناك.

ودعه عبد الرحيم مندهشا من الدموع الغزيرة التي كانت تنطلق من عينيه، هاتف خفي لم يكترث له كان يوحي بأنها دموع الوداع، أنه لن يري عمه مرة أخرى.

خرج من البيت مسـرعا علي أمل أن يسـتقل أول سـيارة أجرة يصادفها، كان البيت يقع على شارع جانبي صغير لذلك قرّر أن يحث الخطي باتجاه الشـارع الرئيسـي حيث يسـهل العثور على سيارة أجرة، بمجرد أن توقف وأشار بيده توقفت سيارة أجرة، كان السـائق رجلا مسـنا يقود سـيارة بيجو قديمة، يختلط هدير محرّكها مع صـوت ارتجاج هيكل السـيارة المتهالك، فتح الباب ليستقل السيارة بجانب السائق، وفي هذه اللحظة توقفت سيارة بيضـاء صـغيرة بجانبه، هبط منها بسـرعة ثلاثة رجال، بادر أحدهم سائق العربة التاكسي بقوله: يمكنك الذهاب سنقوم نحن بتوصـيله، انطلق سـائق عربة الأجرة على الفور دون أن يرد على الرجل بكلمة واحدة، وكأنه رجل شـرطة تلقى أمرا من قائده.

تقدم الرجل من عبد الرحيم وسـأله، هل أنت عبد الرحيم محمد عبد الكريم، حين رد عليه بنعم، عرّف السـائل نفسـه بأنه من جهاز الأمن والمخابرات، رفع بطاقته في وجه عبد الرحيم وأعادها بسـرعة إلى جيبه قبل أن يتحقق عبد الرحيم بسـبب ارتباكه من هوية الرجل. طلب الرجل منه بهدوء أن يرافقهم لمباني الجهاز فقط لبضع دقائق للإجابة على بعض الأسئلة.

ركب عبد الرحيم معهم مندهشـا، معتقدا في البداية أن هناك خطأ ما، فهو لم يقم بأية نشـاط يُبرّر اعتقاله من قبل جهاز الأمن.

عبرت السيارة في شوارع نصف مظلمة، بدأت حركة الناس فيها تخفت مع أصوات الرعد والأضواء الخاطفة للبرق، التي كانت تضئ مشهد أشجار النيم الواقفة في ثبات مثل مجموعة من الجنود، لم تكن هناك نسمة واحدة في العالم، كل شيء يتوقف بانتظار المطر.

سيبدأ حفل زفافه بعد ساعات قليلة، تذكّر أن شخصا ما تنبأ بالأمس باحتمال هطول المطر أثناء الحفل، لكن شخصا لا يذكره قال إن من النادر هطول أمطار في شهر مايو، ربما تكون هناك عاصفة ترابية، الان لم يعد يعرف كيف يجب التصرف في حال هطول المطر خاصة أن الحفل سيقام في الخارج في حديقة النادي الذي قام باستئجاره.

في النهاية توقفت السيارة أمام مبني معتم الواجهة، في الداخل كانت هناك صالة استقبال واسعة يجلس في نهايتها شخص أمامه عدد من أجهزة التليفون، طلب أحد الثلاثة من عبد الرحيم الجلوس لبضع دقائق، ثم اختفى الرجال الثلاثة من باب جانبي، لبث عبد الرحيم فترة جالسا دون أن يفهم شيئا، ثم بدأ يشعر بالقلق، نظر إلى ساعة يده فعرف أن الحفل سيكون قد بدأ ولابد أن الجميع بدءوا يلاحظون غيابه، مرت ساعة واحدة، تقدم عبد الرحيم من الرجل الجالس في الاستقبال، لم يكترث له الرجل وواصل حديثه في التليفون وكان يقطع حديثه

فقط ليرد على جهاز آخر، بقي عبد الرحيم منتظرا لدقائق بدت له دهرا.

وفي النهاية التفت إليه الرجل سائلا عما يطلب، اوضح له عبد الرحيم: أحضرني ثلاثة رجال إلى هنا وطلبوا مني انتظار بضع دقائق، ولكن مضت أكثر من ساعة ولم يحضر أحدهم، أشار الرجل بيده بفتور لعبد الرحيم ليجلس، وقال باقتضاب إنه سيسأل عن الشخص الذي أحضره.

عاد عبد الرحيم إلى مكانه تاركا الرجل يتصل عبر الهاتف، مضت عدة دقائق قبل أن يستدعيه الرجل مرة أخرى، ويبلغه بأنه لم يجد أحدا يعرف سبب استدعائه، ولابد أن ينتظر لحين عودة الأشخاص الذين قاموا باستدعائه.

ابتلع عبد الرحيم جفاف حلقه وقال: ولكن اليوم يوم زفافي والساعة الآن...

قاطعه الرجل بصوت حاسم: لا تضيع وقتك فانا لا أستطيع أن افعل لك شيئا!

تجاوزت الساعة الثامنة بقليل، لم تبق على نهاية الحفل سوى حوالي ساعة واحدة، فبسبب إجراءات حظر التجول الذي فرضته حكومة الانقلاب، تنتهي الحفلات قبل الساعة العاشرة، لابد أن المدعوين تناولوا عشاءهم الآن وبعضهم غادر المكان دون أن يراه، شعر بالحزن يعتصر قلبه، تذكر والدته التي

ســـتكون قلقة للغاية لغيابه ونورا التي تجلس وحيدة في ثياب الزفاف، تذكر قصـــة ســـمعها حول شـــخص هرب ليلة زفافه، مُفكرا هل من الممكن أن تعتقد نورا أنـه هرب في هذه الليلـة تحديدا، هل سيفكر الناس أنه لو كان يريد الهرب لفعل ذلك قبل عقد الزواج، لما حضر أصلا من خارج الوطن.

ثم اجتاحته نوبة أمل، أنهم ســـيطلقون ســـراحه بمجرد أن يكتشـــفوا أنهم إرتكبوا خطـأ في توقيفـه، تـذكر كلامهم أنهم يريـدونـه لبضـــع دقـائق فقط، وفكّر أنهم كنوع من الاعتـذار سيعيدونه بسيارتهم إلى بيت عروسه، خاصة وهو لن يستطيع حتى أن يمشـي على قدميه بعد حلول ميقات حظر التجول، ولن تكون هناك أية سيارات أجرة أو مواصلات في الشوارع. لكنه بعد تفكير وجد أنه من الأنسب أن يتصل بصديق يعمل ضـابطا في الشرطة ليحضر بسيارته ، كان قد سمع أنّ ضباط الشرطة ممن يعملون ليلا، يكون لديهم اذن للتحرك في ســـاعات حظر التجول، وحتى إن لم يكن لديه إذن فلن يكون الحصـــول عليه صـــعبا لمن هو في وظيفته، فقط ســـيضـــطر أن يطلب من هذا الرجل الذي يشـــبه رجلا آليا أن يســـمح له باســـتخدام الهاتف ليتصل بصديقه ضابط الشرطة.

رغم الارتبـاك الـذي شـــلّ تفكيره، لكن عبـد الرحيم حـاول اسـتعراض شـريط حياته بسـرعة محاولا تحديد عمل أو نشـاط قام به ضد السلطة الانقلابية، حين وقع الانقلاب في يونيو من

العام 1989 كان هو قد أكمل بضـــعة أشـــهر منذ غادر الوطن، كان محظوظا أنّ أحد أقربائه وكان صـــديق طفولة أرســـل له بمجرد تخرجه من الجامعة دعوة للزيارة حصـل بموجبها على فيزا من السفارة، وبعد وصوله إلى الخليج حصل بسرعة على وظيفة في شـــركة تقوم باســـتيراد الأدوية والمعدات الطبية وتوزيعها، بعد أن قام بتوقيع عقد العمل عاد مرة أخرى إلى الوطن لإكمال إجراءات الإقامة، في فترة الدراســـة الجامعية لم يكن له نشاط سياسي، لكنه كان يشارك أحيانا مع أصدقائه من طلاب الجبهة الديمقراطية في بعض البرامج الأدبية، كان يكتب الشـعر، لكن شـعره غلب عليه الجانب العاطفي، لم يكن سـعيدا حين سمع بوقوع الانقلاب العسكري، كان بعض زملاء المسكن متحمســين للانقلاب العســكري، أملا في أن ينهي ذلك ما رأوه فوضـى سـياسـية بسـبب عودة الأحزاب السـياسـية إلى نفس فوضى ممارساتها القديمة، كان عبد الرحيم يعتقد أن الممارسة الديمقراطية تحتاج لبعض الوقت لتترسخ، وأنّ الناس تستطيع الآن على الأقل نقد الأوضاع غير الصحيحة وان ظهر فساد في مكان ما فإنه ينكشف بسرعة بفضل الصحافة الحرة.

وبعد أســـابيع من وقوع الانقلاب العســـكري جاء وفد من الانقلابيين لشـــرح الأوضـــاع الجديدة للمغتربين وطلب الدعم منهم، كـان هو الوحيـد من مجموع الســـبعـة الـذين يجمعهم المسـكن الذي لم يسـتجب للدعوة التي تبنتها الجالية التي تنظم بعض الأنشطة الاجتماعية والثقافية. تذكّر تلك الواقعة، فكّر أن

ذلك ربما كان السبب وربما أيضا نشاطه الأدبي في الجامعة، ثم عاد ليقنع نفسه أنّ الأمر لا يعدو كونه تشابه اسمه مع اسم شخص مطلوب في قضية ما، لقد سمع أن ذلك يحدث كثيرا. وقد يستغرق إثبات براءة الشخص المتهم بعض الوقت، المشكلة كانت أنه في قبضة جهاز الأمن، وليس الشرطة، لقد سمع كثيرا عن تجاوزات الأجهزة الأمنية بعد الانقلاب العسكري. وعن التعذيب في معتقلات سرية، بل سمع بعمليات اغتيال طالت عددا من الناشطين ضد الحكم العسكري الإخواني.

مضت ساعة أخرى دون أن يظهر أحد، استبد القلق بعبد الرحيم فغادر مقعده متجولا في الصالة الواسعة، ثم شعر بالتعب فعاد إلى مقعده، لابد أن الحفل قد انتهى الآن وشرع العمال في تنظيف المكان وجمع المقاعد والمناضد، ولابد أن إخوته يجوبون المستشفيات ومراكز الشرطة بحثا عنه.

فكّر قليلا ثم توجه إلى الرجل الجالس في الاستقبال مرة أخرى.

قال بصوت حزين، هل يمكنني استخدام الهاتف، فهز الرجل رأسه رافضا، أوضح باقتضاب : ذلك ممنوع!

عاد عبد الرحيم مرة أخرى إلى مقعده وبحث عن سيجارة في جيبه فلم يجد شيئا، وفي تلك اللحظة تذكر بذلة زفافه التي كان مفترضا أن يعود قبل الحفل للمصبغة التي أودعها فيها لتنظيفها، أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة مساء، ميعاد

حظر التجول، بدأت الحركة في الخارج تهدأ، واختفت تدريجيا أصوات السيارات.

أرخى عبد الرحيم جسده المنهك على المقعد، وترك رأسه نهبا للهواجس قبل أن يستغرق في نوم مشوش، ليستيقظ فجأة علي مشهد الرجال الثلاثة وقد أحاطوا به، سحبوه خارجا في سيارة انطلقت في الظلام.

00

يختنق في البذلة العسكرية المثقلة بالنياشين والأوسمة، في جحيم الهواء الراكد المشحون برائحة بارود الاستعراض العسكري، اليوم عيد الثورة، العيد السابع والعشرين، نفس الصورة التي يبدو فيها في أغنية راب، انتشرت عبر تطبيق الواتساب انتشار النار في الهشيم.

(جوّعت الناس

يا رقّاص

قتلت الناس

يا رقّاص)

كان رجال أمنه يصادرون أجهزة التليفونات، ويعتقلون مشرفي مجموعات الواتساب والفيسبوك، لكن كل ذلك لم يوقف انتشار الأغنية التي رددتها حتى الببغاوات في مجاهل السافنا، فوق سفوح الجبال الغارقة في ضباب المطر الأبدي، وحتى مشارف

الغابات المطيرة حول بحيرة فكتوريا، تزامن انتشـــار الأغنية مع الفوضـــى التي عمّت القصـــر الجمهوري إثر عودة رجال حزب المؤتمر الوطني للتزاحم في القصـر مثلما كان يحدث في الأيام الخوالي، في أثناء تلك الفوضى صافحه شخص غريب، أمســك الغريب بيده لبعض الوقت حتى كاد الحرس الرئاســي يتدخل، حين اقترب الحرس ضـــاربا طوقا من حوله، تبخّر الرجل الغريب فجأة من أمامه، في دوامة هواء ضوئية، مُخلّفا سحابة صغيرة من ذرات لون عمامته البيضاء، شعر شعورا غريبا مجرد أن اختفى الغريب من أمامه: شعر أنّ تغييرا ما قد حدث في جسده، وأنه قد فقد أحد أعضاء جسمه!

يُقال إن هناك ساحر في المدينة سيدي الرئيس ما أن يصافح شخصا ما حتى يختفي عضوه الذكرى! ولابد من مساومة الساحر من أجل استعادة العضو المفقود!

هذه إحدى نتائج عودة رجال الحزب الوطني لاحتلال ردهات القصر وغرفه، يتحوّل القصر الجمهوري إلى شيء أشبه بسوق الجمعة، كل شيء معروض للبيع، قطع الأراضي، المشاريع الزراعية، المؤسسات الحكومية التي دفع شعبنا ثمنا باهظا لينتزعها من براثن الرأسمالية الطفيلية التي ورثت الاستعمار الإنجليزي، وتحكّمت في اقتصادنا سيدي الرئيس، ليأتي هؤلاء الإخوان المسلمون، الذين خدعونا باللحي الزائفة، وغُرة الصلاة التي يرسمها على وجوههم متخصصون في

رسوم التاتو، ولا تكلّف سوى بضعة جنيهات، فباعوا كل شيء في الوطن، حتى قضبان السكة الحديد التي زرعها اللورد كتشنر في الصحراء لنقل جنوده أواخر القرن التاسع عشر، نزعوها وباعوها لمصانع الحديد، حتى الرمال قاموا بتصديرها لمصانع السليكون في أوروبا، حتى العقارب، خدعهم الصينيون في البداية واشتروها منهم مقابل عشرة سنتات للكيلو الواحد، لعمل أبحاث حول المنافع الطبية لسموم العقارب، ثم اكتشفوا لاحقا أنّ الصينيين كانوا يشترونها لاستخراج ذرات صغيرة من الذهب من أحشائها! فالعقارب التي تعيش في بلادنا تأكل الذهب مع الرمال!

يموت أهل بلادنا من الجوع ومرض السل الذي بات من التاريخ في كل مكان في العالم سيدي الرئيس، والذهب تأكله العقارب، ويسرقه أعضاء حزبك جهارا نهارا. حين اكتشفوا وجود ذهب في أحشاء العقارب أصبحوا يقومون بسحب ذرّات الذهب من العقارب بواسطة إبر معدنية، ثم يقومون ببيع العقارب إلى الصينيين فارغة من الذهب بنفس السعر القديم! تريدون عمل أبحاث حول السموم؟ إليكم مصانع السموم الصغيرة هذه، فقط لا تنسونا حين تقومون بتصنيع أدوية من هذه السموم !

هل تصدّق أن هناك من يستطيع خداع الصينيين؟ فعلها هؤلاء الاخوان سيدي الرئيس! حصلوا من الصينيين على قروض لتمويل مشروعات زراعية لاستصلاح الأراضي في الصحراء،

بعد أن باعوا كل الأراضـــي الخصـــبة المحاذية لنهر النيل، للمستثمرين الأجانب! وحين جاء الصينيون لتفقد المشروعات التي يقومون بتمويلها، وجدوها صحراء قاحلة! لا أثر فيها ولا حتى لشجرة الهوهوبا التي تنمو في أشد الصحاري جفافا، هل تصدق سيدي الرئيس خدعوا حتى بن لادن! قدموا له دراسات جدوى لمشـروعات مضـمونة الربح، وتبخروا بمشـروعاتهم بمجرد أن حصلوا على المال!

استولوا على كل الأراضـي السكنية في العاصـمة، واسـتولوا على قطع الأراضـي التي خصـصـتها البلديات لتكون متنزهات عامة وملاعب للأطفال. اقتســموا الأراضـــي الزراعية في كل مكـان بـاعوا جزءا منهـا لمســتثمرين أجـانـب يتبعون للتنظيم الدولي للإخوان، وقاموا بأنفسـهم باسـتغلال الجزء المتبقي من الأراضـــي، يســتوردون معدات زراعية غالية بدون أن يدفعوا مليما لمصلحة الضرائب أو الجمارك، لأنهم يستوردونها باسم منظمات خيرية تعمل في خدمة اليتامى والفقراء، ويدخلون كل هذه المعدات باعتبارها تعمل في مشـــاريع خيرية! تســـتورد منظمـاتهم الخيريـة كل شـــيء ســـيدي الرئيس، من الأدويـة والأسمدة منتهية الصلاحية، إلى الأسلحة والمخدرات!

حمد الله لأنّ صـــديق طفولته الذي يحكي له ببراءة عن فســـاد الاخوان، ليس كاهنا ليعترف له أنّ ربع أرباح الفسـاد الإخواني كانت تصـب في الحسـابات البنكية لإخوته وزوجته، وحسـابات

الشـركات التي تعمل في غسـيل كل شـيء: غسـيل العربات، غسـيل الكلي، غسـيل الأموال وغسـيل الذهب! حتى غسـيل الملابس! تُوَفِّر شـركات إخوته مسـحوق غسـيل يزيل أكثر بقع الملابس التصـاقا! كما يقول الإعلان الذي تذيعه الفضـائيات التابعة للحزب! يدّعي الفقر أمام صـديق طفولته حتى يصـدّق أنه وإن كان يعلم بألاعيب الاخوان وفسـادهم لكنه بعيد عنه، يقول لا توجد قهوة منذ يومين في القصر! فرغت علبة القهوة، طلبت منهم إحضـار كعك وحلويات للضـيوف لكنهم اعتذروا بسـبب التقشـف الذي تمارسـه الحكومة لخفض النفقات الحكومية، حتى أنهم اغلقوا عددا من السـفارات وقاموا بدمج بعض الوزارات!

يقول لصـديق طفولته بخوف: هل لا تزال تقرأ أفكار الناس مثلما كنت تفعل أيام المدرسـة؟ كنت تقرأ أفكار كل الناس من حولك كأنك تقرأ من كتاب مفتوح، حتى أنّ الناس كانوا يلوذون بالفرار حين تظهر في مكان ما، خشـية كشـف أفكارهم أمام الناس !

يضـحك صـديق طفولته ويقول: لا يحتاج الانسـان الان ليقرأ الأفكار ليعرف حجم الدمار الذي نعيش فيه بسـبب سـياسـات حزبكم! ثم ضـحك وقال: صـرت مثل ذلك الرجل الذي كان يقف قبل سنوات في إحدى إشـارات المرور ينتقد الحكومة، يقال أنّ رجال أمنك اعتقلوه وتعرّض للتعذيب، وحين اطلق سـراحه

توقف عن مخاطبة الناس في إشـــارات المرور، التقيته مرة بالصدفة وسألته لم توقف عن نقد الحكومة، فقال لي ضاحكا: بسبب الجوع الناجم عن سياسات الحكومة، لم أعد اقوى على الوقوف طويلا لمخاطبة الناس!

يعلّق الســـيد الرئيس ضـــاحكا: طلبت منك عدة مرات أن تقرأ الأفكار المفيدة، أن تقرأ أفكار معلم الحســـاب، لنعرف أســـئلة الامتحان، بدلا من ذلك كلما كنت تقرأه من أفكار كان يدور حول مشـــاكل المدرســـين مع أولادهم وزوجاتهم، ومشـــاكل التلاميذ مع زملائهم وأخوانهم!

يضحك زميل الطفولة ويقول: أعتقد انني حاولت، لكن لا ينجح دائما قراءة أفكار الناس، بعض الناس يضـــعون أفكارهم داخل جدار يصـــعب إختراقه، والبعض يفكرون خارج رؤوســـهم، فيمكن لأية عابر سبيل قراءة ما يفكرون به!

يحاول السيد الرئيس بناء جدار سريع في ذاكرته لوضع كل ما لا يرغب في كشفه من خلف الجدار، يضع جزءا من الجدار في لســانه، يتكلم بهدوء، يدافع بلطف عن أعضــاء حزبه، محاولا ألا يعطي انطباعا أنه كان يدافع في الواقع عن نفســـه، يقول: الكثير من قصـــص الفســـاد غير حقيقية، هناك العلمانيون والشـــيوعيون وعملاء االإمبريالية،(يشـــعره إســـتخدام كلمة إمبريالية بنوع من الفخر الخفي، دون أن يكون واثقا أنه يستخدمها في الموضع الصحيح) هناك الذين كانوا يستفيدون

من الفوضى التي ضربت أطنابها في الوطن قبل وصولنا إلى السلطة، الاعلام الغربي يتواطأ ضد مشروعنا الحضاري، يقتلون ملايين الناس بالقنابل الذرية والأسلحة التي يحرّمون استخدامها بعد أن يصنعونها، ثم يدسون أنوفهم في ثياب نسائنا، يتحدثون عن حقوق الإنسان، عن حقوق النساء، عن امرأة جلدتها محكمة النظام العام لأنها ترتدي زيا فاضحا! يريدون أن تسود الرذيلة في مجتمعاتنا المحافظة!

يقرأ صديق الطفولة أفكارا مشوشة تناقض أقوال الرجل الذي كان يجلس بجانبه طوال ست سنوات في المدرسة الابتدائية، ولم يكن يهتم بإنجاز فروضه المدرسية، كان يكتفي فقط بإستعارة أوراق جاره لينقل منها ما فاته من دروس. حين يحاول النفاذ الى ما خلف خطوط دفاعاته عن أعضاء حزبه، يصطدم بالجدار الحديدي الذي تقبع من خلفه أسرار إنهيار الدولة.

لكن الرذيلة تسود سيدي الرئيس! ليس بسبب الاستهداف الخارجي لكن لأنّ حزبكم أفقر الناس! وهل هناك رذيلة أكثر من الفساد سيدي الرئيس!

يطرق السيد الرئيس، يحاول أن يزيح من ذاكرته، صورة نسبة الأرباح التي يحصل عليها مع إخوته وزوجته من الأعمال التجارية التي تغطي الوطن كله، يحاول دفعها الى ما وراء جدار الذاكرة، حتى لا يقرأ صديق طفولته أفكاره ويكتشف

بعض تفاصيل فساد اسرته وحزبه. يشعر أنّ الجدار يكاد يسقط تحت ضغط تسونامي وقائع الفساد التي تعج بها ذاكرته.

ذات مرة جاءه أحد ضباط الجيش، قال له تنفيذا لأمر من قيادة القوات الجوية، قمنا بمسح كامل لصحراء الوطن سيدي الرئيس، لتحديد المهابط الطبيعية الصالحة لهبوط الطائرات دون داع لتمهيدها أو رصفها بالأسفلت، وجدنا كثيرا من المهابط الطبيعية، المفاجأة أننا وجدنا آثار طائرات سيدي الرئيس، يبدو أن أجواء بلادنا تُستخدم من قبل طائرات أجنبية ليس معلوما ماذا تجلب أو تنقل هذه الطائرات، إنه أمر في غاية الخطورة سيدي الرئيس، لكنني حضرت للقاء سعادتكم لأمر آخر، أثناء تنفيذ المهمة شاهدنا قوافل من الإبل تعبر الصحراء، حاولنا أن نقترب منهم لكنهم حاولوا الفرار، قلنا لهم نريد فقط أن نسألكم أن شاهدتم أية طائرات تهبط في هذه المنطقة، قال أحدهم هل تتبعون لوحدات مكافحة التهريب؟ وحين نفينا ذلك ظهر الارتياح على وجوههم، سألتهم هل أنتم خائفون من وحدات مكافحة التهريب، لاذوا بالصمت، لكن أحدهم أوضح قائلا: هذه الإبل تتبع لحرم السيد رئيس الجمهورية! ولا نريد أن ندخلها في مشاكل! أحببت أن أبلغك ذلك سيدي الرئيس، أن وحدات مكافحة التهريب تنشط أحيانا وقد يتسرب خبر أن حرم السيد الرئيس تقوم بتهريب الإبل عبر الحدود، ما قد يضر بصورة فخامتكم سيدي الرئيس!

شكر الضابط على وطنيته وشجاعته، وفي عيد الجيش بعد أيام قليلة، قام بتكريمه، منحه نوط الشجاعة من الدرجة الاولى، ثم أمر بوضع اسمه في أول كشف للضباط الذين سيتم طردهم من الخدمة، ما لم يعرفه الضابط المسكين، أنّه كان شريكا مع زوجته في تجارة الإبل عبر الحدود!

يقول رفيق طفولته: تقول إن الحكومة أغلقت بعض السفارات وأدمجت عددا من الوزارات لخفض النفقات الحكومية، إذا لماذا يوجد لدينا أكبر عدد من الوزراء في حكومة واحدة في كوكب الأرض! هذا بخلاف الوزراء الولائيين ونواب البرلمانات الولائية وغيرهم من أصحب الوظائف التي لا يعرف أحد ما الذي يؤدونه من عمل، بجانب آلاف الوظائف الوهمية التي يتحدث عنها الناس، شخص لا مؤهل له سوى لحية طويلة، وفجأة يكتشف أنه يحمل درجة دكتوراة في الفيزياء النووية، رغم أنه لا يعرف الفرق بين نوى التمر ونواة الذرة، يكتشف بالصدفة أنه يشغل عدة وظائف يحصل من بعضها على أجر ويذهب أجر بعضها لمن تكبدوا عناء صنع المؤهلات الوهمية وصنعوا له الوظائف المناسبة!

يقول السيد الرئيس: لا تصدق القصص التي تُروّج في الواتساب والفيس بوك، معارضة الخارج أدمنت العيش على أموال المنظمات الأجنبية، ولا عمل لهم سوى اختلاق قصص

الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان، بما يضمن استمرار عطف المنظمات الأجنبية التي لا تريد ببلادنا خيرا، عليهم!

لا يعبأ كثيرا بالفوضى المحتملة كما يسميها، ما دام يمسك هو وإخوته بخيوط الفوضى، يحرّكها في كل الاتجاهات، كل عمليات فساد أعضاء الحزب موثقة، كل فسادهم الأخلاقي موثق، زواجهم العرفي لفتيات صغيرات، اغتصابهم لأطفال صغار، والشقق السرية التي كانوا يمارسون فيها مجونهم، ويستعيدون ورعهم الزائف مجرد أن يغادرونها، وحين تنكشف فضائحهم يلقون باللوم على إبليس! يقولون خدعنا الشيطان، مع أنّ العامة يقولون إنّ إبليس قد رحل عن بلادنا سيدي الرئيس، منذ أن إستولى رجال حزبك على السلطة، يقول الناس إن بعض أعمالهم لم يفكر فيها الشيطان نفسه! أحد قياداتهم سيدي الرئيس قام بالاستيلاء على أرض حكومية زراعية، ثم قام بتحويلها إلى أرض سكنية رغم أن القانون لا يسمح بذلك، ثم سلّمها إلى جهاز الأمن والمخابرات، فتبرّع الجهاز ببناء قصر للقيادي عليها، ثم استأجرت الحكومة القصر ليقيم فيه القيادي صاحب البيت نفسه! هل تصدق أنّ الشيطان يمكن أن يفعل شيئا كهذا؟

هل صحيح أنك عفوت عن أحد هؤلاء الإخوان بعد إدانته بتهمة اغتصاب طفل سيدي الرئيس؟

يخفي السـيد الرئيس ضـيقه من السـؤال، يقول: تلك كانت مؤامرة ضـمن صـراع الأجنحة داخل التنظيم! هذا الرجل كان تقيا وورعا، بنى مسـجدا وكان يقيم أغلب وقته في مسـجده وحين يتغيب المؤذن كان يرفع الاذان بنفسـه! دسـوا له هذا الغلام في شـقة يسـتخدمها بيتا لزوجته السـرية، كانت زوجته السرية مسافرة حين ذهب لتفقد الشقة فوجد الصبي المليح في انتظاره، وأكمل إبليس بقية القصـة! ولم ينتبه بالطبع لأجهزة التصوير التي كانت تدور سرا!

وهل ألقيتم القبض أيضـا على إبليس أم أنه لم يظهر في شـريط الفيديو! قال صـديق الطفولة ذلك سـاخرا، قبل أن ينتبه إلى أنه تجاوز كل الحدود، صـمت ثم قال موضـحا: الشـائعات تقول إنه لم يذهب لتفقد الشقة، بل كان يصطحب معه إحدى عصفورات الليل، أي أنه جاء مصـطحبا إبليس معه ولم يجده في انتظاره كما تقول الرواية الرسمية!

النـاس تقول إنـه حين يرتكب أحد المواطنين جريمـة مـا، يتحمل وحده المسـئولية ولكن حين يرتكب أهل النظـام من أخوان حزبكم جريمة ما، يتحمّل إبليس وحده تبعات الجريمة !

العيد السـابع والعشـرين، حسـب نبوءة الشـيخ الكناني تبقى له ثلاثة عشر عاما في السلطة!

ستنتهي دورته الرئاسية بعد ثلاثة أعوام، سيترشح مرة أخرى رغم مكائد رجال حزبه لمنعه من الترشُـح، الدورة الرئاسـية

ست سنوات، ستكون قد تبقت له حسب النبوءة أربعة أعوام في السلطة! هل يعني ذلك أنه لن يكمل دورته الأخيرة، وما السبب؟ انقلاب عسكري، ثورة شعبية؟ ارتجف جسمه لفكرة الخيار الثالث: الموت!

شعر للمرة الأولى أنه يخشى الموت أكثر من خوفه من فقدان السلطة! كان يعتقد قبل ذلك أن فقدان السلطة والموت يعنيان الشيء نفسه، أوضح الشيخ الكناني، انه لا يستطيع سوى رصد تحولات كرسي السلطة، ان حاول تتبع خطوات الموت سيتجاوز كل صلاحياته.

لم يكن هناك من حل آخر: لابد من تعديل الدستور، لتصبح الدورة الرئاسية خمس سنوات، حين يفقد سلطته حسب النبوءة سيكون السبب هو انتهاء دورته الرئاسية، وسيتخلى عن السلطة طوعا.

قال بامتنان شاكرا لفكرة مستشاره الذي أنقذ حياته بتعديل دستوري، مستشار رئاسي جيد أفضل من شيخ يتنبأ بالمستقبل دون أن يضع في الحسبان وضع نبوءاته ضمن الاطار الدستوري، نبوءة مليئة بالثغرات التي يمكن أن يتسلل منها ملك الموت.

اغلق الطريق على ملك الموت بتعديل دستوري، لكنه حين وجد سهولة الانتصار على الموت فكر في الانتصار على

النبوءة نفســـها، بات يعتقد في نبوءآت مســـتشـــاره أكثر من نبوءآت الشيخ الكناني.

هل تعتقد أنه ســيمكنني مواصــلة الحكم بعد ســنوات الشــيخ الكناني!

لا تصدق هؤلاء الشيوخ سيدي الرئيس، أنهم يعملون بنظرية: اما أن أموت أنا أو يموت الحمار أو يموت السلطان!

تساءل السيد الرئيس: وما قصة الحمار والسلطان؟

أوضح المستشار: يقال إن رجلا عرض على أحد السلاطين أن يقوم بتعليم حمار السـلطان ليصـبح حمارا مثقفا ومتحدثا لبقا، حصـــل على المال، وطلب مهلة خمس ســنوات لإنجاز العمل، وحين سأله الناس كيف سيتصرف حين تنصرم المدة ويكتشف السـلطان الخدعة، قال خلال خمس سـنوات سـيموت أحدنا، أنا أو السلطان أو الحمار!

تعني أن الشيخ الكناني يكذب؟

لا لا أقصـــد ذلك، هو يقول مجرد كلام خطر على بالـه، ليس ضــروريا أن يحدث بالضــبط كما خطر له، هذا هو عمله الذي يرتزق منه سـيدي الرئيس! صـحتك جيدة يا سـيدي، سـتكون عندها في الثمانين ويمكنك أن تحكم عشرين عاما أخرى.

ردد السيد الرئيس كلام مستشاره: صحتي جيدة، صحتي جيدة، كأنه يريد أن يصـدّق أنه سـيعمر حتى يتجاوز المائة عام، كما تنبـأ لـه عرّاف، التقـاه أثنـاء فترة الحرب الأهليـة الأولى في جنوب الوطن.

قال السـيد الرئيس: كيف تقول إنه يقول مجرد كلام يخطر على باله، هل نسـيت أنه حذرنا سـت مرات من محاولات انقلابية وقعت كلها؟

قال المسـتشـار مبتسـما، وهل تحتاج معرفة الانقلاب إلى من يتنبأ به سـيدي الرئيس، تسـتطيع أنت أن تفعل ذلك يا سـيدي، حين تنظر في وجوه وزرائك أو ضـباط جيشـك، الرجل لم يسـتخدم أية قوى خارقة، نظر فقط في وجوه ضباط جيشك أو قادة حزبك وعرف أنهم يريدون اسـتغلال الأزمات التي يعاني منها المواطنون، بسـبب العقوبات الأمريكية المفروضـة على بلادنا، للوصول إلى كرسي السلطة.

00

يكتفى في الأيـام الأولى بتوقيع كـل الأوراق التي يضـــعونـهـا أمامه، لا يلاحظ حتى أنّ مساحة الوطن كانت تنكمش كلما وقّع على ورقـة مـا، أنّ مزارع القطن والفول الســـوداني وعبّـاد الشــمس، كانت تتســرب من يد الدولة إلى أيدي رفاق الحزب، كلما قام بالتوقيع على تلك الأوراق.

لكنه لا يهتم ولا حتى بإلقاء نظرة على تلك الأوراق، ســكرتيره نفســه لا يعطيه مهلة ليقرأ شــيئا، يقول أحيانا بدافع الكســل، اتركها على المكتب، ســـأوقّعها فيما بعد حين أعود من.. لكن الســكرتير يقاطعه: لا وقت ســيدي الرئيس، يجب أن أعود بها الآن إلى مقر الحزب.

هـل يمكنـك أن تلخص لي مـا هو مكتوب في هـذه الأوراق الكثيرة؟ ولماذا يجب أن تتنازل الدولة عن مشاريع ناجحة لهذه المنظمة؟ ولماذا يجب إعفائها بالكامل من الضـرائب والرسـوم الحكومية؟ لقد اشتكى وزير المالية السابق أنه لا يجد مالا لدفع

رواتب المعلمين لأنّ كل رجال الأعمال هم من رجال حزبنا، وهم جميعا يعملون من خلف ستار منظمات خيرية لا تدفع مليما لخزينة الدولة!

هذه منظمة الدعوة الإسلامية سيدي الرئيس، المنظمة تعمل في مجال الدعوة إلى الإسلام، كما لها عدة مشروعات خيرية داخل الوطن وفي بعض الدول الأفريقية لخدمة الطبقات الفقيرة، هل نسيت لقد قمنا بتسجيل البيان الأول للانقلاب أقصد للثورة فيها!

مجرد أن سمع السيد الرئيس قصة البيان الأول حتى وضع توقيعه على الأوراق.

يضع القلم جانبا ويقول ببراءة جندي أحيل للتقاعد رغم أنه لم يبلغ سن التقاعد بعد: الجميع يستثمرون في الخير، من سيدفع الضرائب للدولة! ثم بدأ يردد آليا حتى بعد أن غادر سكرتيره الغرفة: الجميع يستثمرون في الخير... الجميع يستثمرن في الخير! كأنه يريد إقناع نفسه أنه ينتمي الى تنظيم غالب أعضائه من أهل الخير، ثم توجه بسؤال إلى المجهول: لماذا كلما ازداد عدد من يستثمرون في الخير يزداد أيضا عدد الجوعى والفقراء!

يشعر للمرة الأولى بالحنين لزملائه الذين قاسموه ضجر سنوات الحرب الأهلية. لم يكن يعرف أنه طردهم جميعا من الخدمة العسكرية في الأوراق التي يوقّع عليها دون تدقيق،

حتى التقى أحدهم صـــدفة في مناســـبة الاحتفال بعيد الجيش، سأله باهتمام: في أية وحدة تعمل الآن؟

حســب الرجل أن الســيد الرئيس قد نســي في غمار المشــاغل الرئاسية أنه أصدر أمرا بطرده من الخدمة.

قال: لا أعمل في أية وحدة، أنا متقاعد!

قال السيد الرئيس ومن الذي أحالك للتقاعد؟

قال الرجل مبتسما: صدر القرار منكم سيدي الرئيس!

دهش الســـيد الرئيس، قال بعد تفكير حتى لا يبدو مرتبكا: لا اذكر ذلك، ربما كان قرارا شمل عددا كبيرا من الضباط!

قال الرجل: كلا، تم إحالة معظم زملائنا الســابقين للتقاعد، لكن القرار الذي صدر بإحالتي صدر فقط باسمي!

يجلس بجانبه في مكتبه بالقصــر صــديقه الجنرال عوف، آخر الرجـال العظمـاء كمـا كـان يطلق عليـه في لحظـات الصـــفـاء. يتقاســمان ســاندوتشــات الفول والطعمية ويشــربان القهوة، ويتبـادلان ذكريـات أيـام الحرب الأهليـة الأولى، يتوقف قليلا ليوقّع على أحـد الأوراق، قبـل أن يعود لتبـادل ذكريـاتـه مع الجنرال عوف.

يغادر صـــديقه الجنرال عوف القصـــر يوميا عند الســـاعة السادسة، ليتناول طعام العشاء مع أسرته كما اعتاد طوال عدة

أعوام. بعد الســـاعة الثالثة تبدأ حركة أعضـــاء الحزب تخفت داخل القصـر، يتجول في صـمت داخل القصـر الفسـيح، يغمض عينيه عن السـلطة الموازية التي كانت تزدهر من حوله لتترك له فتات سـلطة التوقيع على الأوامر الجمهورية، سُـلطة آمون كما كان يسميها من واقع أحلامه التاريخية.

يجدهم نائمين في أرضـية مكتبه وعلي أريكة خشـب المهوقني الضـخمة، عرقهم الغزير يغرق السـجاد الفارسـي في أرضـية مكتبه، رائحة وحوش مفترســـة، يصـــلّون العشـــاء جماعة ويســـحبون مســـابحهم الطويلة على الأرض أثناء اســـتئناف مفاوضـــاتهم ومؤامراتهم، يغمض عينيه عن أفعالهم المشـــينة مع صـــبية ملاح الوجوه، والعاهرات اللاتي ترتفع ضـــحكاتهن في القصـــر مع حلول الظلام، خلف ســـتائر المخمل الثقيلة، وخلف شـــجيرات الورد في ممرات الحديقة الاســـتعمارية التي تحيط بها أشجار اللبخ الضخمة التي غرسها الإنجليز.

يتحرك بحذر داخل القصـر حتى لا يعطي انطباعا أنه يتلصـص عليهم، يترك لهم القصر حين تمتد اجتماعاتهم الليلية حتى تبدأ تباشـــير الفجر في الظهور، يخرج للتمشـــي في الحديقة، يحب المشـــي ليلا في ضـــوء النجوم، لذلك يطلب عادة من الحرّاس إطفاء إضـــاءة الحديقة مبكرا، فتســـبح الحديقة كلها في ضـــوء النجوم، وفي عبق أنســـام النهر المتدفق تحت أقدام القصـــر الاستعماري العتيق.

شــعر بحركة غريبة أســفل إحدى شــجيرات الجهنمية، اعتقد للوهلة الأولى أنّ أحدهم يتتبع خطاه أو ربما يحاول قتله، أشعل مصباحه اليدوي الصغير، فرأى أشباح رجلين نصف عاريين، أطفأ ضــوء المصــباح بســرعة، وتراجع حتى لا يتعرفا عليه، تذكر أنهما كانا من أكثر الأصـــوات ارتفاعا في الاجتماع، لم ينتبه لهما حين انســحبا من الاجتماع، يبدو أنهما خرجا بعد أن غادر هو غرفة الاجتماعات متعللا بحاجته لبعض الهواء بعد أن يستخدم دواء الربو .

قال الجنرال عوف: ألا تفكر في شيء ما؟

لم يقل شيئا، ليس خوفا على نفسي بل: خوفا عليك يا جنرال، أنت لا تعرفهم!

قال الجنرال عوف يشــجعه على فتح جراح الســلطة: إلى متى ستبقى مثل الأراجوز يتحكم هؤلاء السفلة في مصيرك ومصير الوطن!

رد بعد برهة صمت، باستسلام: هم الذين أتوا بي إلى السلطة! حضـــرت من الجنوب لأنّ والدي مريض كما ورد في برقية الاستدعاء، والدي الميت، حضرت فقط بدافع الفضول، رغبة في بعض التغيير من أجواء الحرب وأجواء بيت الضـــباط البائس، حيث نفس الأحاديث اليومية المكررة، ونفس القصص والنكات التي ســـمعناها ألف مرة. ولعب الورق الذي بُلي من

كثرة الاستخدام حتى أصبح من العسير التمييز بين ورقة آس الهارت، وورقة بنت الشيري!

حين وصلت أخذوني إلى بيت كبير أدخلوني غرفة خانقة تشبه أستوديوهات التلفزيون، لمبات إضاءة وكاميرات، مسحوا وجهي بالفازلين، ونفضوا الغبار عن ملابسي العسكرية بفرشاة ريش نعام تستخدم لتنظيف الأثاث، ثم أعطوني ورقة وطلبوا مني قراءة البيان رقم واحد! بعد أن فرغت من قراءة البيان، تجمعوا حولي وباركوا لي المنصب الجديد، قالوا لي لقد أصبحت رئيسا الجمهورية!

كنت الأكثر حظا فقد عرفت أنهم قاموا باستدعاء سبعة ضباط، توفي اثنان منهم في الطريق بسبب الألغام، ولم يتمكن البقية من الوصول في الوقت المناسب بسبب انقطاع الطرق بسبب الخريف، وتاه أحدهم في منطقة المستنقعات بعد أن غرست السيارة التي كانت تقله في الوحل وعُثر عليه بعد سبعة أيام مرتديا ملابس خليعة، بعد أن شرب عدة زجاجات من خمر محلي وهو يغني في زفاف ابنة صانع المطر أمام فرقة من عازفي أبواق البامبو!

لكنك ستكون مسئولا يوما ما، ألا ترى هذا الخراب؟ يكاد الوطن يفرغ من أهله، كل شيء معروض للبيع! كل مؤسسات الوطن تم بيعها، والمصيبة يقومون الآن بتفكيك الجيش نفسه!

العيد الثالث للثورة! ساعده سكرتيره ليرتدي ملابسه العسكرية الكاملة، قرأ له برنامج الاحتفال: سيقص الشريط إيذانا بافتتاح عدد من المشروعات، سيلقي كلمة في افتتاح مؤتمر التنظيمات المعارضة للأنظمة الحاكمة على امتداد القارة.

تنبه وهو يضبط القبعة فوق رأسه إلى أنه لم ير الجنرال عوف منذ ثلاثة أيام، تلعثم مدير مكتبه وهو ينفي علمه بأخبار الجنرال عوف، قال: ربما كان مريضا بالملاريا، طلب من مدير مكتبه أن يتصل به بعد عودتهم إلى القصر ليطمئن على صحته.

قال سكرتيره: الجنرال عوف وجد ميتا في منزله!

صعق السيد الرئيس: هل أنت متأكد مما تقول؟ كيف يحدث ذلك؟ كان معي قبل أيام في صحة جيدة، ربما تقصد شقيقه المريض!

يبدو أنه انتحر!

انتحر هل جننت كيف تقول ذلك؟

وجدوا مسدسه الشخصي بجانب جثته الغارقة في الدماء!

طلب الاتصال بوزير العدل، شرح له الوزير أن الجنرال الذي كان يعاني من الوحدة بعد أن هجرت زوجته مع أطفالها البيت إثر خلاف عائلي، أقدم على قتل نفسه. قال السيد الرئيس إنه لا

يصـــدق ذلك طالبا من وزير العدل تكوين لجنة تحقيق لكشـــف ملابســـات الجريمة، شـــرح له الوزير أن الأمر لا يحتاج للجنة تحقيق وان الشـرطة تقوم بالتحقيق في الحادث وتتعامل مع كل الاحتمالات.

كان متأكدا أنهم قتلوه، كانوا يعلمون أنه لم يكن ســـعيدا بما يحدث في الوطن، وبتراجع دور الجديش أمام ميليشـــيات التنظيم، قام في اليوم التالي بزيارة أســـرته، كانت زوجته لا تزال تقيم في بيت أسرتها، بدت الزوجة متماسكة رغم الصدمة الواضحة في ملامح وجهها، قالت إنها أيضا لا تصدق أنه مات منتحرا، أوضـــحت أنه كان ينوي الســـفر إلى مصـــر لإجراء جراحة في عينه التي تأثرت بسبب مرض السُكّر.

00

بعد أيام من موت الجنرال عوف عاد لنفس برنامجه اليومي القديم، موت الجنرال عوف جعله يغرق في نوبة حنين غريب للماضي، رأى نفسه وحيدا ثيابه مبتلة بالكامل في العرق، في القيظ الذي يسبق هطول المطر في مدينة استوائية، لا يُسمع فيها في ساعات خمول الضحى سوى موسيقى متقطعة تصدر عن آلة البامبو، وصوت قطعان الأبقار تقطع الهواء الراكد في طريقها للمراعي البعيدة، شعر بخليط غريب من البهجة والحزن، يسير بموازاة ذكريات تلك الأزمنة الجميلة، التي تعبق برائحة مطر استوائي يتصاعد من الذاكرة مصحوبا بغناء حزين يتسرب من مكان خفي: يا نجوم الليل اشهدي على لوعتي وتسهدي، على بكاي وتنهدي، يختلط مع رائحة روث الأبقار، مع أشباح ظلال ضخمة تسير في ضوء قمر استوائي مثل أشباح أشجار الباباي، مع رائحة زهور المانجو، التي تتخلل الذكريات مثل نهر من الضوء يغرق في جحيم التذكارات.

يرقب أعضـــاء حزب المؤتمر يملؤون ردهات القصــر وغرفه، ينتشـــرون مثـل أســـراب الجراد فوق الوطن فيحيلون حتى التذكارات إلى رماد.

يعرف أن الصبر هو السبيل الوحيد للتعامل مع هذه الفوضـى، لم تكن قد مرّت ســوى ثلاثة أســابيع على موت الجنرال عوف حين وجد رسالة على مكتبه مكتوب عليها: الجنرال عوف مات مقتولا، رجاء إتلاف الرسالة بعد قراءتها!

لا بد أنّ عامل النظافة الذي قام بتنظيف مكتبه هو من وضــعها أو ربما شــخص آخر، شــعر أن الرســالة صــادقة كأنّ الجنرال عوف الذي كان هو الوحيد الذي يثق فيه، كأنه هو من كتبها، حذّرته الرســـالة أنّ المكان كله مراقب بكاميرات مخبأة في كل مكان، اتّبع التعليمات المذكورة في الرســـالة بحذافيرها، قام بإتلاف الرسالة في المرحاض ثم وضع باقة الورد البلاستيكية فوق مكتبه في الوضع الذي وصفته له الرسالة ليدلل على أنه تسلم الرسالة.

لم تذكر الرسـالة الصـغيرة تفاصـيل كثيرة عن اغتيال الجنرال، لكنـه فهم أن الخليـة التي كوّنـها الجنرال داخل الجيش تحـاول الاتصال به.

مرّت عدة أيام دون أن يتلقى أية رســالة جديدة، أصــابته حالة من الإحباط خوفا أن يكون جواسيس حزب المؤتمر الوطني قد

كشـــفوا أمر الخليـة، لا بـد أنهم كـانوا يعلمون بكـل تحركـات الجنرال عوف وكل اتصالاته والا لماذا قتلوه؟

ســـيعرف بعد ســـنوات: أنّ الجنرال عوف كان حذرا جدا وأنّ القتلة اســـتهدفوه فقط لعلاقته القوية بك ســـيدي الرئيس، في نظرهم يجب أن تظلّ بعيدا عن أية تأثير خارجي، لتقوم بتنفيذ الدور المرســـوم لك، كل من هم حولك لهم دور مرســـوم ،لا يستطيع أحد تجاوزه، أو الدخول إلى الدائرة الضيقة التي تحيط بك دون اذن التنظيم، حتى أصـــدقائك، زوجتك، طباخك، إمام المســـجد الذي تصـــلي من خلفه، العاهرات اللاتي تعثر عليهن أحيانا في ساعات المساء المتأخرة بعد مغادرة قيادات الحزب، يتسـكعن في ردهات القصـر، كل هذه المجموعة التي تحيط بك يحددها جهاز الأمن التابع للتنظيم، لا يتركون شيئا للصدفة.

يقومون بتفكيك الجيش قطعة قطعة ســـيدي الرئيس! كان ذلك آخر ما ســـمعه من الجنرال عوف، مدير جهاز أمنهم التابع للتنظيم الإخواني، يحمل إبر الدبابات في جيبه! لا يمكن تحريك أيـة دبـابـة بـدون إذنـه حتى لو تعرّضـــت العـاصـــمـة للغزو والاحتلال! كل الذخائر بطرف الجنود فشنك!

وكيف سيحاربون حركة التمرد في الجنوب بالذخيرة الفشنك؟

ألا تشـــاهد جهاز التلفزيون ســـيدي الرئيس؟ لديهم قوّات بديلة يسمونـها قوّات الدفاع الشعبي!

يعتقلون الناس ويعذبونهم في بيوت سرية، قبل أشهر قاموا بإعدام ثلاثين ضابطا بعد محاكمة عسكرية استغرقت ثلاث دقائق، استخدموا آلة حفر عملاقة لحفر قبر ضخم فيما المعتقلون يشاهدون عملية الحفر، وضعوا المعتقلين على حافة الحفرة وأطلقوا عليهم النار ثم دفنوهم وهم لا يزالون أحياء!

أطلقوا الرصاص الحي على مظاهرة للطلاب فقتلوا المئات واعتقلوا الإف الطلبة قضت أعداد كبيرة منهم تحت آلات التعذيب!

تذكّر آخر كلام للجنرال عوف معه قبل يوم واحد من اغتياله: بالأمس بسبب إلحاحك قضيت السهرة معك هنا في القصر، رغم معرفتي بالمضايقات التي يتعرّض لها من يضطر لعبور الكباري بعد منتصف الليل، وجدت بعض الغرباء يحرسون كبرى النيل الأزرق، احتجزوني لمدة ساعة وقاموا بإجراء اتصالات عبر اللاسلكي قبل أن يسمحوا لي بالمرور!

دُهش السيد الرئيس: غرباء من تقصد؟

قال الجنرال عوف: ألا تعرف؟ التنظيم الإخواني الدولي يرسل لهم رجاله من كل مكان لمساعدتهم على تثبيت السلطة، يبدو أن من رأيتهم بالأمس يحرسون الكبرى ينتمون لإحدى المنظمات المتهمة بالإرهاب!

ولماذا يستعينون بالإرهابيين، أين الجيش؟

ألم اشرح لك أنهم يقومون بتفكيك الجيش واستبداله بالمنظمات الإرهابية؟

يواصلون في اجتماع مجلس الوزراء الأسبوعي عراكهم حول غنيمة الوطن، كأنه اجتماع ضباع مسعورة تتعارك فوق جثة حيوان لا يزال حيا، لا يهمه من هذه الفوضى سوى أن يعرف مصيره. يشعر ببعض الاطمئنان أنهم يكادون لا يلحظون حتى وجوده.

مرّت عدة أيام قبل أن يجد رسالة أخرى، في علبة أقراص دواء ضغط الدم. سنحيي ذكرى الجنرال عوف في اليوم الأخير من الشهر، لا داعي لحضورك، سنبلغك بكل شيء.

رجاء تمزيق الرسالة مجرد قراءتها، أحرق الرسالة بعود ثقاب ورمى الرماد في المرحاض.

يوم الذكرى الأولى لوفاة الجنرال عوف حاول أن يمارس نفس برنامجه اليومي حتى لا يلفت الأنظار إلى إمارات القلق والخوف الواضحة في وجهه، ساعد زوجته لتمشي قليلا داخل الجناح المخصص لهم، بسبب ارتفاع درجة الحرارة في الخارج يصعب المشي في حديقة القصر نهارا، وبسبب الفوضى ما بعد السابعة مساء يصعب المشي في الحديقة ليلا، تسلّم أوراق اعتماد سفير دولة بورندي الجديد، ووقّع على

بعض الأوراق التي أحضرها سكرتيره. لاحظ أن معظم أعضاء حزبه كانوا غير موجودين، فحص علبة أقراص دواء الضغط عدة مرات دون أن يجد شيئا.

استمع إلى نشرة أخبار التاسعة مساء، لا جديد، نشرة الأخبار تكاد تكون نسخة من برنامج في ساحات الفداء، الذي يعرض بعض صور ووقائع الحرب في الجنوب، شاهد صور الكتائب الجديدة المتجهة إلى مناطق العمليات، لم ير أية صور لضباط أو جنود جيشه، كل الصور لضباط أو مجندين من قوّات الدفاع الشعبي التابعة للحزب، فجأة رأى رجلا غريبا ملتحيا، يخاطب إحدى كتائب المجاهدين المتجهة لمناطق العمليات، نظر إلى الرجل، تذكر أنه سبق له لقائه في مكان ما، ربما في مقر حزب المؤتمر الوطني، تساءل ببراءة: أليس هو الرجل الذي كان متهما باغتيال الرئيس السادات؟

أخلد إلى النوم، رأى طوابير طويلة من قوّات الدفاع الشعبي تتقدم في طرق طويلة دون نهاية، استيقظ مرهقا قليلا في الصباح بسبب النوم المضطرب، أغرق نفسه في حوض الحمّام البارد فشعر بأنه يستعيد نشاط جسده، شاهد من نافذة الحمّام الصغيرة بعض الجنود في الخارج، عرف من ملابسهم أنهم من قوّات الدفاع الشعبي، ارتدى ملابسه وخرج بسرعة، وجد سكرتيره قد وضع له كومة الصحف اليومية إضافة لبعض

التقارير فوق مكتبه، رأى المانشـيت الأحمر في أول صـحيفة أمامه: إحباط محاولة انقلابية!

شـعر بالرقابة تزداد من حوله في الأيام التالية، يرتدي زيه العسـكري ليبدو كأنه يسـيطر على كل شـيء. لكنه شـعر أن سلطته كانت تتناقص، يضطر ليرفع صوته في اجتماع مجلس الوزراء ليشـعر وزراء حزب المؤتمر الوطني بـأنـه موجود معهم، لكنه يشـعر بصـوته وصـورته يضـيعان في غابة هذه الفوضى النهارية التي تجتاح القصر.

قرأ بعد يومين في الصحيفة الرسمية أنّه تم تنفيذ حكم الإعدام في عدد من الضـباط والجنود الذين حاولوا تنفيذ انقلاب على السلطة الشرعية. قضى عدة أيام يتفحص علبة الدواء كل يوم أملا في رسـالة واحدة، تعيد إليه الأمل أنّ خلية الجنرال عوف لم يتم القضاء عليها بالكامل. بدأ يفقد الأمل، لكنه لم يفقد رغبة التشـبث في الكرسـي، لم يكن متأكدا إن كانوا يعلمون علاقة خلية الجنرال عوف به، اسـتأنف نشـاطاته القديمة، يخاطب كتائب الجهاد المتوجهة لمناطق العمليات، وفي نهاية الأسبوع خاطب الجلسـة الختامية للمؤتمر الثاني الشـعبي والإسـلامي، أشـار نحو الظواهري الذي كان يجلس في الصـف الأول وقال: أليس هذا هو الرجل الذي قتل السادات؟

لا.. ربما شـــارك في التخطيط للاغتيال لكنه لم يشـــارك في التنفيذ، كان شابا صغيرا في ذلك الوقت، قضى عقوبته وأُطلق سراحه مؤخرا!

ولماذا جاء إلى هنا؟

ضـحك السـكرتير وقال: هل أنت خائف منه سـيدي الرئيس؟ ليس لديه خطط الآن لقتل أية إنســان! لقد دعته ســكرتارية المؤتمر وسوف يغادر خلال أيام، هذه زيارته الثانية!

إلى أين سيذهب؟

سـمعت أنه سـيسـافر إلى أفغانسـتان أو الصـومال، لا يمكنه العودة إلى بلاده والا تعرّض للاعتقال!

وكيف يسـافر اذن إن كان لا يزال يعارض الحكم في بلاده؟ هل لديه جواز سفر!؟

لديه جواز سفر أعطته له حكومة سعادتك يا صاحب الفخامة!

قال السيد الرئيس: هل تتكلم جادا؟ كيف تعطيه حكومة صاحب الفخامة جواز سفر وصاحب الفخامة لا علم له!

قال السكرتير: هذه موضوعات صغيرة لا يجب أن يشغلك بها أحد يا صاحب الفخامة!

لكن وجوده سيؤثر على علاقاتنا بدول الجوار!

أنها مجرد زيارة بدعوة غير رســـمية، ســـكرتارية المؤتمر الشعبي الإسلامي ليست جهة حكومية!

إن لم تكن هذه جهة حكومية ماذا افعل أنا هنا!؟

أنت أمير المؤمنين يا صـــاحب الفخامة! وهؤلاء هم المؤمنون تقاطروا من أركان الدنيا، فكيف نحرمهم رؤية أميرهم!

لم يقل الســـيد الرئيس شـــيئا، فكّر في نفســـه: إن كنت أنا لا أســـتطيع حتى رؤية نفســـي، التي لا يريدون حرمان المؤمنين من رؤيتها! تذكّر الجنرال عوف، حاول مسح صورته بسرعة من ذاكرته حتى لا ينتبه لها هؤلاء الذين يقرأون حتى الأفكار!

00

صـباح اليوم التالي كانت نورا لا تزال غارقة في دموعها، وقد تجمعت حولها بعض الفتيات لتخفيف صدمتها، كان هناك أيضا بعض النسـاء من أقاربهن أو من الجيران، كانوا يجلسـون مع أمها التي بدت غارقة في الصـدمة، تردد آليا: ماذا سـيقول عنا الناس، عريس ابنتهم هرب في ليلة الزفاف!

في تلك الأثناء كان إخوة عبد الرحيم وأصـــدقائه وجيرانهم، يمشّـطون المدينة، لم يتركوا قسـما للشـرطة أو مسـتشـفى أو مقهى أو شـخصـا تربطه بعبد الرحيم ولو علاقة بعيدة، عادوا مسـاء وصـدمة الفشـل والخوف من أسـوأ ما يمكن أن يكون قد حدث في وجوههم، في اليوم الثالث نشـروا إعلانا في الصـحف اليومية بأوصافه علي أمل أن يظهر شخص ما يكون قد صادفه في مكان ما، ولكن دون جدوى، كانوا يتســكعون في الطرقات طوال اليوم ويجوبون حتى الأحيـاء البعيـدة في أطراف العاصـمة، تتراجع الآمال في العثور عليه كل يوم، لكنهم كانوا برغم كل شـيء يواصـلون البحث، مجرد خروجهم كل يوم في رحلـة البحـث كـان يعطي أمهم المكلومـة بعض الأمـل، كـانـت عودتهم مساء كل يوم بخفي حنين، تعيد شعاع الأمل في عيون أمهم خلف خيوط السـراب، سـراب اليأس، وبعد أسـبوعين من

اختفائه سافرت والدته إلى منطقة النيل الأبيض لتقابل شيخا اشتهر بمقدرته علي كشف مصير المفقودين، فأعطاها رقية تُعلّق في فناء البيت، ونوعا من البخور يطلق في البيت يوميا لحظة الغروب، لم يجذب بخور الشيخ سوى عصافير غريبة كانت تتجمع لحظات الغروب مجرد أن ينطلق دخان البخور من النافذة، وتظل متجمعة حول النافذة، حتى يحمل هواء الليل أخر خيوط البخور، فتتبخر العصافير من المكان ويكنسها هواء الليل.

نورا حبست نفسها طوال أشهر في البيت، حاولت الأم دون جدوى أن تقنعها بالعودة إلى عملها، كانت تشعر بالخوف من نظرات الإشفاق التي سيستقبلها بها الناس في كل مكان، أقنعت والدتها أنها ترغب في العودة إلى الجامعة لاستئناف دراستها، قبل عامين حين أكملت دراستها في الجامعة، اقترح عليها أحد أساتذتها أن تواصل دراستها، كان شقيقها الذي يعمل خارج الوطن قد دفع لها كل منصرفات دراستها، ولم تكن ترغب في أن تثقل عليه بالمزيد، فقررت البحث عن عمل على أن تواصل دراستها أن سنحت لها فرصة بعد الزواج، اقترح عليها عبد الرحيم أن تواصل دراستها بعد السفر والالتحاق به، عن طريق المراسلة أو يمكنها أن تنتسب لإحدى الجامعات الهندية وتسافر لفترة قصيرة لمناقشة الرسالة.

حين عرف شـــقيقها أنها لا ترغب في العودة لعملها، عرض عليها أن يغطي نفقات دراستها العليا، رضخت أخيرا وبعد عدة أشـهر من حفل الزفاف الذي لم يتم، لضـغوط والدتها وشـقيقها وقررت العودة إلى الجامعة.

عادت مع بداية العام الدراسي الجديد، أعطتها تلك العودة دفعة أخرى لتستأنف الحياة، اكتشفت وجود بعض زملائها القدامى، ورغم أنها تجنبت في الأيام الأولى زيارة الأماكن التي التقت فيها مع عد الرحيم في فترة الدراســة، لكنها اكتشــفت أنه كان يستحيل أن تتجنب ذكراه، يسأل عنه بعض الأساتذة والزملاء، يذكرون كم كان إنســـانا لطيفا وخجولا، يذكرون مشـــاركاته الشـعرية وميله للعزلة، تشـعر بهم يتحدثون عن شـخص آخر كأنها لم تعرفه مطلقا، حتى وإن كان زوجها رســـميا حتى تلك اللحظة، تشـعر حين تتألم لوقع الذكرى على قلبها مسـاء، أنها تتألم نيابة عن شـــخص آخر، ســـألها أحد أســـاتذته مرة عنه، مشـيرا بلطف لعلمه بالعلاقة التي ربطت بينهما أيام الدراســة: ألم تعودي تلتقينه ؟

ردت بسـرعة بلا وحاولت أن تغيّر من موضـوع المحادثة بأن ســـألت عن زميله الذي اقترح عليها في ســـنتها الأخيرة أن تواصـل دراســتها، عرفت أنه غادر الوطن، شــرح لها الرجل باقتضـــاب أن زميله تعرضّ لمضـــايقات انتهت بطرده من وظيفته، بدون ســـبب ســـوى أنه كان ناشـــطا في فترة الحكم

الديمقراطي مع أحد الأحزاب السـياسـية التي تتبنى علمانية الدولة.

لم تجد الجرأة لتعترف بأنه زوجها الذي غاب في ليلة زفافهما، ولأنها شـعرت أن أسـتاذها لاحظ محاولتها تغيير موضـوع الحديث عنه، قالت بتردد أنها سمعت أنه استقر في إحدى دول الخليج، ضحك الرجل ضحكة قصيرة مندهشا وقال: لا أصدق أنه أصبح يهتم بالمال، كان دائما إنسانا حالما، يحب تراب هذا البلد ولا يتنفس إلا من هوائه كما كان يقول، وصمت برهة قبل أن يقول بحذر: معه حق على كل حال، تغيّر حتى الهواء!

وجدت أنّ برنامج الدراسة سيكون مريحا جدا، لديها محاضرات في يوم واحد كل أسـبوع، لكن عليها أن تبدأ في إعداد الأطروحة التي ستقدمها لنيل درجة الماجستير.

تنشغل بالرسالة التي تعدها في علم الإنسان، كانت على وشك السفر إلى كردفان، حيث ستزور بعض مناطق القبائل الرعوية لجمع بعض المعلومات الميدانية التي ستعتمد عليها في بحثها عن التحولات التي شـهدتها المجتمعات البدوية في النصـف الثاني من القرن العشرين، حين علمت بأنها حصلت على حكم من المحكمة بالطلاق بسـبب اكتمال فترة الغياب القانونية لزوجها، لم تشـعر بالتحرر كما توقعت، وبانهيار آخر الحواجز أمام سطوة نسيان شعرت بوقع خطاه في ذاكرتها، بدلا من ذلك شـعرت بالحزن وبأنها وحيدة في هذا العالم رغم أن البيت من

حولها، اكتسى نفس ملامح الحزن الأولي أيام الزفاف الذي لم يكتمل، جاءت والدته قبل أيام وترجت والدتها أن ينتظروا قليلا قبل رفع دعوى الطلاق إلى المحكمة، قالت إن الشيخ الذي سافرت للقائه في قرية بعيدة تغرق في ساعات الضحى في رائحة أنفاس النيل الأبيض، أكد لها أن ابنها موجود لم يمت ولم يسافر، وأنّ ظروفا قاهرة هي التي منعته من الظهور ليلة عرسه، وأنه سيظهر قريبا.

تشاجرت والدتها مع والدته، كانت تجلس هي في غرفتها تستمع إلى صراخ أمها وعويل أمه، قبل أن تغادر الأخيرة يتبعها صوت نواحها.

00

بعد عدة أيام قضـاها قلقا يترقب رسـالة جديدة تبعث فيه بعض الأمل، بات أكثر يقينا أنّ خلية الجنرال عوف قد قُضـي عليها، لم يعد يرى حتى جنود جيشـه في جهاز التلفزيون الذي يبث أخبار معارك الحرب الأهلية، معظم الذين كان يراهم كانوا من قوات الدفاع الشـعبي أو من أقطاب حزبه الذين يظهرون في جهاز التلفزيون ويتحدثون عن المعارك التي شـاركوا فيها، وعن القرود التي أرسلتها العناية الإلهية لتحارب معهم.

كنا في موقع متقدم، قال المجاهد التلفزيوني: حين وجدنا أننا ابتعدنا عن قواتنا، ووقعنا في كمين للعدو الذي كان يحكم (كماشة) من حولنا، قرّرنا أن نقاوم حتى الموت، وفجأة لمحنا قرودا تقفز من حولنا فوق الأشـجار الكثيفة، كنا نظن في البداية أنها مجرد قرود أثار صـوت إطلاق النار ذعرها، لكننا اكتشفنا أنها كانت تحمل قنابل يدوية، وبعضها كان مربوطا في وسط جسده بأحزمة ناسفة، حسبنا أن العدو أرسلها لتنفجر فوقنا وتقضي علينا، لكنها انطلقت نحو كماشة العدو وفجرتها! فاستطعنا أن نشق طريقنا بسهولة وننضم لقواتنا!

كنا نتضور جوعا والعدو يسد علينا كل المنافذ، لم نأكل شيئا طوال ثلاثة أيام وفقدنا كل اتصـالاتنا مع فرقتنا بسـبب عطل أصاب جهاز الاتصال الوحيد الذي بقي معنا، أكلنا ورق الشجر

والضـــفادع والثعابين حتى لم يعد هناك أية شـــيء يمكن أن يصـــلح للأكل، وفجأة اقترب منا غزال، كان يبدو كأنه هبط من السماء، فبسبب النيران الكثيفة كان يصعب تصديق وجود أي كائن حي في محيط المكان الذي شهد عدة معارك خلال أسابيع قليلة. ألجمتنا مفاجأة ظهور الغزال، فلم يفكر أي منا في أن يرفع بندقيته لاصـــطياده، وفجأة ســـمعنا الغزال يخاطبنا بلغة فصـــيحة، طلب منا أن نقوم بذبحه! ولولا تضـــحية الغزال المعجزة لانضممنا في ذلك اليوم إلى ركب الشهداء!

نفدت الذخيرة بعد قتال اســتمر طوال الليل، ولم نعرف مصــير الأشــخاص الذين حاولوا فتح ثغرات في الحصــار المضــروب حولنا لمحاولة الوصــول إلى قيادتنا وإحضــار إمدادات، وفجأة رأينا الصــواعق تهبط من الســماء، رغم أننا لم نكن في فصــل الأمطار، كانت الصواعق تشكل حزاما ناريا يحيط بالدائرة التي تجمّعنا فيها إحاطة الســـوار بالمعصـــم، دمّرت الصـــواعق تشـــكيلات العدو ولاذ الناجين بالفرار تاركين جثث زملائهم المتفحمة وآلياتهم المحترقة، كان نصرا قادما من السماء!

انتهى به الأمر لتصديق هذه الترهات، رغم أنه شعر أن معظم المتحدثين من المجاهدين التلفزيونيين لم يغادروا حتى بيوتهم، ولم يطلق معظمهم طلقه واحدة في حياتهم ولا حتى في الهواء! حاول أن يجد تكييفا عســـكريا ضـــمن التكتيكات الحربية التي درســـها، لمشـــاركة القرود والصـــواعق في المعركة، فإكتشـــف

الخيوط الخفية لخدعة إقحام العناية الالهية لحسم معركة خاسرة، وتتبع بين سطور الخُطب النارية آثار ضُعف واضح في تقنيات الفر والكر والتخطيط الاستراتيجي.

يرخي أذنيه لحديث رجال الحزب أملا في أن يجد خيطا يقوده لمصير خلية الجنرال عوف، لكنه لا يعثر سوى على إشارات متناثرة تزيد من غموض كل شيء، وتقوده لمتاهات جديدة، تقارير ملتوية لا تكاد تفصح عن شيء، مجرد إشارات مبهمة لمؤامرات ضد التوجه الحضاري للنظام، لم يفهم منها سوى أنّ النظام يواجه عدة تحديات تهدد وجوده.

عرف بعد سنوات من الناجي الوحيد من المجزرة التي تعرضت لها خلية الجنرال عوف، أنّ أعضاء الخلية تعرضوا لتعذيب رهيب، وأنهم كانوا جميعا موتى قبل أن تطلق عليهم فرقة تنفيذ حكم الإعدام الرصاص، حكى له الناجي الوحيد أن رئيس الخلية أنقذه من الموت حين رفض أثناء التعذيب أن يعترف بأية دور له معهم، ورغم فشلهم في العثور على دليل يؤيد شكوكهم في صلته بالمجموعة، لكنه تعرّض أيضا لتعذيب رهيب بل إنه تعرض للاغتصاب، وفي إحدى حفلات التعذيب انتزعوا أظافر يديه ورجليه وقطعوا أذنيه وأجبروه على ابتلاعها.

كان الناجي الوحيد قد حصل على عفو رئاسي بعد توقيع اتفاقية سلام نيفاشا، وبعد ضغوط دولية على النظام بسبب

التقارير الكثيرة عن انتهاكات حقوق الإنســـان. لكنه كان وبعد سـنوات طويلة لا يزال يعاني من آثار التعذيب، رغم أنه خضـع لعدة عمليات جراحية طوال سنوات.

عرف أن المعـارك التلفزيونيـة كـانـت تصـــور في غـابـة في ضواحي العاصمة، وكان الغرض محاولة غسل أدمغة الشباب ودفعهم للانضـــمام للكتائب المتوجهة لمناطق العمليات، وحين فشـــلت المحاولات بدأ الجيش يلقي القبض على الشـــباب في الشـــوارع والأســـواق ليرســـلهم لمناطق العمليات، بعد فترة تدريب قصيرة.

فجأة اقتحم عليه سكرتيره المكتب، اجتماع هام سيدي الرئيس في حزب المؤتمر الوطني، مطلوب حضـــورك فورا الى هنـاك لحضور الاجتماع المهم، أدرك أن شيئا خطيرا حدث، في العادة لا يتم حتى ابلاغه بـاجتمـاعـات المؤتمر الوطني التي تتم بعيدا عنـه، وجـد الجميع في انتظـاره، الـذين بـاعوا مبـادئ الثورة والذين قبضـــوا الثمن، المدنيون الذين ارتدوا الزي العســـكري للمشـاركة في الانقلاب، والعسـكر الذين خلعوا الزي العسـكري للانضـــمام الى الحكومة المدنية. الذين اشـــتروا المشـــروعات الضـــخمة التي كانت ملكا للوطن، والذين باعوها، من حاربوا في جهاز التلفزيون ومن حاربوا في الأدغال.

خفتت اصــوات العراك العالية حين وصــل الى مكان الاجتماع، حســـب في البداية انهم يتعاركون على توزيع الغنائم كعادتهم، لكنه اكتشف كارثة من نوع آخر!

رأى آثار الكارثة في وجوههم، كان الارتباك يخيم عليهم، كأنّ تهديدا خطيرا كان يوشك على القضاء على سلطتهم. رسم على وجهه تعبيرا محايدا، رغم شــعور خفي بالظفر لمجرد الارتباك الذي كان يخيم عليهم.

قال أحد أقطاب الحزب وكان يبدو على وجهه الغضب الشديد، وكأنه لاحظ أنّ الســـيد الرئيس لم يكن لديه علم بما يدور في العالم، خارج مكتبه في القصر الجمهوري:

ألم تقرأ الصحف اليوم يا صاحب الفخامة؟

أوضــح أنه وصــل إلى مكتبه وقبل أن يبدأ في قراءة الصــحف والتقارير اليومية، وصـــل ســـكرتيره ليبلغه بخبر الاجتماع العاجل!

أشــار الرجل إلى بعض أقطاب الحزب الذين يتولون قيادة جهاز الأمن والمخــابرات، وأعلن: لقــد حــاولوا اغتيــال الرئيس المصري في مؤتمر القمة الأفريقية!

تذكر الآن أنهم نصحوه بعدم السفر إلى اجتماع القمة الأفريقي، وأرسلوا بدلا عنه نائبه الثاني، كان تبريرهم أن معظم رؤساء الوفود في القمة كانوا من وزراء الخارجية!

كان أول شيء خطر على باله أن الأمور لا تسير بصورة جيدة بين أعضاء حزب الوطن، وأنهم حريصون على حياته لسبب لم يبد له واضحا والا لأرسلوه لمؤتمر القمة، قال مدير جهاز الاستخبارات: النظام يواجه ضغوطا قوية بسبب انكشاف أنّ تنظيم الإخوان المسلمين هو الذي دبّر الانقلاب، الأمر الذي لا يجد قبولا في الإقليم، بسبب أن التنظيم نفسه متورط في نزاعات عسكرية ضد عدد من الأنظمة في المنطقة. قمنا بالتنسيق مع بعض عناصر التنظيم في مصر لتدبير محاولة الاغتيال وأن يحاول التنظيم الاستيلاء على السلطة هناك بمجرد حدوث فراغ في رأس السلطة، أوضح: لا مستقبل لاستمرار النظام سوى أن ينشأ نظام مساند في إحدى الدول المجاورة!

كان واضحا أن هناك تباين في الآراء، أقطاب الحزب الكبار كانوا يرون في التصرف حماقة قد تودي بالنظام كله، لكن السيد الرئيس الذي اكتفى بالاستماع لاحظ أن غضب أقطاب الحزب كان في الواقع بسبب عدم علمهم بالعملية إلا بعد وقوعها، كأنهم شعروا أن الجناح المتمرد يمكن أن يطبق نفس العملية في الداخل ويكونون هم ضحاياها هذه المرة.

وجد نفسه في نفس المسافة بين المجموعتين، يستعيد سلطة توفيقية مؤقتة، قال إنّ الحركة الإسلامية أصبحت دولة، والمخاطر تحيط بهذه الدولة من كل الجهات وأنه لا يجب

التورط في أية عمل لم تُحسب نتائجه بصورة جيدة، قد يعطي أعداء الحركة فرصة لتقويض دولتها، بدا كأنه في تلك اللحظة النادرة كأنه أحرص الموجودين على النظام في ظل الأخطار التي تهدده، أو ربما بسبب الارتباك الذي ضرب النظام كله من عواقب فشل محاولة الاغتيال وانكشاف دور التنظيم الحاكم فيها.

تحدّث النائب الثاني للمرة الأولى منذ الانقلاب: الأدهى والأمر أنهم أعادوا الذين قاموا بتنفيذ المحاولة في طائرتي! لو اكتشفت السلطات الأثيوبية ذلك لواجهت موقفا محرجا للغاية!

قال رئيس جهاز الأمن والمخابرات: وجود هؤلاء الأشخاص هنا هو الذي سيثبت تورطنا في العملية! استمع السيد الرئيس بصبر إلى الحوار الذي تعالت نبراته الحادة حتى أوشك الجماعة على ضرب بعضهم أمامه!

قال الشيخ الكبير: بعد أن استخدموا هؤلاء الشباب الذين قتل عدد منهم، يريدون بكل بساطة تصفيتهم، أي جحود وأي نكران للجميل، وماذا سنقول لكل المجاهدين في العالم؟ نحن نستخدمكم لتثبيت أركان حكمنا ثم نتخلص منكم مثل مناديل الورق؟

قال زعيم الجناح المؤيد للتصفية: لدينا كل الأسانيد الشرعية التي تؤيد التخلص منهم! الضرورات تبيح المحظورات!

تساءل السيد الرئيس وكأنه يبحث عن مخرج لهم: هل هنالك إمكانية لترحيلهم بسرعة إلى أية بلد آخر؟

لدينا خطة بديلة في حال الاتفاق على عدم اللجوء لخيار التخلص منهم، لمحاولة نقلهم إلى الصومال أو أفغانستان!

وهل هناك فرص كبيرة لاحتمال نجاح ذلك وتنفيذه بسرعة؟

قال رئيس المخابرات: سيخرجون بأوراق مضبوطة لكن طبعا احتمال إنكشاف أمرهم وارد رغم أنه صغير!

تم إقرار خطة الترحيل، لم يكن الجناح الذي دبّر محاولة الاغتيال سعيدا بذلك الحل، لكن كان واضحا أنهم كانوا مستعدون للتنازل بسبب ارتباك انكشاف وفشل خطتهم.

00

منذ استيقاظه صباح ذلك اليوم الذي سيتم اختطافه فيه، كان النقيب عبدالله يشعر بقلق غامض، كان قد رفض بعد انشقاق الحزب كل المناصب التي عُرضت عليه، لأنّ ولائه كان لا يزال لقادة الحركة الإسلامية من الجيل الأول، الذين أقصاهم الانشقاق من السلطة، لتحتلّ قيادات الصف الثاني مواقع القرار.

النقيب عبد الله لم يكن ضمن المشاركين في التخطيط لمحاولة اغتيال الرئيس المصري، لكنه بحكم موقع عمله عرف بعض أسرار العملية، كما أشرف على استخراج جوازات سفر المجموعة التي سافرت إلى أديس أبابا ضمن فرقة فنية قامت بجولة في إثيوبيا، لكنه لم يكن على علم بطبيعة المهمة التي

ستنفذها المجموعة ليتفاجأ بعد عدة أشهر أنّ المستهدف كان هو الرئيس المصري.

بعد انكشاف العملية، استدعاه الأمين العام للحركة الإسلامية ورئيس حزب المؤتمر الوطني، وكلّفه برئاسة لجنة تحقيق حول العملية وتحديد كل المسئولين عنها، قال له الأمين العام: لديك تفويض كامل لمساءلة الجميع، يمكنك أن تبدأ الآن معي، أو مع الرئيس، لا توجد استثناءات.

شكر النقيب عبد الله الأمين العام على ثقته، وبدأ العمل على الفور، كان مترددا في البداية، كان واضحا أنّ الجيل الذي يسيّر أمور الوطن من الحركة الإسلامية متورط في العملية، وبالتالي ستكون مهمته صعبة خصوصا داخل جهاز الأمن والمخابرات. بعد تخرجه من الجامعة بداية عقد التسعينيات، وحسب توجيهات الحزب أصبح النقيب عبد الله طالبا في الكلية الحربية لمدة عام ، تخرّج بعدها في رتبة الملازم، عمل لمدة عام في مناطق العمليات قبل أن يتم استيعابه في جهاز الأمن الشعبي، التابع لحزب الوطن، كان الجهاز يعمل بالتنسيق مع جهاز الأمن والمخابرات ويتم تكليفه ببعض المهام الخاصة مباشرة من قيادة الحزب.

حين عمل النقيب عبد الله لفترة قصيرة مع جهاز الأمن الاقتصادي، اكتشف أنّ الحزب الحاكم هو الذي كان يدير تجارة العملة التي تضرر منها الاقتصاد الوطني، وقام النظام بإعدام

عدد ممن اتهمهم بالتعامل في النقد الأجنبي خارج النظام المصرفي، اكتشف النقيب عبد الله أنّ التاجر الحقيقي الذي يتعامل في النقد الأجنبي هو التنظيم الحاكم نفسه وأنّ عددا من التجار المحسوبين على الحركة الإسلامية هم المتحكمون في السوق نفسه!

ختم أحد تقاريره بعبارة: لماذا تم إعدام أولئك الشباب إذن؟ شارك النقيب عبدالله من قبل وصول تنظيمه إلى السلطة في عمليات غير قانونية، لتهيئة الجو للتنظيم للوصول إلى السلطة، كانوا يقومون بإخفاء كميات ضخمة من السلع الغذائية لإحداث ندرة تضع الحكومة الديمقراطية في حرج مع الشارع، كانوا يقومون أيضا بسرقة المحلات التجارية وبعض المؤسسات الحكومية لإحداث حالة من الشعور بعدم الأمن وسط المواطنين، كما شارك في تزوير انتخابات عدد من الجامعات والمعاهد حتى يصل طلاب التنظيم للفوز بمقاعد اتحادات الطلاب، لكنه كان يعتقد أنه بعد وصول التنظيم إلى السلطة تصبح مواصلة شن الحرب على الدولة لا معنى لها.

حاول البحث عن الأسباب الحقيقية، اكتشف أنّ الأمر لا يعدو محاولة إرهاب الناس للقبول بالنظام الجديد، كما توفرت لديه شكوك أنّ النظام الذي يريد إعادة ترتيب اقتصاد الوطن بما يحفظ فقط مصالح التنظيم الإسلامي، كان يريد السيطرة تماما على السوق، وإخراج غير المتعاطفين مع التنظيم من رجال

الأعمال أو التجّار خارج حركة السوق، تذكّر أن عددا من كبار التجار أو حتى المزارعين أصحاب المشاريع الكبيرة في مناطق الزراعة المطرية تعرّضوا إما للقتل أو للإفلاس خلال الفترة الماضية.

بعد عزلة استمرت في البيت طوال عدة أشهر رفض خلالها أية محاولات من زملائه للعودة إلى العمل، استجاب أخيرا لضغوط والده وقرّر البحث عن عمل بعيدا عن دوائر النظام أو الحزب، بعد عدة محاولات فاشلة وبتوصية من والده لأحد أصدقائه وجد عملا في شركة بناء حديثة، كانت مهمته الإشراف على حسابات الشركة، لم يكن يعلم أنّ الشركة كانت مملوكة لجهاز الأمن والمخابرات.

عرف بعد أشهر أن الشركة تابعة للجهاز فقرّر الاستقالة، فيما بعد أقنعه أمين الحركة الإسلامية بالعودة للعمل في جهاز الأمن الشعبي.

بدأ في جمع المعلومات، عرف في البداية أنّ العملية استغرقت أكثر من عامين من التخطيط، حيث أنّ الجوازات التي تم استخراجها بعلمه حين كان يعمل في الجهاز في ذلك الوقت، استخدمت لتسفير المجموعة التي نفذت محاولة الاغتيال، تم ضمهم آنذاك إلى فرقة موسيقية أحيت عددا من الحفلات في أديس أبابا. كان قد سمع أنّ بعض الموسيقيين الذين توفوا في حوادث غامضة، كانوا هم نفس المجموعة التي سافرت إلى

أديس أبابا وبرفقتهم الإرهابيين الذين تورطوا في محاولة الاغتيال، بدا له أن أفراد الفرقة الموسيقية لم يكن لديهم علم بهوية المجموعة التي تم تسفيرها معهم باعتبارها جزء من الفرقة، لكن يبدو أنّ أفراد الفرقة تمت تصفيتهم جميعا خوفا أن يكون أحدهم قد عرف شيئا بالصدفة.

كان واضحا أن جهات كثيرة لم تكن سعيدة بالتحقيق، لكن لم تشأ أية جهة الوقوف بصورة واضحة أمام تحقيق يجري بتوجيه من أمين عام الحركة الإسلامية. كما لم تشأ جهات كثيرة أن يخرج أية خلاف داخل الحزب إلى العلن في تلك المرحلة، حيث يحاول النظام تجاوز آثار المحاولة وتلافي تأثيرها المحتمل على علاقاته بالمجتمع الدولي.

اكتشف أنّ التنظيم لا يحتفظ فقط بعلاقات قوية مع عدد من التنظيمات المتطرفة في المنطقة، بل أنه متورط في دعم وإنشاء تنظيمات جديدة، وأنّ التنظيم يستضيف في معسكرات تدريب على أطراف بعض المدن الكبيرة عدد كبير من أعضاء الجماعات المتطرفة، وأنّ معظمهم يحملون جوازات سفر سودانية.

بدا في تتبع آثار المجموعة التي نفذت محاولة الاغتيال منذ لحظة وصولها لحضور المؤتمر الشعبي الاسلامي، كانت بعض الخيوط لا تزال غير واضحة. طلب مقابلة رئيس جهاز الأمن والنائب الاول للرئيس.

كان يشــعر أنّ عيون الســلطة تتبعه من على البعد، ويكتشــف كلما تراكمت لديه المعلومات، أن لا أحد حتى في الجناح التابع لأمين الحركة الاســلامية يتعاطف مع تحقيقه! شــعر أنّ نتائج التحقيق ان قدر لها أن تنشــر في يوم ما ســتورّط جميع أجنحة التنظيم، حتى تلك التي تحفّظت على محاولة الاغتيال! شعر أنه أيضــا ســيكون مســئولا! فقد شــارك في اســتخراج عدد من جوازات الســفر لعدد من الناشــطين الاســلاميين الأجانب! رغم انه كان يعتقد ان الأمر لا يعدو كونه عملا إنســانيا لتســهيل حركة هؤلاء الناشطين بسبب حرمانهم من جوازات سفر من حكومات بلادهم، لكنه رغم ذلك مضى في تحقيقه، كان التحقيق لا يزال في بداياته حين نجا بأعجوبة من ســيارة انطلقت نحوه فجأة وهو يعبر شارع النيل قريبا من القصر الجمهوري، سقط أرضــا وانكســرت ســاقه وجرح في يده، فيما لاذت الســيارة بالفرار.

في المستشفى اكتشف أنه فقد كل الاوراق التي كان يحملها في تلك اللحظة، لحســن حظه كان يحتفظ في البيت بالقســم الأكبر من المســتندات التي حصــل عليها والاوراق التي دوّن عليها المعلومات، قضى بضعة أيام في المستشفى، لم تستطع زوجته خلالها من زيارته كثيرا، بســبب انشــغالها بطفلهما الصــغير، الذي عانى بعض المشــاكل الصــحية عند بدء ظهور أســنانه، أخذته الى الطبيب الذي نصحها باستخدام دواء للحمى، ودهان لتخفيف الألم في الفم.

حين عاد النقيب عبدالله الى البيت أخيرا بعد أن التأمت جروح يده ووجهه بينما لا تزال رجله اليمنى في الجبص، عرف من زوجته أنّها وجدت باب البيت مكسورا بعد عودتها من زيارته في المستشفى، لكنها لم تشأ ان تشغله بالأمر خاصة انها لم تكتشف اختفاء أية شيء مهم من البيت، لم يعثر هو على أثر للحقيبة الجلدية الصغيرة التي كان يحتفظ فيها بمستندات التحقيق.

أكدّت له واقعة اختفاء الحقيبة أنّ الحادث كان مدبّرا لإبعاده عن التحقيق، إما بقتله أو تخويفه من الاستمرار فيه. عرف أنّ ذلك كان إنذارا قويا وربما أخيرا وعليه الان اتخاذ قرار إما بالمضي قدما وتحمل كل النتائج أو الانسحاب. قرّر في البداية أن يتحدث الى الأمين العام لأنّ القضية تبدو معقدة جدا ومن الافضل ان يكون هناك فريق كامل يتولى التحقيق حتى لو تعرّض أحدهم لأية حادث يمكن أن يواصل البقية فيه.

أوضح للأمين العام أنّه توصل الى نتائج مهمة سيقوم بتدوينها رغم أنه فقد كل المستندات التي قام بجمعها خلال فترة البحث. أصدر الأمين العام قرارا بتكوين لجنة، ضمت عددا من القانونيين ، كما أصدر توجيها لجهاز الأمن التابع للحزب لتوفير حراسة لأفراد اللجنة لحين الفراغ من التحقيق.

في الاجتماع الأول وضع النقيب عبدالله صورة كاملة أمام أعضاء لجنته.

تســـاءل أحمد الطيب المحامي في بداية الاجتماع عن الغرض من التحقيق، هل ســيجني التنظيم منفعة مباشــرة أم أنّ نتائج التحقيق قد تقود الى انشـقاق في الحركة الاسـلامية. أوضـح: نحن نعرف من الـذي دبّر المحـاولـة إنهم جزء من التنظيم، المرحلة صـعبة جدا والتنظيم لم يتمكن من مفاصـل الدولة بعد، وهناك جهات في الخارج والداخل تستهدف التجربة الاسلامية.

أوضح النقيب عبدالله: أتفق معك في جوهر الفكرة، لكن الحركة الاســلامية لم تعد مجرد تنظيم أو حزب يســعى للوصــول الى الحكم، الحركة الاســلامية أصــبحت دولة، الدولة لها التزامات داخلية وخارجية، إما أن نصــبح جزءا من المجتمع الدولي أو نبحث عن مســمى آخر غير دولة، العلاقة مع جيراننا وبقية المجتمع الـدولي يحكمهـا قـانون دولي، لن نســتطيع خرقـه ونســتمر في التعامل معهم بصــورة طبيعية، البعض داخل تنظيمنا لا يزال يفكر بنفس عقلية التنظيم المتشدد الذي يحارب من أجل الوصول للحكم وحماية العقيدة المستهدفة!

فيما اكتفى بقية أعضاء اللجنة بالاستماع، واصل أحمد الطيب المحامي كلامه دون أن يبدو عليه أنه اقتنع بوجهة نظر النقيب عبدالله: قد أتفق معك في ما قلت، لكن كما ذكرت الوضع صعب والتنظيم يواجه حربا شــرســة في الداخل والخارج، قد يكون هناك مشــاكل داخل الحركة الاســلامية بين القيادات، نحن جمهور الحركة الاسـلامية اذا اخترنا أحد أطراف هذا الصـراع

فنحن سنسعى لتوسيع الفتق، سيصبح الانشقاق واقعا ستكون له عواقب وخيمة على التجربة الوليدة.

قال النقيب عبدالله: هناك تجاوزات كثيرة هي التي تهدد التجربة في تقديري أكثر من نقد التجربة أو مراجعتها، في كل الاحوال لنتفق أنّ التحقيق ستبق نتائجه سرية، سترفع فقط لقيادة الحزب، يجب أن تكون هناك محاسبة ولو في حدود ضيقة حتى لا يتكرر انفراد مجموعات بقرار تترتب نتائجه الكارثية في النهاية ليس فقط على الحركة كلها بل على الوطن كله!

00

بعد سبع سنوات من اختفائه، كانت أسرة عبد الرحيم لا تزال تعيش على وقع الصـــدمة، مظهر البيت يعكس حال الحداد، الحياة متوقفة داخل البيت إلا بالقدر القليل الذي يبقي كوة الأمل مفتوحة، إلا بالقدر الذي يوفر طاقة قليلة للانتظار، جهاز الراديو الذي كان يصـــدح في بهو البيت طوال اليوم على مدى سنوات بعيدة، بموسيقى برامج الصباح، وفترة ما بعد الظهيرة التي تخفف فيها أغنيات عبد العزيز داؤود وعبد الكريم الكابلي وزيدان من كآبة العالم الذي يكاد يغلي بفضل حرارة الجو غير المحتملة.

قبل أن تغلب على معظم برامجه بعد الانقلاب، الوجه العسكري الإخواني، أغاني تحض على الجهاد، أناشـــيد تمجّد الموت، تعلن عن كتائب المجندين المتجهة إلى مناطق العمليات، وعن معجزات الحرب: قرد يتقدم المجاهدين، ليقوم بتفكيك الألغام الأرضية التي زرعتها حركة التمرد، غزلان تتحدث بلغة عربي

جوبـا، تطلـب من المجـاهـدين الجـائعين أن يقوموا بـذبحهـا والتغذي بلحمها.

بات الراديو صـــامتا منذ اللحظة التي اختفى فيها عبد الرحيم، حتى نوافذ البيت الخشبية، التي تغطيها ستائر الساتان المغطاة بالتراب تبدو في وضـع الانتظار، حتى شـجرة النيم التي تغطي نصـف الفناء، والتي شـهدت طفولة عبد الرحيم وإخوته، تبدو ايضـــا كأنها في إنتظار عودة الغائب لتســـتأنف الحياة، لتُبدل أوراقها وفق دورة تعاقب الفصـول، لتحتفل بعصـافير المغيب، ومهرجانات ضوء الفجر.

اضـــطرت ثريا لطلب عطلة من عملها حتى لا تترك والدتها لوحدها في البيت طوال النهار، أشـــقائها بدر وســـمير كأنا لا يزالا يدرســـان في الجامعة، مســـاء يعمل بدر في متجر لتأجير أفلام الفيديو وتصوير المناسبات، سمير كان الأصغر، رفضت والـدتـه أن يخرج للبحـث عن عمـل، حتى أثنـاء وجوده في المدرسـة كانت تشـعر بقلق شـديد وتسـأل كل دقائق عن أسـباب تأخره، أقنعتها ثريا أنها ربما تفقد عملها لاضـــطرارها للبقاء بجانبها لذلك يجب أن يجد ســمير عملا، لم تقل ثريا شــيئا عن حاجتهم للمال منذ اختفاء عبد الرحيم، لم تشأ ثريا أن تذكر اسم شــقيقها الغائب حتى لا تثير أحزان والدتها رغم أنها تعرف أن والدتها لا تحتاج لسماع اسمه لتتذكره، فهي كانت طوال اليوم لا تفعل شـــيئا ســـوى انتظار ظهوره، يتعلق قلبها بكل وقع

خطوات عابر في الشـــارع، أمام البيت أملا في أن تكون هي خطواته، ينتفض جسـدها كله وتهب واقفة لدى كل خبطة على باب البيت، شـعرت الأم بوحشـة أكثر بعد زواج ثريا وسـفرها خارج الوطن للالتحاق بزوجها. قاموا بتأجيل زواج ثريا عدة مرات أملا في ظهور عبد الرحيم، في النهاية بعد إلحاح الزوج وابنيها سـمير وبدر وافقت الأم على إتمام الزواج، بشـرط ألا يكون هناك اية مظهر للفرح في البيت، قاموا بعمل عقد الزواج في المسجد القريب من البيت، ومساء اليوم نفسه جاء الزوج لاصطحاب زوجته حيث سافرا خارج الوطن في اليوم نفسه، كانت تلك مناسبة أخرى للحزن والبكاء.

بعد سفر ثريا أصابت الأم حالة من الشعور بالوحدة زادت من فداحة الشـعور بفقد عبد الرحيم، كان ابناها يتناوبان البقاء في البيت معها، قاما بعد أيام قليلة من سـفر ثريا بإحضـار طبيب لمعاينتها بسبب تدهور صحتها، كانت تأكل قليلا، وبعد الحاج شديد من ابنيها. وجد الطبيب أن ضغط الدم كان مرتفعا كثيرا واكتشـف أنها لم تكن تتناول الدواء. كتب لها بعض المقويات وطلب من ابنيها التأكد أنها تتناول جرعة الدواء يوميا، اقترح سـمير أن يتصـل بثريا ويطلب منها العودة سـريعا، لكن بدر اعترض على ذلك، قال إنها سافرت للتو مع زوجها ومؤكد أنها ستعود في أقرب فرصة للاطمئنان على والدتها.

كانت الحاجة نور أثناء هذيانها طوال أيام مرضها، تردد اسم عبد الرحيم باستمرار، تخاطبه طوال الوقت، تنخرط أحيانا في البكاء، ثم تعود لتسأله عن أسباب سفره الطويل، يختلط لديها الماضي والحاضر، تغني له لينام في طفولته، تراه تائها في البيت يوم وفاة والده، يراقب بدهشة عويل النسوة مع أمه، دون أن يفهم لم يبكي الجميع في وقت واحد، كان يعرف أن الإنسان يبكي بسبب الألم، ويبكي لوحده، لكنه لم يكن يفهم كيف يتألم الناس ويبكون جميعا في الوقت نفسه، تبعده من الغرفة التي يرقد فيها جثمان والده أثناء غسل الجثمان وتجهيزه للدفن، حتى لا يرى وجه والده الميت، تقول له حين سأل في اليوم التالي عن والده: والدك ذهب إلى الجنة!

ولماذا لم يأخذنا معه؟ وعدني حين سافر آخر مرة، أنه سيأخذني معه في كل مرة يسافر فيها!

تمسح دموعها، وتحاول أن تصف له الجنة، أنّ الناس يسافرون إلى الجنة لوحدهم، لا يأخذون معهم أية إنسان!

تقول أثناء هذيانها حين ترى زوجها الراحل يعبر أمامها في ومضة حلم: لن أسمح لك لتأخذه معك! اذهب أنت ودعنا في حالنا اعتدنا على الحياة بدونك، لكننا لا نستطيع العيش بدونه! تصرخ فيه: أتركه في حاله، لن أسمح لك أبدا أن تأخذه مني! وحين يتحول صوتها إلى صراخ، يحثُّ الميت الخطى بعيدا خائفا مرتجفا بسبب عدم اعتياده في هدأة الموت على صراخ

الأحياء، يهرع أبنائها معتقدين أنها تنادي عليهم، يجدونها غارقة في عرق جسدها وهذيان عراكها مع الموتى.

توصيه كيف يتصرف في المدرسة، وهي تصحبه في الطريق إلى المدرسة في أول أيامه فيها، توصيه أن يحافظ على نظافة ملابسه، وأن لا يتشاجر مع أقرانه، تتشاجر مع مدير المدرسة لأنّ أحد المدرسين عاقب عبد الرحيم بدون رحمة، حتى ترك الجَلد اثارا على وجهه وظهره، قالت لمدير المدرسة: هل لأنه يتيم تفرطون في عقابه؟ لو كان والده حيا ما تجرأ أحد على ضربه بمثل هذه القسوة.

تستمع إلى مدير المدرسة وهو يعتذر لها، ويعدها أنّه لن يسمح بمعاقبته مرة أخرى مهما حدث. تبكي بشدة في اليوم الذي جُرح فيه عبد الرحيم حين سقط فوق قطعة زجاج مدفونة في التراب أثناء لعب الكرة في الباحة أمام البيت، كانت تمنع إخوته الصغار من الخروج من البيت، هو الوحيد الذي لم تكن تستطيع رفض اية طلب له، حين ألح عليها أن يخرج للعب الكرة، سمحت له بعد تردد بشرط أن لا يذهب بعيدا، فاستطاع إقناع زملائه أن يلعبوا في الباحة أمام بيتهم رغم أنها كانت صغيرة جدا ولا تصلح كملعب لكرة القدم.

قام الطبيب في المركز الصحي القريب بتنظيف وخياطة الجرح، وأعطاه دواء لعلاج الالتهاب ومسكنا للألم، كانت تسهر بجواره طوال الليل، إصابته حمى في الأيام الأولى، لكن الجرح بدأ في

التعافي بسرعة، لم تشأ أن تمنعه من اللعب مرة أخرى، لكنها قامت ليلا حتى لا يراها أحد بتنظيف الباحة أمام البيت وإزالة الشوك والطوب وقطع الزجاج التي عثرت عليها.

رغم صغر سنه يحمل هم البيت وهم إخوته الأصغر منه سنا، يساعد أمه في أعمال البيت، يغسل الأواني ويكنس الفناء، يراعي إخوته الصغار وكأنه والدهم، رغم أنه يكبرهم بأعوام قليلة، وحين بدأ أشقائه في الذهاب إلى المدرسة، كان يقوم في طريقه بالذهاب مع ثريا حتى تدخل مدرستها المجاورة لمدرستهم، ثم يصحب بدر وسمير معه إلى المدرسة، كان يحميهما من الطلبة المشاغبين، في البيت بعد أن يفرغ من مساعدة أمه ، كان يجلس لمذاكرة دروسه ويساعد إخوته في مراجعة دروسهم.

يوم عيد الفطر تصطحب الأطفال لزيارة قبر والدهم، يضيع وقت طويل كل مرة حتى يعثرون على قبر والدهم، بسبب ازدحام المكان تضيع معالم القبر في كل مرة، تقول الأم: يموت الناس كثيرا هذه الأيام، أخشى أنني حين أموت لن أجد مكانا لِأَدْفِن فيه جوار زوجي! تضع جريد النخيل فوق القبر وتدعو للميت، وتعلّم أطفالها كيف يقرءون الفاتحة ويدعون لوالدهم، ثم تناجي زوجها مودعة، تطمئنه على أحوالهم: نحن بخير، كل شيء يسير بصورة حسنة، لم تمت يا والد أبنائي، ما دمت أنجبت عبد الرحيم فأنت موجود دائما معنا، هو يشبهك في كل

شـيء، يحمل هم النـاس جميعا، ويخدمهم رغم صـغر سـنه، بدر مشـاغب قليلا لكنه طيب القلب مثلك، ثريا أيضـا تشـبهك في كل شـــيء، ورغم أنـها لا تذكر صــورتك، لكنـها تقول حين أكبر لن أتزوج إلا رجلا يشــبه أبي، ســمير أيضــا يشــبهك، وحين كان صــغيرا جدا قبل ســنوات، كان يحب دائما أن يحاكي صــورتك الموجودة في صـالة البيت، يحمل عصـا في يده، ويرسـم شـاربا بالفحم على وجهه، ويســتخدم ثوبي كعمامة حين يضــعها على رأسه تغطي جسمه كله.

00

أحضــروا أفضــل طبيب للمســالك البولية، قام بفحص الســيد الرئيس فحصــا شــاملا، أوصــى باســتخدام بعض الأدوية، قدّم توصـيفا عاما ضـاعف من الإرباك الذي سـببته المشـكلة: يبدو أنّ هناك مشـــكلة ما، أحتاج لبعض الوقت لمزيد من المراجعة والاستشارات. !

اتصل شخص ما سيدي الرئيس، يقول إن العضو الضائع معه! ويطلب مبلغا كبيرا من المال!

ألا تستطيعون تحديد مكانه؟ دفعت لكم الشـهر الماضـي خمسـة ملايين لشراء أحدث أجهزة التجسس على المكالمات الهاتفية، أين ذهبت تلك الأموال؟ بالطبع ذهبت إلى حساب في ماليزيا أو

تركيا، واشـــتريتم بدلا من الأجهزة الغالية الثمن، أجهزة مُقلّدة رخيصة مصنوعة في الصين!

سيدي الرئيس الرجل يستخدم هاتف الثريا الذي يستحيل علينا تتبعه!

ساحر مشعوذ يستخدم الثريا!؟

يقال إنه يستخدم سيارة نقل صغيرة من نوع لاندكروزر، يحمل فيها شـحنة الأعضـاء الذكرية التي اسـتولى عليها، ويسـتخدم تليفون الثريا للتفاوض مع أصـــحاب الأعضـــاء، ثم يتفق مع صاحب العضو على مكان التلاقي الذي يصله عن طريق الجي بي اس، أحيانا تحدث أخطاء فقد قام مرة بإعادة عضـــو ذكري يخص شـابا صـغيرا إلى مسـن في التسـعين من عمره! وكانت النتيجة أنّ التسعيني أصابته حُمى الزواج مرة أخرى!

كشـــف تهافته العاطفي بســـرعة حين علّق دون حكمة: لا أحد يرفض مثل هذا الخطأ!

هل تنوي فخامتك أيضا الزواج؟

تجاهل سـؤال مسـاعده، وأعلن: لدي موعد الأسـبوع القادم مع المبعوث الأمريكي، أخشى أنني لن أكون مهيئا لاستقباله!

إن لم تتمكنوا من حل المشـكلة سـأضـطر إلى إلغاء لقائي معه! حين أجلس معه بكامل أعضـــائي البشـــرية فإنني أحاول طوال

الوقت دفن إرتباكي في إبتسامة أرسمها على وجهي حتى من قبل وصوصل المبعوث، ليس بدافع المجاملة أو الفرح بخبر قرب رفع العقوبات الأمريكية، بل لأخفي أن أعضاء جسمي كلها كانت ترتجف في حضرة المبعوث، الذي لا يكف عن الحديث عن التعويضات التي يجب أن ندفعها لأسر ضحايا المدمرة كول، أشرح وأعيد له أنني لم أكن أحكم آنذاك، كنت في القصر، وكان الاخوان في السلطة! لا فرق بيني وبين الديدبان الذي يقف أمام باب القصر! أستعرض حرس الشرف وأتسلم أوراق اعتماد السفراء، ويؤدي الوزراء القسم أمامي، دون حتى أن اعرف أسمائهم، أقوم بالتوقيع على أوامر جمهورية بتنفيذ حكم الإعدام في أصدقائي!

لم أستطع ولا حتى حماية أهل قريتي وجلهم من أقربائي، ولأن معظمهم كانوا يتعاطفون مع المعارضة، اعتقلهم جهاز المخابرات، قاموا بتعليقهم من أرجلهم، وضربوهم ضرب غرائب الإبل، وحين جاءني وفد منهم طلبا للمساعدة استدعيت مدير المخابرات، لكنه أنكر أن هؤلاء من أقاربي وقام بإحضار وفد آخر من رجال غرباء، زعموا أنهم من تلك القرية وأنهم من اقربائي، حتى أنّ احدهم حكى لي انه كان موجودا يوم مولدي، وان والدي رحمه الله، أرسله لإحضار القابلة لأمي، وشرح لي انهم يعيشون في رخاء في عهد الثورة، وانّ جهاز الأمن والمخابرات أعاد تأهيل المشروع الزراعي في القرية، وانهم عادوا للمرة الأولى بعد سنوات لزراعة القطن، وانهم

أنشـــأوا أيضـــا وحدة أبحاث زراعية لدراســـة إمكانية زراعة محاصـيل جديدة واسـتخدام بذور مُحسّـنة لزيادة انتاج القمح، وأعطـاني جوالا صـــغيرا من الكركـدي، قـال انـه من انتـاج المشـــروع، وانـه عرف من والـدي قبل ســـنوات انني احب الكركدي لذلك أحضـــر لي كمية منه، لأن الموجود في الســـوق ليس من النوع الجيد، ومعظم المعروض في الأسـواق يسـتخدم المزارعون الأســـمـدة الكيمـاويـة لإنجـاحـه، لكنهم يتجنبون استخدام الأسمدة الكيماوية التي سبّب انتشارها انتشار أمراض السـرطان والفشـل الكلوي. صـدّقته لأنني بالفعل أحب الكركدي ولم يكن يعرف ذلك سوى أفراد أسرتي!

وبعد ســـنوات اكتشـــفت أن جهاز المخابرات قام بإفراغ تلك القرية من سـكانها وتحويلها إلى مصـنع ضـخم للأسـلحة! قلت لهم من الجيد أن نصبح دولة عظمى تُصنّع الأسلحة! ولكن ألم تجدوا مكانا آخر بدلا من تشريد أهلي وإفراغ قريتهم؟ قالوا لي وجدنا القرية فارغة من ســـكانها، كانت هناك جائحة كوليرا، وبدلا من إبلاغ الجهات الصـحية، اغلقوا القرية على أنفسـهم، وكانوا يسـتخدمون القرض والأدوية المحلية للعلاج حتى ماتوا كلهم، حتى الحمير والبهائم نفقت كلها!

قال المبعوث: أسـلحة مصـنعكم العظيم كانت تذهب للإرهابيين في مـالي ولإرهـابيي بوكو حرام في غرب أفريقيـا وفي أمـاكن أخرى! قرّرت أن اصـــمت، كلما قلت شـــيئا ما أمام المبعوث

الأمريكي، يحوّله بســـرعة إلى دليل آخر لضـــلوع دولتنا في الإرهاب!

حتى الصمت يستثمره المبعوث، حين وجد أنني لذت بالصمت قال لي: ألم تقل في حوار صحفي أنك تكره الصمت، وأنك تحب الصـــخب، حتى إنك اســـتجلبت مغنيا مغمورا ليقيم معك في القصـــر، وأصـــدرت له أمرا ألا يتوقف عن الغناء طوال اليوم، وأنه كان يكرر عددا من الأغاني الهابطة حســـب طلبك ســـيدي الرئيس، وأنك لم تطرده إلا بعد أن أصيب بالتهاب في الحنجرة نتيجـة الغنـاء دون توقف لعدة أشـــهر! حتى أنـه تعود على اســـتئناف الغناء حتى وهو ينام واقفا والمايك في يده، والفرقة الموســـيقية الكاملة تعودت أيضـــا على اســـتئناف العزف أثناء النوم، رغم أنّ الشـــخير كان يطغى أحيانا على صـــوت الآلات الموسيقية التي أصبحت بالكاد تصدر صوتا بسبب استهلاك أوتارها من فرط الغناء!

ابتسـمت ولم أُعلق على كلامه، كان بودي أن أصـحح له بعض المعلومات التي مضـــى يســـردها وهو يتحدث عن دعم بلادنا للإرهاب، وعن انتهاكات حقوق الإنسان، لكنني آثرت الصمت، فقال: ألم تقل في نفس ذلك الحوار الصـــحفي أنك من الإخوان! وانّ أشـــقائك من الإخوان المؤســـســـين للتنظيم! ثم يقول لي: تقول إنك انقلبت عليهم لكنهم موجودون في كل مفاصل الدولة، وهم قادة حزبك سيدي الرئيس!

حتى داخل هذا القصـــر الجديد هم موجودون في كل مكان! يا لخبـث هـذا المبعوث، كـأنـه عرّاف، يقول لي حين عبر أحـد أعضـــاء حزب الإخوان أثناء اللقاء من أمامنا، متى حلق هذا الأخ المسلم ذقنه التي كان يسحبها على الأرض قبل سنوات؟ وأشار لآخر وقال: متى انضم هذا الأخ المسلم لحزبك؟ ألم يكن تابعا للجناح الآخر! قام المبعوث بتلخيص انشقاق تنظيمنا: كل ما حدث هو الجزء الثاني من مسرحية اذهب إلى القصر رئيسا واذهب أنا إلى السجن حبيسا! جناح معارض بالنهار وحكومة بالليل! حكومة الأبواب الخلفية!

ضـــحكت وطلبت منه أن يترك لي ملف تعويضـــات ضـــحايا المـدمرة كول، قلـت محـاولا إغلاق الموضـــوع، ســـنبحـث الموضـوع في مجلس الوزراء وســأرد عليكم قريبا، مجرد أن تســـلّمت منـه الملف، أخرج من حقيبتـه ملفـا آخر، قلـت هل ســنناقش الآن ملف رفع العقوبات؟ ابتســم وقال لي: هذا ملف تعويضات تفجير السفارتين في تنزانيا وكينيا!

أعدت له كلامي حول القصر والسجن، قلت له كنت أقوم آنذاك بتعيين أشخاص في مناصب دستورية، حين يذهبون بعد أداء القسم لاستلام وظائفهم، يجدون أشخاصا آخرين يجلسون في مكانهم! فأضطر للاعتذار لهم! لم أكن أحكم خارج غرفة نومي، الآن تغيرت الأحوال، الشـــيطـان الـذي كـان يحكم من وراء ظهري، هو الان في كوبر!

يبتســـم المبعوث الأمريكي بخبث ويقول: لكنّ نائب الشـــيطان موجود في القصـــر! هل هذا مبعوث أمريكي أم عرّاف؟ يعرف كل ما يدور في القصر، يعرف حتى قصة العضو الذكرى الذي سـرقه أحدهم، لابد أنه يملك تسـجيل محادثة تليفون الثريا مع الساحر، الذي حصل على عشرين مليون دولار مقابل إعادته !

تسـلّمت ملف تعويضـات ضـحايا تفجير السـفارتين في تنزانيا وكينيا، وقلت محاولا إن أختم اللقاء، سـأقوم بمناقشـة الملف في اجتماع مجلس الوزراء الأسبوعي وسنرد عليك قريبا جدا، مـددت يـدي وأنـا واقف لأودعـه وبـدلا من أن يعطيني يـده لأصـافحها، فوجئت في يدي بملف آخر: قلت مندهشـا ما هذا ؟ قال هذا آخر ملف: ملف تعويضات ضحايا 11 سبتمبر!

00

قال النقيب عبد الله في آخر اجتماع للجنة التحقيق: لقد فعلنا ما بوسعنا سأقدم التقرير غدا لأمين الحزب وأمين الحركة الإسلامية، هل أذهب بمفردي أم نذهب جميعا؟

اقترح أحد أعضاء اللجنة أن يذهب النقيب عبد الله لوحده ويسلّم التقرير والمستندات إلى أمين الحزب، وإن رغب الأمين في حضور اللجنة للاجتماع معه فيمكن ترتيب موعد لذلك.

عند وصوله إلى أمانة الحزب ومعه حارسه الخاص، وجد النقيب عبد الله عددا كبيرا من حرّاس جهاز الأمن المدججين بالأسلحة والذين تعرف إليهم من ملابسهم، يحيطون بكل مداخل المبنى، أبلغه أحدهم: لا يمكن مقابلة أي شخص في مقر الحزب اليوم، هناك اجتماع مهم في الداخل، لم يستطع أن يفهم منهم ما الذي يحدث بالضبط في الداخل، كان يستقل مع حارسه

عربة تابعة للحزب، طلب من السائق أن يقلهم إلى فرع الحزب في وسط المدينة لمحاولة إستجلاء ما يحدث، فقد شعر أنّ هناك تطور غير عادي يحدث.

اتصل من داخل السيارة مستخدما هاتفه النقال بعدد من معارفه دون أن يعرف شيئا، كان هناك أعداد من قوات الجيش في الشوارع إضافة للحراسة القوية على عدد من المؤسسات الحكومية التي عبروا بجانبها.

كان الوضع يشبه انقلابا عسكريا، طلب من السائق تشغيل راديو السيارة، البرنامج يبدو عاديا، أمام فرع الحزب تكرّر نفس المشهد، عدد من الرجال المسلحين يقفون بلباس مدني أمام الباب الرئيسي، تلقى في تلك اللحظة اتصالا من أحد أعضاء اللجنة: يقولون أنّ الرئيس سيذيع بيانا هاما بعد قليل.

دون أن يعرف شيئا عما يدور داخل أروقة السلطة، شعر أنّ مجهود عدة أشهر قد ضاع في تلك اللحظة، بنهاية عمل لجنة التحقيق لم يكن هناك من داع للحراسة الشخصية، طلب من الحارس العودة إلى مقر عمله، وطلب من السائق إعادة السيارة إلى مقر الحزب، أنتظر قليلا أملا في أن يظهر أحد معارفه، ثم وقف في الشارع لبعض الوقت، قبل أن يعثر على عربة أجرة.

في نشرة أخبار الساعة الثالثة بعد الظهر استمع في جهاز الراديو إلى مقاطع من خطاب السيد الرئيس، الذي أعلن أنه

بصدد إصدار بعض القرارات الجمهورية تتعلق بتنظيم العلاقة بين الحزب والدولة بما يحقق التناغم في الأداء الحكومي، وللحد من تضارب القرار وتعدد المراكز التي تدير الجهاز الحكومي.

أجرى بعض الاتصالات لمعرفة ما وراء القرارات الجمهورية، عرف أنّ قرارا صدر بحل حزب الوطن، وتشكيل تنظيم سياسي جديد يرأسه رئيس الجمهورية ويكون النائب الأول أمينه العام، حاول الاتصال بأمين الحزب وأمين الحركة الإسلامية لكن تليفونه كان دائما مغلقا أو الخطوط مشغولة، قَرَّرَ أن ينتظر حتى اليوم التالي مرجحا أنّ التغييرات التي حدثت، ربما أربكت قيادة الحركة الإسلامية، وربما تؤدي إلى انشقاق كبير في صفوف الحركة، لكن النقيب عبد الله كان يريد فقط إغلاق ملف لجنة التحقيق ويخلي مسئوليته، خاصة وأنه كان يملك عدة مستندات ليست في صالح المجموعة الثانية في الحركة الإسلامية والتي أصبحت الآن في السلطة.

فكّر متوجسا: المجموعة التي دبّرت محاولة اغتيال الرئيس المصري أصبحت في السلطة! رغم أنه لاحظ من بعض الخيوط التي لم تتمكن اللجنة من متابعتها، أن كل أجنحة الحركة كانت في الواقع متورطة بصورة أو بأخرى، جناح الأمين العام الذي طلب التحقيق واعترض على المحاولة بعد وقوعها، كان هو الذي قدّم الدعوة لفريق الاغتيال باعتبارهم من الناشطين

الإسلاميين، وافتتاح معسكرات التدريب كان مبادرة من الحركة الإســلامية لم يعترض عليها أحد، صــحيح أنّ تدريب عدد من المقاتلين ربما كان بهدف المســاعدة في تأمين النظام نفســه، مثل مقاتلي حركة حماس الذين أســهموا في تأمين الكباري وبعض النقاط الاســتراتيجية في أيام الانقلاب الأولى، لكن هل يعقل (فكّر النقيب عبد الله) أن قيادة الحركة لم تكن واعية أنّ فتح معسكرات تدريب تضم عددا من الإسلاميين المحسوبين على حركات إسلامية معارضة لأنظمة الحكم في بلادها، يمكن أن يمر دون رد فعل من تلك الدول حتى لو لم تتورط تلك المجموعات في مخطط اغتيال رئيس دولة.

عرف النقيب عبد الله أنه يجب أن يتخلص من تقرير اللجنة والمســتندات التي يحتفظ بها، وَإلَّا فعليه توقع الأســوأ، الجهة التي كانت تسند ظهره أصبحت خارج لعبة السلطة، بدأ يجري بعض الاتصــالات مع مقربين من أمين الحركة لمحاولة تحديد موعد معه، دون جدوى.

في اليوم التالي كانت المســتندات وتقارير اللجنة لا تزال معه، قرّر أن يقوم بنقلها إلى بيت يقيم فيه بعض أقربائه من الشباب بعضهم طُلاب، إذا ما أراد أحدهم الحصول على المستندات، لن يفكر أنه نقلها إلى هناك، وربما وجود المســتندات بعيدا عن بيته قد يمثل نوعا من الحماية له كما مضــى يفكّر، أنهم على الأقل لن يقدموا على التخلص منه قبل الحصــول على

المستندات ومحاضر لجنة التحقيق، قرّر أن يستغل الارتباك الناجم عن التغييرات التي تحدث بعد القرارات الجمهورية، في سرعة نقل المستندات بعيدا عن البيت، قبل أن يتنبه من يهمهم أمرها ويبدأون في مطاردته.

حمل المستندات في حقيبة سيكون ملفتا للأنظار، بسبب كبر حجمها وجد أن وضعها داخل ثيابه سيكون ملفتا أيضا، قرّر في البداية أن ينقلها بعد حلول الظلام، فكّر أن يستعين بولده عثمان، يمكن أن يملأ حقيبة المدرسة ثم يضع بقية المستندات داخل ملابسه، لكن خروج عثمان معه بحقيبة مدرسية خارج وقت المدرسة ربما يكون أيضا ملفتا للأنظار، خطرت له فكرة أخرى، زوجته تخرج دائما في الصباح لشراء الخبز وبعض مستلزمات البيت، سيضع المستندات في حقيبة بلاستيك داخل السلة الكبيرة التي تحملها زوجته للتسوق، يقوم هو أحيانا بالذهاب مع عثمان إلى المدرسة، بعد أن يصل عثمان إلى المدرسة، يمكنه الذهاب إلى السوق لينتظر زوجته هناك، وليتأكد من تضليل أية مراقبة محتملة، ثم يتسلم من زوجته المستندات في أثناء تسوقها، أبلغ زوجته بتفاصيل خطته مساء، في الصباح، مجرد أن خرج مع عثمان خارج البيت شعر بحدس غامض أنه مراقب، لم يحاول أن يعطي أية انطباع بأنه لاحظ ذلك، حاول أن يكون طبيعيا، يمزح ويضحك مع عثمان ، وينظّف له بقايا آثار النوم في عينيه، توقف معه أمام متجر في الركن الشرقي للمدرسة، واشترى له بعض الحلوى

ماسحا الشارع من حوله بحذر، ثم أدخل عثمان إلى المدرسة وانطلق إلى السوق.

00

كانت عشرة أعوام كاملة قد انقضت منذ اليوم الذي اختفى فيه عبد الرحيم، كانت والدته لا تزال تعيش على أمل ظهوره في أية لحظة، يداوي جراح قلبها، التي تشعر بها تنزف، خاصة في صمت ساعات الضحى، حين يغادر الجميع، ولا يبقى من حولها سوى مرارة الذكرى، سوى كل الأشياء التي تبدو كأنها تشير إلى صورته، كل الأشياء الجميلة التي كان يحضرها لها، قبل أيام استيقظت صباحا، بقلب مثقل بأحزان خارقة، كانت تشعر بها تنبض في كل شيء من حولها، رفعت رأسها كما تعودت أن تفعل كل صباح، فلم تراه يحدق فيها كعادته، اختفت صورته المعلّقة على الجدار في مواجهة فراشها، تشاجرت مع بدر الدين، ارتبك في البداية حين سألته عن الصورة، قال إنه اكتشف أنّ الصورة كانت على وشك السقوط لأنّها لم تكن مثبتة

جيدا على الجدار، وأنه سيعيدها بعد أن يقوم بتغيير الخيط الذي يثبت الصورة إلى الجدار، شعرت به يكذب عليها، لم تكن تلك المرة الأولى في محاولاته لجعلها تنسى، قالت له وهي تشير إلى صدرها الذي كان الغائب المقيم أول من رضع منه من حبها وحنانها، أول من شاهدته يتعلم المشي، كان متعجلا كأنه يريد اختصار رحلة الحياة، كأنه عرف مبكرا بالخطر المحدق به، فتعجّل الخطى إلى قدره، يستيقظ من النوم ويشرع فورا في المشي، يمشي فوق كل شيء، بخطاه المتعثرة الأولى، الوحيد الذي تسمح له بالمشي فوق وجهها، تفرش وجهها برموش عينيها، ليعبر دون أن تذل قدمه، قالت ويدها تتشبث في صدرها، كأنها تمسك بذكرى وجهه الجميل وهو يلتصق بصدرها، يمتص منه رحيق الحياة، قبل أن يستغرق في النوم، تضعه على فراشه، يرتاح قليلا قبل أن يواصل المشي فوق كل شيء: حتى لو سقطت الصورة فإنه باق هنا، كيف سأنسى من أضع صورته في قلبي! منذ تلك اللحظة توقف بدر الدين عن محاولاته لدفعها إلى النسيان.

يحدثها قلبها أن ابنها حي، وأنه قريب منها، تشعر بدفء وجوده من حولها، حتى إنها استأجرت صبيا طرق الباب ذات يوم ليعرض بضاعته من الأواني المنزلية، أعطته والدة عبد الرحيم مالا، وطلبت منه أن يطوف على بيوت الحي والأحياء المجاورة كلها، التي تكون دائما أبوابها مغلقة، ليعرض بضاعته ويحاول التلصص ليرى ما يحدث داخل هذه البيوت،

كانت الأم قد سمعت أن معظم الغائبين يعتقلهم جهاز الأمن ويقوم باحتجازهم في بيوت سرية، يكون بعضها مؤسسات حكومية قديمة تقع داخل الأحياء السكنية.

طرق الصبي كل أبواب الحي، اشترى البعض من أدواته المنزلية، ولم يجد ردا حين طرق أبوابا كثيرة، بعض البيوت اضطر للهرب من أمامها حين سمع نباح كلاب متوحشة تتأهب للإنقضاض عليه، لم يستطع التأكد إن كان أحدا يقطن في هذه البيوت أم أنّ سكانها هجروها، كان يسمع أصواتا مبهمة تتسرب من داخل بعض البيوت المغلقة، أثناء عمله لسنوات كبائع متجول كان دائما ما يسمع تحذيرا من بعض الناس الذين يصادفونه يطرق أبواب بعض البيوت، يطلبون منه الابتعاد عن تلك البيوت التي يعتقدون أن الجن يسكن فيها، قال للحاجة نور: لم أجد شيئا، هناك بيوت مغلقة أبوابها مغطاة بخيوط العنكبوت، لكنني سمعت أصواتا ربما يسكن الجان في هذه البيوت كما سمعت! أو ربما هناك أبواب خلفية يستخدمها سكان هذه البيوت! بعض البيوت بها كلاب متوحشة، طرقت أبوابها وإضطررت للفرار!

طلبت من سمير أن يذهب مع الصبي ويسأل عن سكان تلك البيوت التي سمع الصبي أصواتا تصدر منها رغم أن أبوابها تبدو مغلقة منذ سنوات، وتلك البيوت التي يُربي أصحابها الكلاب، ولا يسمحون لأحد بالاقتراب منها، وطلبت من بدر

نشر إعلان آخر في إحدى الصحف اليومية، علّ أحدا يكون قد رآه، أو يعرف أية معلومة تفيد بمكان وجوده، أعطته صورة صغيرة كانت نسخة من الصورة المعلقة في جدار غرفتها وعلي جدار صالة البيت، لم يكن بدر الدين مقتنعا بالفكرة لكنه قام بتنفيذها لإرضاء أمه، قرّر أن يقوم هذه المرة بتجربة نشر النداء في إحدى الصحف الرياضية، التي تجد رواجا أكثر من صحف الحكومة.

بعد يومين من نشر الإعلان، دقّ جرس التليفون، عرّف المتحدث نفسه بأنه كان يعمل سائقا لعربة أجرة لعدة سنوات، وأنه تقاعد من العمل منذ ثلاث سنوات بسبب المرض، لكنه أوضح أنه رأى الإعلان في الصحيفة، وأنه ربما رأى الشخص المذكور في الإعلان قبل سنوات، اعتذر أنه لا يستطيع التحرك بسبب المرض، وطلب من بدر الدين أن يحضر لمقابلته، ثم وصف له كيف يصل إلى البيت، ارتدى بدر ملابسه بسرعة وغادر البيت دون أن يقول شيئا لأمه.

وجد الرجل المسن يعيش مع ابنته التي أصبحت تعتني به منذ وفاة أمها، حكى لبدر الدين أنه اضطر لترك بيته بسبب إصابته بمرض يعوق حركته، وبسبب سفر أبنائه خارج الوطن اضطر لترك البيت والعيش مع ابنته، كان أطفال ابنته وأعمارهم متقاربة يثيرون صخبا من حول جدهم، الذي كان يقضي القيلولة في فراندة البيت، المطلة على الفناء الواسع بشجرة

النيم التي تتوسط الفناء، وشجيرات ورد الحمير بمحاذاة سور البيت.

اذكره تماما، أنه يشبهك كثيرا لكنه أطول قليلا، كان الوقت مساء، لكنني لم أنس وجهه قط رغم أنني لم أره سوى لدقائق معدودة، لم أنس تعبير الدهشة والمفاجأة في وجهه حين استوقفه رجال الأمن!

تساءل بدر الدين بلهفة وخوف: هل استوقفه رجال الأمن؟ رغم معرفتهم بأن شقيقهم احتجزه جهاز الأمن، لكن كانت تلك هي المرة الأولى التي يؤكد فيها شاهد عيان حدوث ذلك.

قال الرجل: نعم، أشار لي شقيقك وحين توقفت سألني إن كان بإمكاني نقله إلى البيت، أعتقد أنه وصف لي البيت إن لم تخني الذاكرة في مكان ما قريبا من وسط الخرطوم، بمجرد أن فتح باب العربة ليركب بجانبي توقفت عربة بيضاء صغيرة، أنا أعرفهم جيدا من طريقة ظهورهم ومن نوع العربات التي يستقلونها، لم أسمع ما قالوه لشقيقك لكن مؤكد أنهم طلبوا منه مرافقتهم، كنت أعرف أن شقيقك لن يذهب معي، ومع ذلك انتظرت قليلا أملا في أن يكون هناك خطأ ما، لكن أحدهم طلب مني بسرعة أن اذهب وأنهم سيقومون بأنفسهم بنقل شقيقك إلى البيت، قال لي ذلك بلهجة من يعرف شقيقك، كأنه أراد أن يقول لي إنه صديقه، لكن لهجة الأمر كانت واضحة في وجهه وحديثه، قدت السيارة بعيدا منهم لكنني تباطأت قليلا حتى

رأيت سيارتهم تتجه شمالا، ربما ذهبوا إلى وسط الخرطوم أو إلى الخرطوم بحري، خطر لي في لحظة أن أتتبعهم، لكنني عرفت أنهم سيلاحظون ذلك بسرعة وسيعتقلونني بدون شك.

قال بدر الدين: ولم يقل لك أخي شيئا قبل أن يغادر معهم؟

قال العم الطريفي: لا، الحقيقة أنني منذ لحظة أن ناداه رجل الأمن لم أر وجهه مرة أخرى، حين كانوا يتحدثون معه قبل أن يستقل سيارتهم كان يعطيني ظهره، وكان الضوء خافتا نسبيا في الشارع فلم أعرف كيف تصرّف حين طلبوا منه أن يرافقهم، أنهم في العادة حسب ما علمت من كثيرين تم اعتقالهم في تلك الفترة، يطلبون منك مرافقتهم لوقت قصير لكن الوقت القصير يتحول إلى أشهر وأحيانا إلى سنوات.

قال بدر الدين: لقد نشرنا إعلانا في نفس تلك الأيام في إحدى الصحف اليومية، ألم تر ذلك الإعلان؟

تساءل الرجل: متى تم نشر الإعلان بالضبط؟

أوضح له بدر أن ذلك كان بعد حوالي الشهر من حادث الاختفاء.

كان الرجل يبذل جهدا ليتذكر، قال لقد سافرت إلى مصر في تلك الفترة، كنت مريضا أرسل لي ابني تذكرة سفر، قضيت في مصر ثلاثة أشهر، ربما نُشر الإعلان في تلك الفترة، لم أكن أتابع الصحف كثيرا، ولولا أن زوج ابنتي يقرأ الصحف

الرياضية ويحضرها إلى البيت بانتظام ما كنت لاحظت الإعلان الأخير.

كانت ذاكرة الرجل حديدية، قال كان شـــقيقك يرتدي قميصـــا ازرقا ونظارة طبية، كانت هناك حناء في يديه، أعتقد أنه كان على وشك الزواج إن لم تخني الذاكرة!

أوضح بدر الدين: كانت تلك الليلة بالتحديد هي ليلة زفافه!

بدت الصـــدمة على وجه الرجل: يا للكارثة! كيف يحدث ذلك؟ هؤلاء النـاس لا خلق لهم ولا دين! كيف يعتقلون رجلا ليلـة زفافه؟ ويختفي لأكثر من عشرة أعوام!

تساءل الرجل: هل حاولتم الاتصال بجهاز الأمن لسؤالهم عنه؟

قال بدر الدين: رغم أنه لم يكن لدينا معلومات عن ما حدث تلك الليلـة، فكرنـا في البـدايـة في وقوع حـادث حركـة، لم نترك مستشفى في العاصمة أو قسم شرطة، لكن لم نعثر على أية اثر ولأن شقيقي لم يكن معروفا بأية نشاط ضد النظام لم نتوقع في البداية أن يحتجزه جهاز الأمن، ســافرت إلى بورتســودان لأنّ شـخصـا مجهولا اتصـل بنا، وذكر أنه التقى شـقيقي في ميناء بورتســودان وهو يقوم بتخليص ســيارة من جمارك الميناء، أعطانا ذلك بعض الأمل، أقنعني شقيقي سمير بالسفر، قال إنه سمع عبد الرحيم يقول انه قام بشحن سيارة ستصل الى ميناء بورســودان خلال أيام، قال المتصـــل المجهول إن أخي ربما

اضـــطر للســـفر فجأة لأنه اكتشـــف أنّه يجب أن يقوم بإكمال إجراءات إخراج السـيارة من الميناء بسـرعة، وإلا سـيضـطر لـدفع غرامـة كبيرة، لم يكن ذلـك الكلام مقنعـا لي، لكن كمـا يقولون الغريق يتعلق بقشـــة، تعلقنا بقشـــة احتمال ســـفره المفاجئ رغم أن الفكرة لم تكن منطقية، فحتى إن كان سيضطر لدفع غرامة فهو لن يسافر في ليلة زفافه ودون أن يخطر أحدا، أحد أقربائنا كان يعمل مع جهاز الأمن في الفترة الديمقراطية، هو الذي نبّهنا إلى أنّ المتصـــل ربما يكون تابعا لجهاز الأمن، وهم يريدون فقط تشـتيت مجهودنا، وإيهامنا أن شـقيقنا اختفى لأســـباب تخصـــه، وربما لا يكون راغبا في إتمام زواجه، كما فهمت خطيبتـه وأســـرتها الأمر كذلك، ولابد ان رجال الأمن اتصـلوا بهم أيضـا وأوقعوهم في خطا اعتقاد أنّ شـقيقي هرب ليلة زفافه!

كان قريبنا ذلك هو الذي أشـــار لنا الى ان شـــقيقي محتجز في جهاز الأمن، وقد بذل جهدا مضـنيا عبر زملائه القدامى والذين لا زال بعضـــهم في الخدمة، لكنه فشـــل في الحصـــول على اية معلومـة، عرف أنّ معظم الاعتقـالات تتم من قبـل أجهزة أمن أخرى تابعة لتنظيم الاخوان المسـلمين، وأنّ معظم من تعتقلهم هذه الأجهزة يودعون في معتقلات ســـرية، يصـــعب على اية جهة أخرى، حتى الشرطة أن تصل اليها.

أوضـح بدر الدين للعم الطريفي: قضـيت في بورتسـودان عدة أيـام ابحث عن أخي دون جدوى، ولم أعثر حتى على مـا يفيد أن هناك سيارة باسـمه وصلت إلى الميناء. بعد عودتي اتصل شـخص آخر وقال إنه شـاهد أخي فاقدا للوعي من أثر شـراب الخمور! في منطقة خارج العاصمة، قال إن رجلا يشبه صورة أخي المنشـورة في الصـحيفة، اسـتوقفه ومعه ثلاثة أشـخاص كانوا جميعا سـكارى، وقد حسـبهم في البداية فرقة موسـيقية شـعبية فقد كانوا يحملون معهم طبلة وكان أحدهم يعزف على آلة الطنبور، ويغني مقاطع من إحدى أغنيات التراث، قال إنهم طلبوا منه أن ينقلهم بسـيارته إلى منطقة أخرى بعيدة، لكنه اعتذر لهم لأنه يجب أن يعود إلى البيت بسبب مرض أحد أبنائه وأنه يحمل دواء لولده عثر عليه بصـعوبة، وحسـب إرشـادات الطبيب يجب أن يتناول الصـبي المصـاب بالأزمة، الدواء بسـرعة أو قد تصـبح حياته في خطر، لكنهم حاولوا إرغامه على نقلهم بالقوة، ولم يسـتطع التخلص منهم إلا بعد ظهور بعض المارة فلاذ الرجال الأربعة بالفرار!

ذهبت إلى المنطقة وقضـيت يوما كاملا ابحث فيه دون أن أجد أية اثر بل إن رجلا مسنا أكد لي أنه يعيش في هذه المنطقة منذ حوالي نصف قرن، ويعرف كل شـيء يحدث فيها ويعرف حتى عابري الطريق الذين يشـقون المنطقة في طريقهم إلى أقصـى الشـمال، ويعرف حتى السـكارى الذين يرتادون بعض البيوت في أطراف المنطقة تباع فيها الخمور المحلية، لكن لم يحدث

قط أن ظهر شخص ومعه ثلاثة أشخاص آخرين بالوصف الذي ذكرته! حين ذلك تأكدنا أنّ جهة ما كانت تريد فقط تضـليلنا عن حقيقة أنّ أخي محتجز لدى إحدى منظمات السُلطة.

00

شـــعر بأنه يمســـك ببعض خيوط السُـــلطة، الشـــركاء الجدد حريصـــون على بقائه في الواجهة، لضـــمان ولاء الجيش إن حاول الجناح المُبعد من السـلطة اسـتخدام ميليشـيات الحزب، لكنــه يلاحظ بمرور الأيــام أن لا فرق كبير بين الأجنحــة المتصـــارعة داخل الحزب الإســـلامي، تســـتمر عمليات بيع المؤســـســـات الحكومية، ويســـتمر ظهور الأجانب، رغم أنّ المؤتمرات ذات الصـــبغة الدينية بضـــيوفها من الجهاديين، تراجعت أمام جهاد تجاري، في نهاية الأســـبوع خاطب مؤتمرا للاســـتثمار، دعت لـه الحكومـة بعض رجـال الإســـتثمار من الأجانب، تساءل مندهشا وهو يشير بأصبع يده إلى رجل ملتح يجلس في الصـــف الأول بين عدد من المســـتثمرين الأجانب: أليس هذا هو الرجل الذي قتل السادات؟

أُتهم بالمشـاركة سـيدي الرئيس، قضـى سـنوات في السـجن ثم أطلق ســراحه، ربما بســبب صــغر ســنه آنذاك لم يثبت عليه شيء!

سيدي الرئيس، اندلعت الحرب في إقليم دارفور!

النزاعات القبلية موجودة هناك منذ القدم، لكن الدولة كانت تتدخل للتوسط بين المتنازعين!

هذا تمرد كبير يدعمه جناح الحركة الإسلامية الآخر! الدولة لن تتدخل، الدولة ستستعين ببعض القبائل لضرب القبائل المتمردة!

الوحيد الذي اعترض على التصعيد كان رئيس هيئة أركان القوات المسلحة: هناك سلاح كثير دخل إلى دارفور في فترة الحرب الليبية التشادية، بدلا من جمع ذلك السلاح نقوم الآن بتسليح قبائل ضد أخرى، ذلك أمر خطير للغاية، الدولة كانت دائما على مسافة واحدة في النزاعات التي تحدث بسبب المراعي والتي ازدادت حدتها في عقد الثمانينيات بسبب موجة الجفاف التي ضربت الإقليم. تسليح قبائل ضد أخرى يعني أن تنحاز الدولة إلى أحد أطراف الصراع، ما قد يعني اتساع دائرة الغبن واستمرار الصراع لعدة سنوات وقد يجر إليه أطرافا دولية بسبب حساسية المنطقة التي تجاور مناطق نفوذ لبعض الدول الكبرى في أفريقيا.

قال النائب الأول، رئيس الحزب وأمين الحركة: هناك جهات تريد فتح جبهات صراع جديدة، ما يعني مزيدا من الضغط على النظام، وللأسف تشير كثير من المعطيات إلى أن بعض إخواننا الإسلاميين متورطين في إشعال الصراع بعد انشقاق حزبنا!

قال وزير الدفاع: يجب وأد الفتنة في مهدها وإلا فإن النار ستتسع، ووجود جبهة صراع جديدة ستجعل حسم أي من الجبهتين أشبه بالمستحيل.

قال وزير الخارجية: بدأت تظهر على الإنترنت صور الأقمار الصناعية التي تظهر فيها القرى المحترقة، وهناك حديث في بعض نشرات الاخبار عن قوّات الجنجويد التي تقوم كما يقولون بتدمير القرى وتهجير الأهالي، وهناك حديث عن اختطاف أطفال واغتصاب نساء، أخشى إن طال أمد الحرب أن تستغل المعارضة وبعض الدوائر التي تدعمها القضية.

تحدث رئيس هيئة الأركان وكان واضحا أنه عسكري ينتمي للجيش ولا علاقة له بالحركة الإسلامية، موجها كلامه لوزير الخارجية: هل كل ما يعنيك هو استغلال المعارضة أو الدوائر الأجنبية للحرب؟ ألا يجب أن تتحدث عن لجان تحقيق حكومية للتحقيق في تلك الانتهاكات؟ وماذا عن المواطنين الذين تعرضوا لتلك الانتهاكات؟ واضطروا للنزوح من قراهم ومزارعهم؟ ألا يجب أن تتحدث عن خطط أو مساع لتحقيق السلام وإبعاد الميليشيات القبلية عن الصراع؟

قال وزير الخارجية: لست سعيدا بالحرب أن كنت تظن ذلك، رغم أنني أشم رائحة المؤامرة الخارجية فيما يحدث في دارفور، لكن عموما الحديث عن لجان تحقيق لتحديد وقوع انتهاكات من عدمها لا يدخل في دائرة اختصاصي!

كان واضحا أنّ هناك صوت واحد في الاجتماع ضد التصعيد، حتى السيد الرئيس حسم أمره وأبدى تأييده لضرورة ضرب التمرد وحسم الحرب بسرعة.

بعد الاجتماع يعود إلى مخدعه الرئاسي، يجد زوجته أخلدت مبكرا إلى النوم، يبتلع قرصين من دواء الباراسيتامول لعلاج الصداع الذي يشعر به يطرق دماغه بعنف، لم يلاحظ في البداية وجود ورقة صغيرة في العلبة التي يحتفظ فيها بأدويته، حين أعاد علبة دواء باراسيتامول لاحظ الورقة، رسالة من سطر واحد: لا تتركهم يقيلون رئيس هيئة الأركان! يريدون تدمير الجيش وإقالته ستعني أن مُخطط التدمير يسير قدما!

لم يهتم بفحوى الرسالة، بقدر اهتمامه بكيفية معرفة خلية الجنرال عوف لتفاصيل اجتماع مجلس الوزراء، ربما لديهم علاقة برئيس هيئة الأركان ويعرفون بخطه المعادي للحرب، ربما يكون رئيس هيئة الأركان نفسه عضوا في الخلية أو أنه كتب هذه الرسالة بنفسه!

فتح الراديو بجانب رأسه، وسحب الغطاء الخفيف فوق جسمه، كان أول خبر في نشرة الساعة الثالثة بعد الظهر: قرار جمهوري صادر باسمه شخصيا، رغم عدم علمه به، يقضي بإقالة السيد رئيس هيئة أركان القوّات المسلحة!

في اليوم التالي سأل سكرتيره عمن أصدر القرار الجمهوري بإقالة رئيس هيئة الأركان، قال السكرتير: صُدر القرار منكم يا صاحب الفخامة!

لكن فخامتي (قالها بسخرية) لم يصدر شيئا بالأمس، ألم نقض اليوم كله في اجتماع وزراء القطاع الأمني وقادة الأجهزة الأمنية والقوات المسلحة؟

قال السكرتير: قدّمت لك بنفسي عددا من القرارات لتضع توقيعك عليها، يبدو أنك كنت مشغولا جدا يا سيدي فلا تذكر تلك التفاصيل الصغيرة!

وهل إقالة قائد الجيش يدخل ضمن تلك التفاصيل الصغيرة؟

أقصد أن النقاش كان حادا في اجتماع الأمس، والتقارير المهمة من مناطق العمليات، كانت هي الطاغية على كل موضوع آخر!

ومن الذي أصدر توصية إقالة رئيس هيئة الأركان؟

السيد النائب الأول!

وأين السيد النائب الأول الان

حسب علمي أنه سافر لتفقد مناطق العمليات.

00

يشـعر أنه يخسـر مكاسـب انشـقاق الحركة الإسـلامية بنفس السـرعة، لم يكن آسـفا في واقعة إعفاء رئيس هيئة الأركان سوى على إصدار القرار الجمهوري من وراء ظهره.

كـان يؤمن أنّ التمرد يجب أن يواجـه بكل الحزم والقوة، لكن إقالـة الرجل دون حتى إبلاغه بذلك، كـان يمثل بداية سـيئة للثورة التصـحيحية كما أسـمت بعض الصـحف حركة إقصـاء الحرس القديم في الحركة الإسلامية.

أصـبح يترقب علبة الدواء بسـبب الغضـب والشـعور بالمهانة، وجد هذه المرة رسـالة طويلة، دهش حتى إنه خشـي في البداية أن يكون أمر المراسـلات السـرية قد انكشـف، لكنه لاحظ أنّ الرسـالة بنفس الخط الذي كُتبت به الرسـائل السـابقة. كانت الرسـالة أشـبه بتقرير يكتبه شـاهد عيان، تحدّث بالتفصـيل عن الانتهاكات الجسـيمة التي تحدث في دارفور بدعوى محاربة

التمرد، وأنّ المدنيين الأبرياء هم من يدفعون الثمن، ذكرت الرسالة بعض أسماء قادة الميلشيات الذين يعملون بالتنسيق مع قوات الجيش والدفاع الشعبي، تقوم طائرات الأنتينوف بإلقاء البراميل المتفجرة فوق القرى فيهرب الأهالي خارج القرية حيث تكون المليشيات في انتظارهم، تقوم الميلشيات بإلقاء الجثث في آبار الماء، حتى تجبر من تمكنوا من الفرار من المجزرة، على عدم العودة لقراهم.

ثم تطرقت الرسالة لواقعة إعدام حاكم الإقليم المضطرب لبعض قادة التمرد، وأنه لم يشفع لبعض هؤلاء القادة أنهم كانوا جزءا من الحركة الإسلامية، بل إن أحدهم كان رئيس الخلية التي كان حاكم الإقليم عضوا فيها، كانت قوات الجنجويد قد نجحت في إلقاء القبض على بعض قادة إحدى حركات التمرد إثر هجومها المفاجئ وإحراقها لإحدى القرى، يبدو أنه كان هناك اجتماع لبعض القادة الذين لم يتوقعوا هجوما على تلك القرية.

كانت قوات الجنجويد تريد إعدامهم على الفور، حسب الأوامر الحكومية الصارمة بعدم الاحتفاظ بأية أسرى، لكن أحد قادتهم طلب منهم إرجاء تنفيذ الإعدام إلى اليوم التالي، قال لهم سيزور حاكم الإقليم المنطقة غدا وربما ترغب الحكومة في الإبقاء على هؤلاء الأسرى، فهم ليسوا محاربين عاديين بل قادة لحركة التمرد.

تفقد حاكم الإقليم والوفد المرافق له الأســـرى في اليوم التالي، يقال أنّ الحاكم قال لأحد القادة وكان قائدا للحاكم أيام كان التنظيم في ذروة نشـــاطه: هذه نهاية الخيانة، يقال أنّ الأســـير شتمه شتائم بذيئة كونه يعرف كل أسراره القديمة، وقال له: لو كنا نعرف أنّ الحركة الإسلامية سوف يرثها ساقط أخلاقيا مثلك، لما أسسنا هذه الحركة! لم يكتف بذلك بل بصق في وجه الحاكم حتى تدخل الحرّاس وأبعدوا الأســـير، واعتدوا عليه بالضرب!

لم يرد عليه حاكم الإقليم، لكنه أعطى التعليمات في الخارج لقوات الجنجويد، لإعداد مأدبة الإعدام على الفور، ربطوا الأسرى وكانوا ستة من القادة مع بعضهم في دائرة ثم وضعوا فوقهم وحواليهم كميات كبيرة من الحطب والحشـــائش الجافة، وصـــبوا فوقه كميات من البنزين، أشـــعل قائد الجنجويد عود ثقاب وأعطاه للحاكم الذي ألقاه فوق كومة الحطب!

التهمت النار الرهيبة الضـــحايا في ثوان قليلة، ولم يبق بعد لحظات ســـوى الرماد ورائحة الشـــواء الآدمي! كأننا في عهد محاكم التفتيش سيدي الرئيس!

ذكرت الرسالة تفاصيل أخرى عن حجم المجازر الرهيبة التي ترتكبها ميليشـــيات المؤتمر الوطني، وقوات الجنجويد بحق المدنيين، وإن هناك قرى بأكملها قد أحرقت ونزح آلاف المدنيين إلى خارج الحدود.

انتهت الرسالة إلى القول، يجب أن يكون هناك تحرك لسعادتكم، يجب أن تعيد رئيس هيئة الأركان الذي أحالوه للتقاعد، هو الوحيد الذي يستطيع استعادة دور الجيش ليقوم بحماية المدنيين، وإلا فإن المسئولية في النهاية ستقع على عاتق فخامتكم.

أصبحت نافذة خلية الجنرال عوف بالنسبة له مجرد قناة تصله عبرها أخبار تكون في العادة مغايرة للأخبار التي يبثها التلفزيون الرسمي، كان يعرف أن الخلية قد انتهت ولم يتبق منها ربما سوى هذا الشخص الذي يقوم بكتابة هذه التقارير، أكد له ذلك ملاحظته أنهم لا يلتزمون بإجراءات الأمن التي كانوا يقومون بها في السابق، حين يطلبون منه حرق الرسائل أو وضع إشارة تفيد بتلقيه للرسالة. عرف أنه لا معنى للحرص القديم من أجل حمايته وحمايتهم لأن الخلية التي أسسها الجنرال الراحل باتت في حكم العدم.

00

قال عاصـــم الحاج رئيس تحرير صـــحيفة الزمان المســـتقلة للصحفية الشابة التي انضمت مؤخرا لهيئة تحرير الصحيفة: هذا مقال صعب، ستكون عواقب نشره وخيمة! كان يحاول أن يجد لصـــحيفته موقعا في ســـوق التوزيع، وســـوق الإعلانات الحكومية، يعرف بحكم خبرته مع التنظيم الذي كان عضـــوا فيه، أنه ما لم يرفع صـوته قليلا بين الحين والآخر فلن يتذكره أحد في حمى البيع التي تجتاح الوطن، ما لم ينشـــر كل عدة أشـــهر مقالا ناريا، تهتز له دوائر السـلطة الغارقة في فوضـــى اقتســـام غنائم الوطن، فســـوف يغرق في النســـيان وتغرق صحيفته في الديون.

قبل سنوات كان شاهدا على اقتسام غنيمة الوطن، كان عضوا في لجنة تابعة للهيئة العامة للاســـتثمار، مهمتها الرســـمية تشـــجيع الاســـتثمار وإعادة صـــياغة قوانين تشـــجع وتجذب المســـتثمرين، لكن عملهـا الفعلي كـان توزيع الغنـائم على منسوبي الحزب: هذه المؤسسة لك، بها ماكينات جديدة سنقيّم

سعرها باعتبارها حديد خردة! هذا المشروع لك، ستدفع فقط قيمة التراكتورات والعربات وخط السكة الحديد الذي ينقل القطن باعتبارها كلها حديد خردة! إن سألوك يوما كيف حصلت عليه، هذه هي مستندات البيع عبر مزاد حكومي مستوف لكل الشروط، حقا أنك الوحيد الذي حضر المزاد، لكن لا مشكلة لقد أعلنا عنه في الصحف اليومية ولم يحضر أحد! فهل سنذهب لإحضار المستثمرين بالقوة من بيوتهم لشراء المشاريع الحكومية الخاسرة؟!

وضع رئيس التحرير نظارته جانبا بعد أن فرغ من قراءة المقال وقال للصحفية هاجر الساري الواقفة أمامه بثوبها الأبيض تحدّق فيه بعينيها الجميلتين، في انتظار قراره حول مقالها: سأنشره على مسئوليتي، لكن يجب أن نستعد للسجن، لو كنت مكانك سأحضر حقيبة ملابسي معي غدا، تعليمات الأمن: دارفور والجنجويد وفساد حزب النظام خطوط حمراء، أنت تجاوزت في مقالك الثلاثة خطوط حمراء!، جرائم الجنجويد في دارفور، وفساد رموز النظام، إذا استطعنا تمرير المقال سنكتسب صدقية لدى القراء لكننا سنخسر الإعلانات الحكومية، قال بعد تفكير: اكتساب الصدقية لدى القراء لن يفيدنا في شيء إذا تعرضت الصحيفة للإفلاس! اعتقدت هاجر أنه بصدد تغيير موقفه ولن يوافق على نشر المقال، لكنه كرّر كلامه: سأنشره على مسئوليتي! وليرحمنا الله!

الغريب أنّ الرقيب التابع لجهاز الأمن الذي يراجع الصـــحيفة قبل الطبع لم يعترض على المقال، رغم ذلك لم يشـــعر رئيس التحرير بالاطمئنان، متوقعا حدوث شـــيء ما في أية لحظة، حتى إن لم يلاحظ الرقيب المقال، وصـدرت الصـحيفة فإنّ ذلك لن يعني أنّ المشـــكلة قد انتهت. لكنه طمأن نفســـه أنّ النظام يمرر أحيـانـا جرعـة نقـد تتجـاوز بعض خطوطـه الحمراء، لمحاولة تحسين صورته أمام منظمات حقوق الإنسان، كما أنه لن يكون سـيئا أن يثير المقال بعض الضـجة، ويرفع قليلا من توزيع الصحيفة.

أجرى عاصم الحاج اتصالا تليفونيا بالمطبعة فعرف أنهم بدءوا في طباعة الصحيفة، فقرّر أن يغادر إلى البيت ويتابع من هناك مع المطبعة إن حدثت أية مســـتجدات، لكنه كان مرهقا جدا فاستسلم للنوم فور وصوله إلى البيت.

استيقظ على رنين الهاتف فجرا، كانت الساعة حوالي الخامسة صـباحا، بدا له صـوت المتحدث غريبا، قبل أن يعرف أنه عبد العظيم المحرر المناوب تلك الليلة في الصـــحيفة. قال عبد العظيم لقد دمروا كل شـيء! نحن في الطريق إلى المستشفى، اتصلت بأحد أصدقائي فحضر ونحن معه الآن في سيارته، كنت أنا الأكثر حظا أصـــبت بجرح في ذراعي لكن زميلي عبد الله تعرّض لإصابات كثيرة، الساعة الرابعة وصلت الصحيفة من المطبعة، لكن قبل خروجها للتوزيع، قام أشـــخاص مُلَثَّمُونَ

بالهجوم على الصحيفة، ضربوا جميع من وقف في طريقهم، لحسن الحظ كان الوقت مبكرا لم يحضر معظم المحررين وحتى العدد القليل من المحررين الذين قضوا الليل في الصحيفة لإنجاز المراجعات النهائية قبل الطبع، كانوا قد غادروا الصحيفة قبل دقائق من الهجوم للحصول على بعض الراحة في بيوتهم قبل العودة لاستئناف العمل.

يبدو أنه كانت هناك جهة ما تراقب المبنى، ما أن وصلت السيارة القادمة من المطبعة وهي تحمل الصحيفة، حتى تم الهجوم، قاموا بتحطيم بعض الأثاث في استقبال الصحيفة، وأتلفوا السجّاد بأحذيتهم الملوثة بالوحل، استولوا على الصحيفة بالكامل، قبل أن يغادروا المكان.

حين وصل عاصم الحاج كان المبنى غارقا في الفوضى، اتصل بعدد من الجهات الحكومية ومجلس الصحافة الحكومي لمعرفة الجهة المسئولة عن الهجوم، أنكرت كل الجهات التي اتصل بها معرفتها به، بل أنّ وزارة الإعلام نشرت بيانا أدانت فيه الحادث ودعت الجهات الأمنية إلى سرعة التحقيق وتحديد الجناة، وأكد البيان على أنّ احترام حرية التعبير هي سياسة رسمية لن تحيد الدولة عنها.

لم يلاحظ عاصم الحاج أنه تجاوز حدوده كثيرا وهو يتحدث إلى رئيس جهاز الأمن، وأنه سيدفع غاليا ثمن ما قاله بعفوية: لقد أمسكنا عن النشر الكثير من الوثائق التي تكشف أشياء كثيرة

ستسيئ كثيرا إلى صورة الحكومة إذا عرفها الناس! حاول أن يتراجع بعد فوات الأوان، أوضح أنه لا يقصد التهديد بل يذّكر فقط بولائه للنظام وللحركة الإسلامية، قال مدير جهاز الأمن مختتما الاتصال: سوف أبلغك قريبا بنتائج التحقيق حول الجهة التي قامت بالهجوم.

لم تتعرض هاجر السناري لأية مضايقات طوال عدة أيام بعد نشر المقال، استأنفت حياتها العادية، شاركت بعد أيام في ورشة عن مستقبل الصحافة الورقية في ظل تنامي دور الصحافة الإلكترونية، بعد نهاية برنامج اليوم الثالث والأخير، قرّرت أن تزور إحدى صديقاتها قبل أن تعود إلى البيت، خاصة أن العثور على مقعد في حافلة في الثالثة بعد الظهر كان من المستحيلات، كانت صديقتها تعمل في شركة قريبا من شارع النيل، فجأة وهي تسير على قدميها توقفت بجانبها عربة مليئة برجال شرطة النظام العام، طلب منها أحد رجال الشرطة أن تتوقف، أشار إلى بنطال الجينز الذي ترتديه وقال لها: ألا تعرفين أن ذلك ممنوع حسب القانون!

حاولت الاعتراض لكن العسكري صفعها على وجهها وأمرها بالصعود إلى العربة، حاولت أن تقاوم لكنهم دفعوها بالقوة إلى داخل السيارة التي انطلقت بها. قضت ليلة كاملة في سجن النساء وفي اليوم التالي حكم عليها قاضي محكمة النظام العام بالجلد بسبب ملابسها غير المحتشمة، كما جاء في قرار

المحكمة، كما حكم عليها القاضـي بغرامة مالية وفي حالة عدم الدفع تقضـي شـهرا في السـجن، رفضـت هاجر دفع الغرامة فقامت الشرطة بترحيلها إلى السجن.

00

لم يشـــعر النقيب عبدالله بالعيون الحذرة التي كانت تراقبه من على البعد وهو يتسلم حقيبة المستندات من زوجته ويسرع بها الى بيت اقربائه، لحسـن الحظ وجد ابن عمه سـعيد عبدالهادي يتـأهـب للخروج، أعطـاه الحقيبـة وأوضـــح لـه أنهـا تحوي مســتندات مهمة يريد حفظها بعيدا عن العيون، أعطاه ســـعيد حقيبة اخرى ليضع فيها المستندات حتى يحمل الحقيبة الاخرى معه لتضليل أية شخص قد يكون تبعه.

ســعيد كان ذاهبا الى مكان عمله، شــعر أن المســتندات التي تركها ابن عمه على درجة عالية من الأهمية، وأن البيت لن يكون المكان المناسب لحفظها، قرّر أن يأخذها معه الى ورشة إصلاح السيارات التي يعمل فيها، لن يفكر أحد في البحث عنها هناك، وللتمويه قرّر أن يحتفظ بصـــورة من المســـتندات في البيت، توقف أمام محل صـغير لتصـوير المسـتندات قريب من مكان عمله، وقام بعمل صــور من كل المســتندات، فكّر أنّ من الافضـل أن يحتفظ بالصـور في مكان عمله ويعيد الاصـلية الى البيت حتى اذا عثر عليها شــخص ما، لن يفكر ان صــورة من

هذه المســـتندات موجودة في مكان آخر، في طريق عودته الى البيت قرّر النقيب عبدالله أن ما اكتشـــفه من حقائق أثناء عمله مع لجنة التحقيق يكفي ليس فقط ليستقيل من عضوية الحركة الإسلامية، بل ليعتزل أية عمل سياسي مقررا ان يحاول الهجرة الى خارج الوطن ليبعد نفســـه عن تأثير الرفاق القدماء الذين خمّن أنهم لن يتركوه في حاله.

كانت المشكلة الآن هي نتائج لجنة التحقيق والمستندات التي جمعها أثناء التحقيق، توقّع أنهم ســيحاولون الحصــول عليها بعد أن تســـتقر أحوالهم بســـبب التغييرات الجديدة والحرب الأهلية التي اندلعت في منطقة دارفور، حين عاد النقيب عبدالله الى البيت كانت زوجته قد خرجت لتعيد طفلهما الصـــغير من الحضـانة، دُهش حين وجد باب البيت مفتوحا، لا بد أن زوجته كانت متعجلة جدا فلم تنتبه لإغلاق باب البيت، ما أن وطأت قدمه عتبة الباب حتى تســـللت الى أنفه رائحة مألوفة: رائحة رفاقه القدامى !

عادت صفية زوجة النقيب عبدالله الى البيت مع طفلها الصغير، كان هشـــام لا يزال في الرابعة من عمره، يشـــبه والده بعيونه القلقة الغارقة في حواجب بارزة قليلا، عاد خلف والدته يحمل حقيبته الصغيرة، وجدت صفية باب البيت مفتوحا، اعتقدت ان عبدالله في الداخل وربما نســـي إغلاق الباب، قطعت الفناء الصـــغير داخل البيت بخطوات ســـريعة لتفاجأ بمنظر البيت في

الداخل مقلوبا رأسا على عقب، قماش الكراسي ممزق والملابس والاشياء التي كانت مرتبة في خزانة الخشب في غرفة النوم مكومة ارضا، حتى المطبخ كان مدمرا، والسجّاد في الغرف وفي الصالة مسحوب من مكانه وممزق، لم تجد لعبدالله اثرا، اتصلت بسرعة بشقيقها ساتي، كان واضحا أنّ من هاجموا البيت يبحثون عن شيء ما، لم يكن واضحا ان كانوا قد عثروا عليه أم لا، حتى الثلاجة قاموا بإفراغها أرضا، حتى المراتب والمخدات قاموا بتمزيقها بوحشية، الصور المعلقة في الجدران قاموا بتحطيمها.

حاول ساتي أن يتصل بالنقيب عبدالله، لكن تليفونه النقّال كان مغلقا، فكّر في البداية أن يتصل ببعض اصدقائه ليحضروا لترتيب البيت وتنظيفه، لكنه تذكر أنّ كل شيء يجب أن يبق في مكانه حتى تفحص الشرطة المكان. قالت شقيقته صفية: نستدعي الشرطة! لكنّ الحكومة هي التي فعلت ذلك! دُهش ساتي قليلا حين سمع كلام أخته: الحكومة فعلت ذلك؟ ألا يعمل عبدالله في الحكومة؟ لماذا يفتشون بيته هكذا؟ شرحت له صفية الموقف: كنت أظن انك تعلم أنّ عبدالله يرفض العمل معهم منذ فترة، وقبل أسابيع استدعاه أمين الحزب وطلب منه عمل تحقيق، كان مشغولا به طوال الفترة الماضية، لم يقل شيئا عن ذلك التحقيق، لكن ربما كان ذلك هو السبب، كان يحمل صباح اليوم حين خرج كمية من الأوراق الهامة كما أخبرني وكان يريد إخفائها بعيدا عن البيت! فكّر ساتي قليلا،

كان قد سـمع أنّ هناك صـراعات بين الأجهزة الأمنية وأجنحة حزب الاخوان المسـلمين، حزب الحكومة، قال: الشـرطة غالبا بعيدة عن الصـراعات السـياسـية، في كل الاحوال ربما سُـرق شـيء ما، عليك بمراجعة أشـيائك الغالية، وسـأذهب أنا لعمل بلاغ لدى الشرطة .

دخلت صـفية الى المطبخ محاولة ترتيب بعض الاشـياء لتتمكن من اعداد الاكل لولديها، طلبت من عثمان أن يسـاعد هشـام في تغيير ملابسـه وأن يلعبا في الفناء تحت شـجرة النيم حتى تعد لهما الاكل، حتى تلك اللحظة لم تشـعر صـفية بالقلق على عبدالله، لم تكن تعرف أنه كان موجودا في البيت لحظة الهجوم، كان من عادته أن يرجع الى البيت متأخرا، دون أن يفصـح في الغالب عن الأسباب التي تجعله يتأخر خارج البيت.

عاد ساتي بعد أن قام بتسجيل بلاغ لدى الشرطة حول الواقعة، عثرت صـفية على النقود التي يحتفظ بها زوجها في دولاب الملابس، لكنها لم تعثر على صندوق صغير تحتفظ فيه ببعض مصـاغها الذهبية التي أهداها لها زوجها قبل الزواج، خمّنت أنه ربما يكون مدفونا تحت ركام الأثاث لكن ساتي اقترح عليها ضـرورة إبلاغ الشـرطة بذلك، رغم أنه دهش لأن من اقتحم البيت ترك النقود أرضـا، قال مفكرا: كانوا يبحثون عن شـيء آخر! ربما سرقة المصـاغ لمجرد الإيهام أنهم جاءوا للسـرقة! لا بد أنهم يريدون الأوراق التي أخذها عبد الله صباحا!

استطاعت صفية أن تعد من ركام المطبخ وجبة خفيفة، أكلت مع شقيقها وولديها. حين بدأ المساء يرخي سدوله شعرت للمرة الأولى ببعض القلق على عبد الله، كان تليفونه لا يزال مغلقا، حاول ساتي أن يطمئنها، بالقول إنهم لو عثروا عليه لما احتاجوا للحضور إلى هنا وتدمير البيت بحثا عن تلك المستندات.

كان حديثه يبدو منطقيا، أصرّ شقيقها أن يبق معهم لحين ظهور عبد الله، بسبب حرارة الجو وانقطاع الكهرباء مساء، قام ساتي بنقل أسرة النوم إلى الفناء، استيقظ ساتي على صوت أذان الفجر، وجد شقيقته مستيقظة، اعتقد في البداية أنها استيقظت مثله على صوت الاذان لكنه اكتشف أنها لم تنم مطلقا، قالت له: لم يظهر عبد الله حتى الآن!

قال ساتي: لكنه فعل ذلك كثيرا، هل نسيت أنه كان يتصل بي أحيانا لأحضر لقضاء الليل معكم حتى يعود؟

قالت صفية: كان يتصل ليقول إنه سيتأخر، لكن ليس من عادته أن يتأخر دون أن يبلغنا، كما أنّ تليفونه مغلق حتى هذه اللحظة!

حاول ساتي أن يطمئنها، لا أظن أن هناك مشكلة، على كل حال سأقوم بمرافقة الأولاد إلى المدرسة، وأسجل بلاغا ثانيا لدى الشرطة إن لم يظهر حتى ذلك الوقت، لكن حسب علمي يكون غياب يوم واحد عاديا، ولا يمكن عمل بلاغ إلا بعد غياب ثلاثة

أيـام، من الأفضـــل أن نتريث قليلا، ألا يمكنك البحث عن أيـة أرقام تليفونـات لبعض زملائه؟

00

خرجت هاجر السناري من السجن بعد أن قضت عقوبة الشهر التي حكم بها عليها، بخلاف والدتها لم يزرها أحد طوال فترة سجنها سوى عاصم الحاج الذي زارها مرة واحدة في الأسبوع الأول، ورغم أنه وعدها أن يكرر الزيارة كل أسبوع لكنها لم تره مرة أخرى، خارج السجن لم يكن هناك أحد في انتظارها سوى والدتها، توقعت أن تجد خطيبها أو بعض زملائها في العمل، لكن لم يكن هناك أحد.

في اليوم التالي قرّرت أن تذهب إلى الصحيفة، شعرت أن الأمور لا تسير بصورة جيدة، توقعت أن يكون مالك الصحيفة قد تعرّض لضغوط للاستغناء عنها، لكنها قرّرت الذهاب على الأقل لتحاول معرفة ما حدث أثناء فترة غيابها.

طلب منها موظف الاستقبال أن تلتقي مدير شئون المستخدمين حسب تعليمات إدارة الصحيفة، كانت تلك إشارة سيئة، سألت إن كان بإمكانها مقابلة رئيس التحرير، فأبلغها موظف الاستقبال أنّ السيد عاصم الحاج في مهمة خارجية.

أبلغها مدير شـــئون المســـتخدمين، أنـها فقدت وظيفتها في الصحيفة بسبب الظروف المالية التي تمر بها الصحيفة، وأنـها ليست الوحيدة التي تم الاستغناء عنها، تحدّث الرجل الذي كان واضـــحـا أنـه لا يـدين بـالولاء لحزب الحكومـة، عن احتكـار الحكومة لسـوق الإعلانات وقصـره على الصـحف الموالية لـها أو التي تخدم خطها، وأنّ اســتمرار هذا الوضــع ســيؤدي إلى توقف كل الصحف المستقلة.

طلـب منهـا وضـــع توقيعهـا على بعض الأوراق حتى يتمكن بســرعة من إنجاز معاملات الحصــول على بقية مســتحقاتها المالية ووعدها بالاتصال بها قريبا لتسليمها تلك المستحقات.

خرجت من مبنى الصحيفة إلى الشـارع، كانت تشعر بالارتباك، رغم توقعها في أية لحظة أن تطرد من وظيفتها أو حتى أن يتم إغلاق الصــحيفة بقرار من جهاز الأمن والمخابرات كما يحدث كثيرا، لكنـها شـعرت كأنـها لم تكن مهيئة لذلك أبدا، كان أقصــى ما توقعته أن يتصـل بها جهاز الأمن لإبلاغها منعها من الكتابة في الصحف كما حدث لبعض زملائـها.

قررت العودة إلى البيت لتســتريح قليلا قبل أن تبدأ في الغد من جديد رحلـة البحث عن عمـل، وجدت في تليفونـها النقـال أنّ أحدهم اتصـل بـها، كانت قد وضـعت الجهاز في وضـع الصـامت حين ذهبت لمقابلة مدير شـئون المسـتخدمين في الصـحيفة، لم تجد رقم الشـــخص الذي اتصـــل بـها، اعتقدت أنـه ربما كان

خطيبها بدر الدين الذي لم تسمع صوته منذ صدور الحكم عليها .

حاولت الاتصال به عدة مرات لكنه كان دائما مشغولا، بسبب طبيعة عمله مع شركة تقوم بتسويق الصمغ العربي يسافر كثيرا، رجّحت أنه ربما كان مسافرا وتوقفت عن محاولة الاتصال به، رغم أنها كانت تشعر أنّ حكم محكمة النظام العام لم يثمر فقط عن خسارة وظيفتها بل أيضا خطيبها، الكثيرون يؤمنون أنّ قانون النظام العام وضع لإذلال المواطن وخاصة النساء، لكن برغم ذلك حين تدين محاكم القانون سيئ السمعة فتاة أو امرأة ما، تنسحب إدانة تلك المحكمة على المدان في كل مكان، ينظر إليه الجميع باعتباره ارتكب فعلا مشينا.

التقت في الخارج بأحد زملاء الصحيفة، لاحظت أنه صافحها بعجلة، وهمس لها وهو ينطلق أنّ أحد زملائهم السابقين يخوض تجربة إصدار صحيفة جديدة، وعليها أن تبادر بالاتصال به، تركها دون تفاصيل كثيرة، شعرت أنّ مجرد تواجدها في مكان ما يحرج زملائها.

قررت أن تتصل ببعض زملائها بحثا عن رقم هاتف محمد نور الدين، دهشت في البداية لأنّ نور الدين كان لا يخفي معارضته للحكومة، وسبق له التعرض للاعتقال والإيقاف من الكتابة، لابد أنّ السلطة ستضعه في دائرة اهتمامها إن فكّر في إصدار صحيفة، وسيكون محظوظا إن استطاع الحصول على ترخيص

لإصـــدار الصـــحيفة، وســـيحتاج إلى معجزة إن أراد أن يجد لصحيفته مكانا في سوق الإعلانات، السوق الذي تسيطر عليه الحكومة عبر الشـركات والمؤسـسـات التي باتت تسـيطر على السوق ويتبع معظمها اما إلى جهاز الأمن والمخابرات، أو إلى أفراد في التنظيم الإخواني، بل أنّ جهاز الأمن والمخابرات كان يحدد حتى للشـركات القليلة خارج مظلة الحكومة ومنسـوبيها، لمن يجب إعطاء الإعلانات ومن الذي يجب منعه.

بعكس من التقتهم من زملائها منذ خروجها من المعتقل، رحّب بها محمد نور الدين ترحيبا شديدا حين اتصلت به، واعتذر أنه كان يجب أن يزورها في فترة سجنها لولا وجوده خارج الوطن لبضـــعة أســـابيع، وأنه كتب مقالا انتقد فيه قانون النظام العام، وتحدث عن واقعة القبض عليها من قبل تلك القوات، وأرســـله لإحدى الصـحف، لكن المقال للأسـف لم ير النور بسـبب مقص الرقيب، لكنه نشره في بعض المواقع الإلكترونية.

وبدون أن تطلب منه شـيئا أخبرها أنه يضـع اللمسـات الأخيرة على إصـدار صـحيفته، وأنه سـيتصـل بها خلال أيام لتحضـر للصحيفة لتوقيع عقد العمل معهم.

بقيت لها زيارة أخيرة مهمة قبل العودة إلى البيت، الســـاعة تشـير إلى الثانية بعد الظهر، توقعت أن تجد بعض المشـاكل في المواصـــلات في طريق العودة، فكّرت في تأجيل الزيارة لكنها قرّرت أن الأمر لم يعد يحتمل التأجيل.

قررت أن تسير على قدميها، المكان الذي تقصده ليس بعيدا عن وسط المدينة. أبلغها موظف الاستقبال أنّ بدر الدين موجود لكنه في اجتماع ربما لن يستغرق وقتا طويلا، أخبرته أنها ستبقى في انتظاره، كان البهو الذي يقع فيه مكتب الاستقبال نظيفا بصورة لافتة، بقيت تراقب الأشخاص الذين كانوا يعبرون من أمامها، في عجلة لا تعرف لماذا شعرت بأنها عجلة زائفة.

انتظرت لأكثر من ساعة، استعرضت خلالها علاقتها مع بدر الدين التي بدأت بصدفة تحقيق صحفي حول المشاكل التي تواجه إنتاج الصمغ العربي، ومشاكل تصديره بسبب العقوبات الأمريكية، كانت قد حصلت على رقم تليفونه ليساعدها بحكم عمله في إكمال التحقيق. بعد أن أكملت تحقيقها فوجئت به يتصل بها عدة مرات، ثم التقيا في أماكن عامة قبل أن تحسم أمرها وتوافق على طلبه بالزواج، لاحظت منذ البداية أنه كان متعجلا، وأنه يتخذ معظم قراراته ببساطة ودون تفكير، نشأت هي في كنف أب كان يفكر عدة مرّات قبل اتخاذ قرار حتى في بعض الأشياء البسيطة، علّمها الصبر وتمحيص كل شيء.

لكن البساطة الفوضوية في بدر الدين كان أكثر ما أعجبها فيه، كأنها كانت تنتقم لذلك الانضباط اليومي الذي أغرقت فيه حياتها منذ طفولتها، عند بدر الدين لم تكن هناك مشكلة في العالم لا يمكن حلها، رغم أنه كان يبدو وكأنه يصنع مزيدا من

المشـــاكل حين يحاول إيجاد حل لمشـــكلة ما بطريقة لامبالاته المتعجلة.

كان موظف الاســتقبال مشــغولا مع عدد من الأشــخاص ذهبت إليه بعد قليل، كان قد نســي ســبب وجودها في المكان، لاحظت أنـه دهش قليلا حين قـالـت لـه إنـهـا بـانتظـار بـدر الـدين، قـال: غريب انتهى الاجتماع منذ أكثر من نصـف سـاعة وأخبرته أنك في انتظاره في الاستقبال، وقال إنه سيحضر خلال دقائق، طلب منها أن تبق في مكانها وســيذهب للســؤال عنه، عاد بعد قليل ليخبرها أنه عرف أن بدر الدين خرج من المبنى، قال مندهشا: لابد إنه استخدم الباب الخلفي لم أره يخرج من هنا!

فكّرت هاجر قليلا، بدت لها الأمور واضـــحة بما يكفي لإعادة وضــعها في نصــابها الصــحيح، طلبت من موظف الاســتقبال مظروفا فارغا، أعطاها واحدا مطبوع عليه شـــعار الشـــركة وعنوانها، كتبت اســمه على المظروف ووضــعت داخله خاتم الخطوبة وتركته لدى موظف الاستقبال.

00

مرّت أكثر من ستة أشهر على اختفاء النقيب عبد الله، دون أن يظهر له أية أثر، بعد شهر من الواقعة اضطرت صفية لإغلاق بيتها مؤقتا تحت ضغوط أسرتها وعادت لتسكن في بيت والديها، لم تعرف في البداية كيف تبرر لطفليها غياب والدهم، جاء بعض رجال الشرطة وفحصوا المكان، كان واضحا أنهم يقومون فقط بما يتطلبه الموقف في الأحوال العادية وحتى لا يتهمهم أحدهم بالإهمال أو التواطؤ.

كان على رأس قوة الشرطة ضابط برتبة ملازم كان يبدو متحمسا قليلا، كان شابا لطيفا يرتسم على وجهه الجاد شبح ابتسامة خفيفة، تعطيه مظهرا طفوليا سعيدا، يزداد وضوحا كلما ضاقت عينيه بفضل استغراقه في التفكير وكلما سقط الضوء على أنفه الصغير الذي يطل من فوق شارب خفيف، يكاد يحيط بفمه الصغير، سألهم عن آخر مرة شوهد فيها النقيب عبد الله وإن كان لديه أية أعداء، وإن كان معتادا على

الغياب لفترات طويلة من البيت، ثم استدعى عددا من الجيران لسؤالهم عن المرة الأخيرة التي شاهدوا فيها النقيب عبد الله.

فحص ركام الأثاث المبعثر بحثا عن شيء لا يستطيع تحديده، أخرج تليفونه الجوّال والتقط بعض الصور للبيت ولأكوام الملابس والأثاث، كان يبدو على وجهه الطفولي أنه يتحرك في المكان فقط بدافع الفضول وليس بدافع إيجاد حل للغز الرجل المختفي، والتفتيش الدقيق للبيت لدرجة اقتلاع ألواح السقف وتقليم فروع شجرة النيم في الفناء، قال وهو يحاول إخفاء فضوله الطيب، في نبرة الاستجواب الرسمية: هل كان يخفي شيئا مهما في البيت؟

قالت صفية: ماذا تقصد بشيء مهم؟

بدا على الملازم وكأنه فوجئ بالسؤال، تراجع إلى الخلف قليلا، كأنما تلك الخطوة ستفسر سؤاله، ثم قال وكأنه يوضح شيئا آخر لا علاقة له بسؤاله الأول: مقتنيات ثمينة، نقود مثلا أو ذهب؟

النقود عثرنا عليها كلها رغم أن كل من يفتح دولاب الملابس يرى النقود بوضوح، هناك مصاغ ذهبية قليلة في صندوق صغير لم أعثر عليها لكنها ربما كانت مدفونة تحت الملابس وبقية الأشياء في الأرض، ولو فرضنا أنهم أخذوها هل يعقل أن كل هذا المجهود للحصول على قطعة مصاغ لا تساوي

الكثير، ويتركون النقود وهي تساوي أضعاف قيمة المصوغات الذهبية!

كاد الضـــابط أن يبدي موافقته لتوضـــيحها، لكنه تذكر أنه هو المحقق وليس صـــاحب البيت، هو من يجب أن يقرر لماذا ترك اللص بعض الأشـــياء الثمينة وســـرق بعض الأشـــياء الأخرى، بعض اللصوص يتسمون بغرابة الأطوار، لقد مرّت عليه قضية مشـــابهة قبل فترة، لص تمكن من اقتحام أحد المنازل، ســـرق بعض التليفونـات النقـالـة والســـــاعـات وترك الجواهر ربمـا لاعتقاده أنها جواهر مزيفة مصنوعة في الصين!

لم تســـتطع صـــفية أن تفهم إن كان الرجل لا يريد ربط الواقعة بأحد الأجهزة الرسمية التابعة للسلطة، أم أنه كان يتعمد تمويه القضية والتعامل معها على أنها مجرد سرقة بيت قام بها بعض لصوص المنازل.

تساءلت صفية ببراءة: هل ستقومون برفع البصمات؟

ردّ الملازم بعد لحظة صـــمت حاول فيها مداراة بريق المفاجأة في وجهه: لماذا ســـنفعل ذلك؟ انتبه عندئذ لرده غير الذكي، قال: بالطبع سـنفعل ذلك، سـيحضـر فريق من المعمل الجنائي، نظر إلى ســـاعته وقال: ربما بعد قليل، حاول إغلاق القضـــية: ســـيكفينا بقية اليوم لجمع كل الأدلة، يمكنكم من الغد إعادة ترتيب البيت.

ثم خاطب شقيق صفية: أرجو أن تعطيني رقم هاتفك سأتصل بك خلال أيام إذا ما وصلنا إلى أية معلومات جديدة، يمكنك الحضور في نهاية اليوم لاستلام مفتاح البيت، ثم قال بصوت أقرب للهمس، لو أمكن أن تأخذ معك الآن شقيقتك وأطفالها حتى يمكننا أن نكمل عملنا في هدوء! نحتاج لإعادة فحص وتفتيش البيت بحثا عن آثار محتملة للفاعل، طبيعة عمل صاحب البيت تقتضي منه الغياب عن البيت حسب ما فهمت من زوجته، سنقوم بالانتظار حتى الغد إن لم يرجع أرجو أن تتصل بي لنقوم بعمل التحريات اللازمة ونراجع المستشفيات.

بعد ستة أشهر على الواقعة بقي الوضع على حاله، لم يظهر النقيب عبد الله، ولم تفلح كل محاولات العثور عليه، نشروا إعلانا مع صورته في الصحف اليومية، وبحثوا في كل مكان يحتمل ذهابه إليه دون جدوى، تذكرت صفية، ابن عم زوجها سعيد الذي ربما كان آخر شخص يلتقيه زوجها قبل اختفائه.

حين طرقت باب البيت فتح لها الباب أحد زملاء سعيد في السكن، كان رجلا يبدو في الخمسين من عمره، وعرفت من منظر العمامة الضخمة على رأسه، أنه ربما كان خارجا أو عاد للتو من الخارج، قال لها الرجل بحذر أن سعيد غير موجود، سألته متى سيعود إلى البيت، فتردد قليلا قبل أن يقول إنه لا يعلم، شعرت أنه يخفي شيئا ما، فأوضحت أنها زوجة النقيب

عبد الله ابن عم سعيد وأنّ زوجها مختف من فترة وكان سعيد هو آخر شخص يلتقيه قبل اختفائه.

تغيرت لهجة الرجل على الفور ورحّب بها كثيرا، رغم أنه كان ينظر من خلف صفية في خوف واضح وكأنه كان يخشى ظهور شخص ما، دعاها للدخول إلى البيت، جلست على مقعد قديم في الفناء الصغير جوار شجرة الحناء، كان بيتا قديما يحيط سور من الطوب الأحمر بالفناء، وجدران البيت متشققة ربما بفعل المطر، وقد تآكل طلائها منذ أمد بعيد، أحضر لها الرجل كوب شاي واعتذر أنّ زوجته وابنه خرجا لمقابلة الطبيب، دهشت لسماع ذلك وقالت له إنها كانت تعتقد أنّ البيت يسكنه عدد من الشباب اَلْعَذَاب، رد عليها أنّ ذلك صحيح وأنه قريب لأحد هؤلاء الشباب وجاء في زيارة قصيرة للعاصمة لتقابل زوجته الطبيب، وسيعودون في الغد إلى قريتهم في منطقة مشروع الجزيرة.

حكى لها أنه لا يعرف بالضبط ما حدث لسعيد، لكنه بعد وصوله إلى العاصمة قبل أيام لم يجد سعيد في البيت، وهو كان يعرفه بحكم زياراته المتقطعة للعاصمة حيث اعتاد أن يقيم أثناء زياراته القصيرة معهم، وأنه سأل ابن أخته عن سعيد فأخبره أنّ رجال الأمن داهموا البيت قبل فترة، وقلبوه رأسا على عقب وصادروا بعض المستندات التي عثروا عليها مع سعيد، وأخذوه معهم، وأنهم حاولوا الذهاب إلى مبنى جهاز الأمن

للسـؤال عنه، لكن أحدا هناك لم يدلهم على أية شـيء عنه، بل أنهم أنكروا أنـه محتجز لـديهم، واضـــطروا للمغادرة بعد أن هددوهم بالاعتقال إن لم يغادروا المكان.

بعد معرفتها باعتقال ســعيد باتت صــفية على يقين أنّ زوجها مختطف من قبل الأجهزة الأمنية، اتصــلت بمحام من أقربائها، حدّد لها موعدا لزيارته في مكتبه، حاول أن يطمئنها في البداية أنّ زوجها سيعود، وأنه ما دامت الأجهزة الأمنية حصلت على المسـتندات فلن يكون هناك داع لاحتجازه، لكنها ذكّرته بحالات الاختفاء الكثيرة المتهم بها جهاز الأمن، كما أوضــحت له أنها تعتقـد أنّ زوجهـا يعرف معلومـات كثيرة بحكم طبيعـة عملـه الســـابق وكذلك من خلال عمله مع لجنة التحقيق في محاولة اغتيــال الرئيس المصـــري في أديس أبــابــا، وربمــا تكون المعلومات التي يعرفها زوجها أخطر حتى من المسـتندات التي حصلوا عليها.

بدا القلق على وجه المحامي واقترح عليها أن تحاول الاتصــال بعدد من رجال الحزب الإســـلامي الذين يعرفون زوجها، قالت صـــفية إنه حســـب علمها فإن معظم معارف زوجها هم الآن خارج السلطة، أوضـح المحامي أنهم جميعا إسـلاميون من هم في السـلطة ومن طردوا منها، وأنّ العلاقات الشـخصـية تلعب دورا مهما في مثل هذه الظروف، طلب منها أن تحاول وإن لم تنجح المحاولة، فيمكنه أن يساعدها في كتابة عريضة ترسلها

إلى مفوضية حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، أوضح لها أنّ مجرد ورود اسمه في تقارير حقوق الإنسان وأنه معتقل دون أن تعرف أسرته مكانه سيكون ضمانا لعدم تعرُّضه للأذى.

عادت صفية إلى بيتها برفقة شقيقها، بحثت في متعلقات زوجها التي نجت من المصادرة وعثرت على دفتر صغير به عدد من أرقام التليفونات، لم تجد أي من أسماء زملاء زوجها الذين كانت تعرفهم بحكم زياراتهم إلى زوجها.

بدأت تتصل بالأرقام عشوائيا، أول رقم حاولت الاتصال به، ردّ عليها بسرعة لكنها حين عرّفت نفسها، لاحظت ما يشبه ارتباكا في صوت الرجل الذي وعدها بمعاودة الاتصال بها بسبب انشغاله في تلك اللحظة، حاولت رقما آخر، لم تجد ردا، حاولت رقما ثالثا، سمعت صوتا عميقا كأنه يتحدث من عالم آخر، حين أوضحت له أنها زوجة النقيب عبد الله رحّب بها بشدة، وقال إنه علم بما حدث له وتساءل إن كان هناك جديد في قضيته، أوضح لها أنهما عملا سويا قبل سنوات لكنه ترك الوظيفة منذ فترة، قال بعد فترة صمت أنه ليست له اتصالات مع نافذين في النظام يمكن أن يفيدوا في هذه القضية، لكنه سيسأل مساعدة زملائه السابقين الذين لا زالوا في الخدمة، ووعدها بالاتصال بها قريبا.

واصلت الاتصال بالأرقام التي عثرت عليها بالترتيب، الرقم التالي أغلق الخط مجرد أن عرّفت عن نفسها.

00

كانت الساعة الثانية عشرة منتصف النهار والعالم على وشك الذوبان في القيظ، حين ترجّل عاصم الحاج من سيارته أمام جهاز الأمن والمخابرات، قبل يومين تلقى طلب استدعاء لجهاز الأمن، دون أية توضيح حول الغرض من الاستدعاء، كان يشعر ببعض الخوف والارتباك، في الأسابيع الأخيرة نفّذ كل أوامرهم بطرد بعض المحررين، آخرهم كانت الصحفية هاجر السناري، ونتيجة تعاونه فقد سمحوا له بالحصول على عدد من الإعلانات الحكومية، لولا تلك الإعلانات كان على وشك إعلان إفلاس الصحيفة، فقد تراجعت مبيعاتها بعد أن اضطر للتخلي من عدد من الصحفيين الذين كانوا لا يترددون في توجيه سهام نقدهم إلى النظام ورموزه، أصبحت صحيفته نسخة من صحف الحكومة، حين يتوقف نقد الحكومة تزدهر صفحات الصحيفة بالإعلانات.

أعطى ورقة الاستدعاء لموظف الاستقبال، حين حان دوره، نظر فيها وأدار قرص الهاتف أمامه، تكلم بصوت هامس لم

يتبين رئيس التحرير ما قال الرجل الذي وضع سماعة الهاتف وطلب منه الجلوس وأن أحدهم سيحضر لاصطحابه، لم يكد يجلس جيدا في مقعده حتى وقف أمامه شاب فارع الطول، يرتدي قميصا من قماش قطني سميك يشبه قماش الدمّور المصنوع يدويا، وطلب منه بتهذيب شديد أن يتبعه، كان يعتقد أن المقابلة ستكون مع أحد ضباط الجهاز لكنه وجد نفسه أمام مدير جهاز الأمن والمخابرات نفسه !

رحّب به الرجل ترحيبا شديدا وطلب من الشاب الذي رافقه أن يحضر لهم كوبين من القهوة، كان الرجل يهز باستمرار رأسه الصغير الذي لم يكن متناسبا مع جسمه الضخم، عيناه باردتان مثل عيون سمكة ميتة، تختبئان خلف نظارة طبية سميكة، تجلس فوق أنف ضخم، تعطيه النظارة الطبية إضافة للشيب فوق رأسه نصف الأصلع، وقارا علميا طيبا.

تحدثا في أمور عامة، حول مستقبل الحركة الإسلامية بعد الانشقاق، حول اتفاقية السلام مع الجنوب، حول الحرب في دارفور، كان الحديث عاما، يدور بحذر حول نفس التوجيهات الحكومية التي يتسلمها رؤساء تحرير الصحف حول الخطوط الحمراء التي لا يجب تجاوزها، في تناول قضايا الحرب والأزمات والأوبئة.

فجأة سحب رئيس المخابرات مظروفا ضخما ووضعه أمام ضيفه، نظر عاصم الحاج إلى الظرف وهز رأسه كأنه لا يفهم

شيئا، قال رئيس جهاز الأمن: هذه أتعاب خدمة صغيرة أطلبها منك!

لم يمد عاصم الحاج يده نحو الظرف، لكنه قال بتردد خائف: نحن في خدمة أمننا الوطني.

عاد رئيس الجهاز ليكمل كلامه حول اتفاقية السلام، وسأل رئيس التحرير سؤالا مفاجئا: من قراءتك للأحداث هل تعتقد أنّ أهل الجنوب سيختارون الوحدة أم الانفصال؟

حاول عاصم الحاج لملمة مظاهر الذعر في وجهه، ففي كل كلمة يتفوه بها رئيس جهاز الأمن كان يتوقع شيئا عن كارثة المهمة التي يريد منه إنجازها، والمظروف الضخم المليء بالنقود يشير إلى جسامة المهمة.

قال رئيس التحرير بحذر معتقدا أنّ إجابته للسؤال ربما تحدد نوع المهمة التي يجب عليه القيام بها: لا يستطيع أحد التكهن بما سيدور، لكن الصحف القريبة من الحركة الإسلامية تبدو وكأنها تؤيد الانفصال! البعض يقولون أنّ الحركة الإسلامية تريد أن يُخفّف الغرب الضغط عليها، وسيكون انفصال الجنوب مهر علاقة جديدة تُلغى فيها العقوبات الاقتصادية، ويجد الإسلاميون اعترافا من الغرب بأن وجودهم في السلطة كفيل بسحب البساط من تحت أقدام الجماعات الأكثر تطرفا!

صـــمت رئيس الجهاز قليلا وقال كمن يؤيد وجهة نظر رئيس التحرير: تعتقد الحركة الإســـلامية أنّ الجنوب كان عبئا دائما على الشمال، وحان الوقت للشمال لكي يتحرر من ذلك العبء!

شعر رئيس التحرير كأنّ كلام رئيس الجهاز هو توجيه رسمي لتتبنى صحيفته نفس الخط الرسمي في تأييد الانفصال، شعر ببعض الارتياح، أن كانت تلك المهمة فلن تكون صعبة على كل حال، كان رئيس التحرير يود أن يســـتفيض قليلا في الحديث رغم أنه لم يكن يملك موقفا محددا تجاه القضية، لكنه خشي أن تجعل أية كلمة يقولها مهمته تزداد تعقيدا.

انتظر رئيس جهاز الأمن أن يقول ضيفه شيئا وحين وجده آثر الصمت، قال: هل تحضر اجتماعات الحركة الإسلامية؟

قال رئيس التحرير: منذ سنوات لم تصلني أية دعوة للمشاركة في اجتماع! ولا أعرف إن كنت لا أزال عضوا فيها أم لا!

وكيف عرفت أنّ الحركة الإسلامية تفضّل خيار الانفصال؟

كما قلت من الخطوط العامة في الصـــحف القريبة من الحركة، من النشـــاط المتزايد لحزب الشـــمال القومي الذي يقوده إســـلاميون، الحزب الشـــمالي الوحيد الذي يعلن تأييده لخيار الانفصال!

أطرق مدير الأمن مفكرا، كان صـــمته يثير مخاوف رئيس التحرير بشـــأن المهمة التي ســـيطلب منه تنفيذها، حاول أن

يتقدم خطوة واحدة فقال: إن كان المطلوب حملة صحفية مؤيدة للانفصال يمكننا البدء في ذلك فورا!

تجاهل مدير الجهاز اقتراحه المراوغ وقال: ما رأيك فيما يحدث في دارفور!

استرسل رئيس التحرير حول وجود مؤامرة أجنبية تستهدف النظام ومشروعه الحضاري، لم يلاحظ حتى أنه كان يردد نفس الأطروحة الرسمية للنظام.

نظر رئيس الجهاز في ساعته وقال: سرقنا الوقت، للأسف لديّ موعد مهم أخشى أن أتأخر عليه.

لم يقل ولا كلمة واحدة حول المهمة، انتظر رئيس التحرير أن يقول له وهو يغادر المكتب أية شيء عن طبيعة المهمة أو أنهم سيستدعونه مرة أخرى، لكنّ المدير لم يقل شيئا، ودّعه حتى باب المكتب وعاد بسرعة إلى الداخل.

في الخارج وجد رئيس التحرير أنّ المظروف الضخم يحتوي على مبلغ مائة ألف دولار! طغت الفرحة بالنقود على الخوف من المهمة التي يجب أن ينفذها، والتي اقتنع الآن أنها أمر خطير يساوي الكثير دون أن يستطيع أن يحدد أن كانت تعني الكثير للوطن أم للسيد رئيس جهاز المخابرات.

00

في تلك الأثناء كان سعيد عبدالهادي ابن عم النقيب عبد الله لا يزال معتقلا في أحد البيوت السرية التابعة لجهاز الأمن والمخابرات، كان المكان يعج بالمعتقلين، طُلاب، شيوعيون، وعدد من النقابيين والناشطين مع عدد من الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني، كان سعيد يسأل الجميع عن النقيب عبد الله أملا في أن يعرف شيئا عن مصيره، كان قد سمع قبل اعتقاله أنّ النقيب عبد الله اختفى في نفس اليوم الذي قام فيه بتسليمه المستندات.

يتعرّض سعيد لتعذيب يومي، رغم أنهم صادروا المستندات التي عثروا عليها مخبأة في البيت، كان الضابط في كل مرة يسأله أين توجد صور المستندات، وفي كل مرة كان يؤكد لهم أنه احتفظ بها كما أعطاها له النقيب عبد الله، وإنه حتى لم يكن لديه وقت لرؤية هذه المستندات أو تصويرها، وانّ ابن عمه طلب منه فقط الاحتفاظ بها وهو نفّذ طلبه حرفيا.

كان الضـابط يسـأله في كل مرة: من قام بفتح الظرف إذن؟ هل قمت بالاطلاع على هذه الأوراق أو رآها شخص آخر؟

كـان يقســـم في كل مرة أنـه لم يكن هنـاك وقت حتى ليرى مـا بداخل الظرف وأنـه كان مفتوحا حين تســـلّمه من النقيب عبد الله.

قال لـه ضابط الأمن: النقيب عبد الله كان ضابط أمن مدرب، لابد أنـه طلب منك عمل نســخة احتياطية من المســتندات، هو كان مراقبا طول الوقت لذلك لم يتمكن من عمل ذلك، والمنطقي أنـه طلب منك ذلك.

حاولوا مرة رشـــوته، كانوا قد تركوه طوال الليل واقفا ويديه إلى أعلى حتى كاد جسـده يتصـلّب، وكلما غزا التعب والنعاس عينيه كان يحصـــل على دفعة ماء بارد فوق جســـمه، تجعل جسـده يرتجف من البرد والتعب، في الصـباح وهو لا يزال في حال ســـيئة من فرط التعذيب وإرهاق عدم النوم، اســـتدعوه للتحقيق معـه، عرض عليـه المحقق إطلاق ســـراحـه فورا والحصول على مكافأة كبيرة، إذا اقتنع بالتعاون معهم.

أوضـح الضـابط: سـتحصـل على مكافأة كبيرة وسـنقوم بتعيينك معنا في الجهاز! لدينا شـركات تعمل في مجالات متعددة، إحدى شــركاتنا تعمل في مجال صــيانة الســيارات يمكنك أن تصــبح موظفا كبيرا في هذه الشــركة، أو إذا كنت تفضــل العمل الحر، يمكننا إنشـاء شركة لك وستحصل على إعفاءات من الضرائب

والجمارك لكل قطع الغيار أو العربات التي تقوم باســـتيرادها، فقط سلّمنا صور المستندات، هذه المستندات تخص أمن الدولة كلها، ووقوعها في يد أية جهة خارجية يهدد أمن وطننا!

كان سعيد رغم شعوره بعدم المقدرة على التركيز لما يدور من حوله بسبب الإرهاق الشديد، يكرر إنكاره تصوير المستندات أو العلم بما تحتويه، ورغم علمه بأهمية تلك المســـتندات لكنه عرف من اســتجوابهم له أنّ تلك المســتندات أكثر خطورة مما توقع،، وخمّن أنه لولا شكهم في وجود نسخة منها مخبأة في مكان ما ربما تخلصوا منه، وأن إنكاره لمعرفته بوجود نسخة منها سيكون الضمان الوحيد لعدم قتله.

قال له ضابط الأمن: هل تعتقد إننا أغبياء؟ سوف نصل لصور المستندات وعندها سيكون حسابك قاسيا، نحن الآن نراجع كل محلات تصــوير المســتندات في المنطقة، وإن تأكدنا أنك قمت بتصويرها فسيكون ذلك آخر يوم في عمرك.

قال للضابط في إخلاص: أنا مجرد عامل ميكانيكي، أقرأ واكتب بصعوبة، وحتى حين اشتري إحدى الصحف الرياضية أقرأ فقط العناوين الرئيســـية، وأعطيها لشـــخص ما ليقرأ لي التفاصيل!

نفذ الضـــابط بنظرته إلى عينيه المرتبكتين، فرأى تلال الخوف القابعة خلف نظراته، ورأى كل عضلة في جسمه ترتجف، مثل

سيارة قديمة هيكلها المعدني غير مثبّت جيدا. كان واضحا لهم أنّ سعيد يخفي أو على الأقل يخاف من شيء ما.

كانوا يعيدون استجوابه كل يوم، بعد حفلات التعذيب والضرب الجماعية، وارتفع عرض الرشوة إلى ملايين الجنيهات إضافة لفرص أعمال أخرى، وسعيد يشعر أن صموده يتراجع بمرور الأيام، مع الضـــرب بالخراطيم والطعام الرديء، ورائحة نتانة عرق الأجساد ورائحة الغائط والأجساد المحترقة من الصعق بالكهرباء.

كان حظه أفضـــل قليلا من بعض المعتقلين الذين يُعلّقون في السقف أو يتعرضون للصعق بالكهرباء، الغرفة التي يقيمون فيها كبيرة نسبيا، كانت فيما يبدو غرفة لاستقبال الضيوف في البيت الذي يقيمون فيه والذي لا يســـتطيع أحد المعتقلين أن يجزم بموقعه، لكن فيما يبدو أنه كان قريبا من منطقة المطار قريبا من وســـط المدينة، فقد كانوا يســـمعون أصـــوات هبوط الطائرات وإقلاعها.

ذات يوم أحضـــروا رجلا، ســـمع همســـا يدور أنّ الرجل متهم بالاشتراك في محاولة انقلاب ضد النظام، قاموا بضربه حتى فقد الوعي، كانوا يأخذونه كل صباح ويعيدونه نهاية اليوم

وهو على وشـــك أن يلفظ آخر أنفاســـه، وفي أحد الأيام عاد الرجل في حال ســـيئة، ثيابه ممزقة وقد تناثرت عليها بقع من الدماء، بقي جالســـا في مكانه لا يســـتطيع حراكا أو كلاما لمدة

يوم كامل، أمام إلحاح بعض المعتقلين قاموا بنقله للمستشفى، لم يروه مرة أخرى. أوضح أحد المعتقلين أنّ الرجل تعرّض في الغالب للإغتصاب، وأوضح أنه رأى عدة حالات مشابهة في فترة اعتقاله، وأنه كان شاهدا على شاب تعرّض قبل أشهر إلى التعذيب نفسه مما أدى به لفقد عقله، وأنه أقدم حين أطلق سراحه على قتل زوجته وأطفاله الصغار ثم انتحر.

سعيد كان على وشك الاعتراف حين رأى حالة المعتقل الذي تعرّض للاغتصاب، رغم أنه كان يخشى أن يتعرض للقتل إن قام بالاعتراف بامتلاكه لصورة المستندات. كان قد سمع من حوارات المعتقلين معه أنّ كل من يعرف شيئا عن أسرار محاولة اعتقال الرئيس المصري أو حتى عرف شيئا عن طريق الصدفة يتعرّض فورا للقتل.

وحكى أحدهم قصة مطرب مشهور اغتيل قبل سنوات، ويقال أنّ جهاز الأمن قام بتهريب بعض من شاركوا في تنفيذ عملية الاغتيال ضمن الفرقة الموسيقية التي رافقت ذلك الفنان في رحلة فنية في بعض دول الجوار.

أفضى سعيد بحذر ببعض تفاصيل قصته إلى معتقل سياسي وثق فيه كثيرا، فنصحه الأخير ألا يتحدث عن ذلك الأمر أبدا، وحتى إن كان يعرف طريق بعض المستندات عليه أن ينكر ذلك وأن ينكر حتى أنه رآها أو قرأ شيئا منها، وأنّ ذلك هو الطريق الوحيد لينجو من الموت، أوضح له المعتقل أنهم في الغالب

يصدّقون أنك بريء ما داموا يعرفون كل شيء عنك، وأنه ليس لديك نشاط سياسي أو نقابي لكنهم في الغالب سيحتفظون بك لبعض الوقت حتى يتأكدوا من سلامة موقفك.

شارك سعيد بحذر في حوار بين زملائه المعتقلين حول استخدام جهاز الأمن للاغتصاب ضد بعض المعتقلين السياسيين، قال معتقل مسن قليلا: لقد كنا زوارا للمعتقلات في معظم العهود العسكرية الوطنية وحتى في فترة الاستعمار، ولم يسبق لنا رؤية ذلك إلا في عهد الإخوان المسلمين، شرح أحد المعتقلين وجهة نظره أنّ الجهاز يحاول ابتداع طرق جديدة للمعتقلين تؤدي لمزيد من إرهاب الناس في الخارج، وتخويفهم من الانخراط في عمل ضد النظام، وكذلك تهدف إلى اغتيال معنوي لهؤلاء الضحايا، فالمجتمع حكمه لا يرحم على من يمارسون الشذوذ الجنسي.

قال معتقل آخر: غريب إن يحمل المجتمع نفس النظرة لشخص تعرّض لانتهاك جسده بالقوة! فهذا يظل نوع من التعذيب لا يمكن مساواته بمن يمارس الشذوذ برغبته!

علّق معتقل آخر: لقد قرأت مقالا لصحفي غربي تعرّض للاغتصاب على يد الطالبان في أفغانستان، وكان يحكي عن التجربة باعتبارها تعذيبا وليس فيها أية انتقاص من رجولته كما نفهم نحن ذلك! بل أنه كان يطلب كل بضعة دقائق من المجموعة التي رافقته بعد إنقاذه، إيقاف السيارة ويخرج

ليحاول تنظيف مؤخرته من المصـــائب التي أدخلها الطالبان فيها! فقد شارك عدة مجاهدين في عملية اغتصابه!

ضـحك أحد المعتقلين وحكى نكتة المعتقل السـياسـي الذي أمر قاضي النظام بأن تكون عقوبته الاغتصاب وحين أخذوه للتنفيذ كان هو يلوح بيده مهددا الجندي الذي يرافقه، وأنه ســيحطم رأس كل من يحاول اغتصــابه، وحين وصــل إلى مكان التنفيذ وجد شـــخصـــا آخر كانت عقوبته هي القتل، بدلا من التهديد أصـبح المعتقل المحكوم بالاغتصـاب يسـتجدي الجندي ويذّكره أن عقوبتـه هي الاغتصـــاب حتى لا يخلط بينـه وبين المعتقل الآخر المحكوم بالموت!

ضحك المعتقلون وعلّق أحدهم: (قضاء أخف من قضاء!)

00

بعد عدة أيام من لقائه مع رئيس جهاز الأمن والمخابرات، كان عاصم الحاج في بيته يشاهد برنامجا في جهاز التلفزيون، حين سمع خبطا على باب البيت، فوجئ بالقادم، كان رئيس جهاز الأمن والمخابرات، استقبله رئيس التحرير بارتباك، كان رئيس المخابرات يرتدي جلبابا ناصعا وعمامة شديدة البياض، وبدا وهو يقتحم البيت بدون أية هالة رسمية مصاحبة، وكأنه في زيارة ودية لصديق عزيز.

شرب الشاي الذي طلبه بدون حليب، ثم سال مضيفه إن كان بإمكانه التدخين داخل البيت مقترحا أن يجلسا في الفناء. في وسط الفناء حديقة صغيرة، نجيلة خضراء محاطة بأشجار الاركويت تسع بالكاد عددا قليلا من المقاعد. اختفى الاثنان داخل أشجار الاركويت، ثمة قمر حزين كان يطل بخجل من خلف سحاب خفيف، تتلاعب به أنسام ليلية لطيفة تهب برائحة

نوّار الليمون، فيما يتصاعد صوت الباعة في الخارج مختلطا مع أصوات بعض السيارات العابرة وأزيز الموتورات الكهربائية التي تسحب المياه من خطوط المياه الرئيسية إلى داخل البيوت.

أفرغ رئيس المخابرات حمولة صدره من الدخان، وقال دون تضييع أية وقت في حديث عن خدمة الوطن، قال: أريد المستندات الآن!

ارتبك رئيس التحرير، فهم المطلوب، لكنه نسي أنه تحدث عن تلك المستندات عرضا في يوم ما مع رئيس المخابرات، قال أية مستندات تقصد؟

قلت لي قبل ثلاثة أشهر وسبعة أيام، إنّ لديك مستندات تكشف فساد رؤوس كبيرة في النظام!

صمت رئيس التحرير، عرف أنه لن يستطيع الكذب، قال وكأنه على وشك أن يفقد كنزا ثمينا: إنها موجودة في المكتب!

وقف رئيس المخابرات على الفور، سنذهب ونحضرها، المكان ليس بعيدا، سنعود لنكمل شراب الشاي!

فهم عاصم الحاج أنّ الأمر لن ينتهي بتسليم المستندات، داهمه شعور قوي أنّ رئيس جهاز الأمن كان يريد تلك المستندات لشخصه، يريد استثمارها في شيء ما يخصه هو فقط، ولا علاقة له بأمن النظام نفسه!

في الخارج لم يترك رئيس المخابرات فرصـــة لعاصـــم الحاج الذي كان يود اســتخدام ســيارته. أشــار له إلى المقعد الأمامي بجانبه في الســيارة التي كان يقودها بنفســه، اكتشــف رئيس التحرير مندهشـــا أن الرجل يتحرك بدون حراســـة ، اعتقد أنّ التحرُّك بصـــورة عادية لا تلفت الأنظار هو نفســـه نوع من الحماية، لم يفكر قط أنّ الرجل كان في الواقع حريصـــا على الحصول على تلك المستندات دون أن يلحظ أية إنسان ذلك!

فتح رئيس التحرير خزانـة صـــغيرة أســـفل مكتبـة وأخرج المظروف، ســـحب الأوراق خارج المظروف حتى يتأكد أنها المستندات المطلوبة، ثم سلمها لرئيس المخابرات، قال رئيس المخابرات: كيف حصلت عليها؟

كان معي صحفي شاب متحمس جدا بعد انتشار شائعات فساد بعض رموز السلطة والحركة الإسلامية، واستطاع عن طريق بعض العلاقات مع بعض زملائه من الشـــباب الذين تصـــادف عمل بعضــهم في مكاتب بعض المسـئولين الحصـول على هذه المستندات.

وأين هذا الشاب الان هل لا يزال يعمل معك؟

مات لِلْأَسَـفِ صـدمته سـيارة ويعتقد بعض زملائه أنّ الحادث كان متعمدا للتخلص منه بسبب هذه المستندات، أو ربما بسبب معلومات أخرى جمعها أثناء تحقيقاته!

وهل نشرتم شيئا من تلك التحقيقات؟

للأسف مات قبل أن يفرغ منها!

وهل عثرتم على المواد التي قام بكتابتها؟

كان لديه جهاز لابتوب لم يتم العثور عليه أبدا!

فكّر رئيس المخابرات قليلا: وكيف لم أسمع بهذه الواقعة؟ ألم يتصل بكم جهاز الأمن الاقتصادي؟

لا، الحقيقة أن الحادث كان قبل حوالي خمس سنوات، لم تكن أنت في الجهاز حسب علمي آنذاك!

وهل نشرتم أو كتبتم شيئا عن هذه المستندات؟

كلا

لماذا؟

تعرضنا لحرب خفية رغم أننا لم ننشر شيئا، توقفت الإعلانات الحكومية وكنا على حافة الإفلاس!

قال مدير المخابرات مندهشا: قتلوا الصحفي، وسرقوا كمبيوتره الشخصي، كيف لم يقدموا على سرقة هذه المستندات؟

توقعت في الحقيقة أنهم سيقومون بسرقتها، لكن الأرجح أنهم لم يتوقعوا أنّ الصحفي المغدور كان قد سلّمني المستندات في

نفس اليوم الذي حصـــل فيه عليها. لذلك اكتفوا بالتخلص منه والاســـتيلاء على المقالات في جهاز اللابتوب، وربما لم يكن لديهم علم أصلا أن الصحفي حصل على هذه المستندات ربما لأنها في الواقع صــور من المســتندات الأصــلية واعتقد أنهم بالطبع تخلصوا بعد ذلك من المستندات الأصلية!

قال رئيس المخابرات وهو يتوقف أمام بيت عاصم الحاج: قلت إنك كنت تتوقع أنهم قد يقدمون على ســرقة المســتندات، ذلك يعني أنك تحتفظ بنسخة احتياطية في مكان ما!

قال رئيس التحرير ببســـاطة: نعم، صـــور عن طريق جهاز الموبايل أحتفظ بها في فلاش صغير!

أين هو؟

هنا في البيت!

أحضره لي من فضلك بسرعة.

غاب رئيس التحرير لدقيقة واحدة وعاد حاملا الفلاش في مظروف مغلق صغير.

هل هناك أية صور أخرى!

حسب علمي لا توجد صور أخرى!

ماذا تعني بحسب علمك!

أعني ربما كان الصحفي المغدور قبل وفاته، قد قام بعمل نسخ احتياطية أيضا!

نظر رئيس المخابرات إليه بشك، لحسن حظ أو لسوء حظ رئيس التحرير لم يلحظ بسبب الظلام نظرة الشك القاتلة تلك.

00

بدأت هاجر السناري عملها الجديد، يقع البيت الذي يضم مبنى الصحيفة الجديد على شارع جانبي في إحدى الأحياء الشعبية البعيدة عن وسط العاصمة. يتكون المقر من صالة واسعة كانت مكتبا جماعيا لكل صحفيي الجريدة بما فيهم رئيس التحرير نفسه، هناك غرفتان صغيرتان خصصت إحداها للاجتماعات ولتناول وجبات الطعام، وواحدة تضم المدير المالي ومسئول شئون مستخدمي الصحيفة ومسئول الإعلانات. بسبب إمكانيات الصحيفة المحدودة لم يكن عدد الصحفيين أيضا كبيرا، هناك محرر واحد لقسم الرياضة وبقية الصحفيين السبعة يعملون سويا في تغطية الأخبار السياسية والاجتماعية والثقافية.

في أول اجتماع لهيئة التحرير أوضح رئيس التحرير أن الصحيفة إمكانياتها محدودة لكن طموحها في تقديم خدمة صحفية متميزة لا حدود له، أوضح أنه يتوقع مصاعب وحربا ممن لن يعجبهم الخط المستقل للصحيفة، وأنّ الصحيفة قد لا تجد موطئ قدم في سوق الإعلانات الذي تسيطر عليه الحكومة

وتستخدمه لمكافأة الموالين لها، أوضح أنه كلّف أحد الأصدقاء بتصميم موقع للصحيفة على الإنترنت، حتى تكون الصحيفة متاحة للقارئ خارج الوطن وداخل الوطن أيضا إن تعرّضت للمصادرة، أو للذين لا يستطيعون الحصول على النسخة الورقية. وإن الصحيفة أيضا ستتواصل مع قرائها عبر صفحاتها على مواقع التواصل الاجتماعي، أشار إلى هاجر وقال إنها ستكون مسئولة عن تحديث صفحة الجريدة على موقع ألفيس بوك، والإشراف أيضا على الموقع الإلكتروني للصحيفة وستنال تدريبا من مصمم الموقع حول كيفية رفع العدد اليومي إلى الموقع.

ختم رئيس التحرير قوله: إننا سنحاول فتح ملفات مهمة، الفساد الحكومي، أوضاع المواطنين السيئة خاصة في مناطق النزاعات، انهيار الصحة والتعليم وغيرها من القضايا التي تهم المعاش اليومي للمواطنين، رغم أنّ الحكومة تضع خطوطا حمراء على تناول بعض القضايا مثل قضية دارفور، لكن في الحقيقة هناك خطوط حمراء غير مرئية لكل ما يمكن أن نتناوله من قضايا، يجب أن نحرص على المواصلة مهما كانت الصعاب.

تحدد موعد صدور العدد صفر من الصحيفة بعد أسبوع، عملت خلالها هاجر بجهد مضاعف لإعداد مواد للصفحات الداخلية تكفي لعدة أيام، ستواصل في نفس موضوعاتها القديمة لكشف

الفســـاد في الدوائر الحكومية، كما أعدت تقريرا حول أطفال الشـــوارع، وبدأت في العمل على تقرير حول جرائم التحرش الجنسي التي يتعرّض لها الأطفال.

في اليوم السابق لصدور العدد صفر كان الجو العام يبدو هادئا، كانت هاجر هي الوحيدة التي تنبهت إلى أن الهدوء الشـــديد، كان يثير الخوف أكثر مما يثير الشـــعور بالســـكينة، لابد أنهم يشـحذون سـكاكينهم للانقضـاض على الضـحية الجديدة دون رحمة، كانت تتوقع أن يظهر أحد ضـــباط المخابرات كما هي العادة مع كل الصـــحف قبل طبع الصـــحيفة لمراجعة المواد وحـذف المقـالات أو العبـارات التي تتجـاوز خطوط الرقيـب الحمراء .

لم يحضـر أحد ومضـى كل شـيء في هدوء، تم إرسـال ملفات الصـحيفة إلى المطبعة في وقت متأخر من مسـاء الأحد، وبقي أحد المحررين في المطبعة للإشـــراف على الطبع، كانت هاجر هي المحرر المنـاوب في تلك الليلـة، كـان هنـاك عدد قليل من المحررين إضـافة للحارس الليلي، في الخامسـة صـباحا اتصـل أبو بكر، المُحرّر المُشـــرف على طباعة الصـــحيفة وقال إن الصحيفة جاهزة وأنّه سيحضر إلى مبنى الصحيفة خلال نصف ســـاعة، وطلب منها إبلاغ مندوب شـــركة التوزيع الذي ربما يصل أولا، أنه في الطريق ومعه الصحيفة.

وصـــل مندوب شـــركة التوزيع، بدأ وصـــول بقية المحررين، استأذنت هاجر للذهاب إلى البيت لتحصل على قسط من الراحة على أن تعود ظهرا.

تأخّر وصـول الصـحيفة رغم أنّ أبوبكر كان قد اتصـل ليخبرهم أنه في الطريق، أصـــابت عدوى قلق مندوب شـــركة التوزيع الجميع بالقلق، غادر مندوب شركة التوزيع الصحيفة لأنّ لديه موعد لاســتلام صــحيفة أخرى، على أن يعود في وقت لاحق. اتصـــل رئيس التحرير بتليفون ابوبكر النقّال عدة مرات، كان تليفونه مغلقا طوال الوقت .

أخيرا وصـل أبو بكر إلى الصـحيفة لوحده، وكان يبدو في حال سـيئة، ملابسـه ممزقة، وقد صـودر تليفونه المحمول، شـرب كوبا من الماء وشـرح ما حدث: بعد تحميل أعداد الصـحيفة في سـيارة النقل، انطلقت السـيارة في طريقها لمبنى الصـحيفة، لم تمض ســوى دقائق قليلة، قبل أن تتوقف عدة عربات أغلقت الطريق أمام سـيارة النقل، نزل عدة رجال مسـلّحون، واضـح من ملابســـهم وطريقــة تعـاملهم أنـهم يتبعون لجهـاز الأمن والمخابرات، أنزلوني أنا والسـائق من السـيارة وانـهالوا علينا ضربا، وقاد أحدهم السيارة وتركونا على أرض الشارع.

دعا رئيس التحرير لاجتماع عاجل لطاقم المُحررين، بدأ رئيس التحرير الاجتماع بقوله: كنا نتوقع أنهم لن يتركونا في حالنا، لكن لم نتوقع هجوما بهذه الســرعة، نحن حتى لم نفتح أيا من

الملفات التي تزعجهم! لكن واضح أنهم يعرفون ميزانيتنا المحدودة، وأننا لن نحصل على أية إعلانات مهمة، وبالتالي يحاولون ضرب ميزانيتنا القليلة من البداية.

تحدث عثمان عوض مدير التحرير: أرى أن الضربة التي لن تكسرنا ستقوينا، فلنقم برفع العدد صفر على الإنترنت، ونضع خبر مصادرته على مواقع التواصل، ونرسل الخبر لوكالات الأنباء، ثمة جانب إيجابي، القارئ حين يعلم بمصادرة الصحيفة لحظة ميلادها سيتأكد إن كان لديه شك أنها صحيفة مستقلة منحازة لهمومه، وبالتالي سيبحث عنها في اليوم

التالي وهذا هو المهم في تقديري، إن لم يكن لدينا إمكانية لعمل حملة إعلانية لصحيفتنا الجديدة، فهذه فرصة إعلان مجاني لا يجب أن نضيعها.

ابتسم رئيس التحرير بحزن: لن يكون الاعلان مجانا تماما، لا تنس العدد المصادر!

أضافت هاجر التي جاءت متأخرة قليلا فور وصولها من البيت: أثني على كلام عثمان، وان وافقتم سوف أبدأ فورا في رفع العدد إلى الموقع، ويمكنني أيضا وضع معظم المواد على صفحتنا في الفيسبوك، ويمكن لمحرر آخر أن يتولى الاتصال ببعض وكالات الأنباء ومراسلي الصحف العالمية.

تم الاتفـاق في نـهـايـة الاجتمـاع، ســـتقوم هـاجر برفع العـدد المصـادر في الموقع ووضع المواد وخبر المصادرة في صفحة الفيســبوك، وســيقوم عادل الشــفيع محرر الشــئون الخارجية بالاتصـــال بوكالات الأنباء ومراســـلي الصـــحف لتعميم خبر مصادرة العدد صفر.

00

قبل بدء جلســـة مجلس الوزراء كان يشـــعر أن ثمة عاصـــفة تتجمع في الأفق، يختنق الوزراء في البدلات الأنيقة الكاملة ماركة جوشـــي وكريســـتيان ديور، يعرف أنّ أكثرهم فقرا يملك عدة قصـور في الداخل والخارج وتغصّ أرصـدتهم البنكية بكل العملات الأجنبية التي بســـببها: تم إعدام عدد من أبناء وطننا الأبرياء، بتهمة الاتجار في العملة الصـــعبة، كما كانت تقول إحدى رسائل خلية الجنرال عوف (أسكنه الله فسيح جناته) تلك الخلية التي عرف من الناجي الوحيد فيها، أنها كانت تتكون من أكثر من ثمانين ضابطا وجنديا من خيرة أبناء جيشنا، أكثر من نصفهم أعدموا رميا بالرصاص بعد محاكمات لم تستغرق ســوى ثلاث دقائق، كان هو الوقت الذي قرأ فيه القاضـــي حكم المحكمة .

لا اســتجواب ولا شــهود ولا حتى لائحة اتهام، كان القاضـــي لا يزال في مكانه حين بدأ رصـــــاص فرقة الإعدام يلعلع في الخارج، فرقة إعدام مكونة من عدد من المتطرفين الإسلاميين،

الذين تدربوا في معسكرات الجهاديين التي رعتها حكومة الإخوان المسلمين! حكومة فخامتكم سيدي الرئيس! ضباط في الجيش يقتلهم متطرفون إسلاميون أمام نظر وسمع جيشنا! هل تصدق ذلك سيدي الرئيس؟ المتطرفون الذين يفترض أنّ جيشنا يحاربهم ويسلمهم إلى دولهم، يقومون بإعدام أفضل ضباط جيشنا! والبقية قضوا من التعذيب في المعتقلات، حرقوا جلودهم بالكهرباء وبتروا أصابعهم وأجبروهم على ابتلاعها.

أما المدنيون الذين اتهموا بالتورط في المحاولة، فقد تم ترحيلهم إلى سجن شالا، تعرضوا للاغتصاب والتعذيب لمعرفة الجهات التي دفعتهم لمحاولة الانقلاب، قبل أن يربطوا بالحبال ويستخدموا لتنظيف مناطق العمليات من الألغام الأرضية! رغم أنّ خلية الجنرال عوف لم يكن فيها ولا مدني واحد!

ولماذا اتهموهم بالمشاركة في الانقلاب؟

تصفية حسابات، قوائم أعدائهم من مختلف التنظيمات المعارضة والناشطين، حتى الناشطين ضد النظام في مواقع الإنترنت جاهزة، ما أن يعثروا على شبهة محاولة انقلابية ضدهم، حتى يقومون بإضافة القوائم إلى المتهمين بتدبير الانقلاب! لا يرهقون أنفسهم ولا حتى بتلفيق أدلة! حتى لو اضطروا لتقديم بعضهم للمحاكمة ذرا للرماد في عيون منظمات حقوق الإنسان، فالقضاة إسلاميون مثلهم، يحكمون عليهم بفترات سجن قصيرة، يصدرون عفوا عنهم بعد أشهر، قبل أن

يصـــطادهم قناصـــة كتائبهم الســـرية واحدا وراء الآخر! هل تصدق سيدي الرئيس جهاز أمنك يستخدم قتلة محترفين بعقود خاصة !

وكيف نجوت أنت من كتائب الإعدام ؟

كنت خارج البيت أتابع مباراة في كرة القدم اتصـــل بي أحد جيراننا، وأبلغني أن رجال الأمن يحاصـــرون بيتنا، ونصـــحني بعدم العودة إلى البيت، هربت بمســـاعدة بعض البدو شـــمالا وبقيت مختبئا في قرية قريبة من مدينة دنقلا عدة أيام، حتى تمكن أحدهم أن يســـتخرج لي جواز ســـفر باســـم مختلف، استخدمته للسفر إلى ليبيا عن طريق البص من دنقلا، كان ذلك قرارا ســـيئا فقد عرفت من جارنا الذي بقيت على اتصـــال به لأطمئن على أهلي، أنهم قاموا باقتياد أخي الأصـــغر، للضـــغط عليّ حتى أقوم بتســـليم نفســـي، وللأســـف لا يزال أخي مفقودا حتى اليوم!

وكيف عدت إلى الوطن؟

عدت بعد العفو الذي أعقب اتفاقية نيفاشـــا، هل نســـيت ســـيدي الرئيس؟ أذهب كل أســـبوع إلى مكتب حقوق الإنســـان التابع للأمم المتحدة ليتأكدوا أنني لا زلت حرا وعلي قيد الحياة، ورغم ذلك أشـــعر بهم يراقبونني طوال النهار والليل، أعيش تحت حماية منظمات حقوق الإنسان، لكن من يضمن استمرار ذلك؟ يحاولون الآن تحسين علاقاتهم مع المجتمع الدولي على

أمل اســـتئناف علاقاتهم مع المؤســـســـات المالية الدولية والحصـــول على بعض القروض، لكن إن يئســـوا من رحمة المجتمع الدولي وقروضـــه ســـنكون نحن أول الضـــحايا! ومنذ حضوري قبل أكثر من عامين وانا ابحث عن أخي دون جدوى، ألا يمكنك مساعدتي سيدي الرئيس؟

قال السـيد الرئيس: طبعا لأجل خاطر الجنرال عوف سـأبذل كل ما بوســـعي، المشـــكلة انني اتلقى يوميا طلبات اســـترحام لا تحصـــى للبحث عن مفقودين اختطفتهم الأجهزة الأمنية! وحين نجري اتصـــالات بجهاز الأمن، يكون الجواب لم نعثر عليه في أي من معتقلاتنا! ويقومون بتحويلنا الى جهاز الأمن الشـــعبي، والأمن الشـــعبي يحوّلنا الى جهاز الأمن الاقتصـــادي والأمن الاقتصادي يحولنا الى شعبة القبائل! وشعبة القبائل تحوّلنا الى الأمن الالكتروني! حتى الأمن الالكتروني لـــديهم معتقلات! لكنني سأهتم بمشكلة شقيقك بنفسي.

قاطعتهم زوجته: هناك سيدة مُسنة في الخارج، لها صلة قرابة بأحد جنود حراســـتي، تريد رؤيتك، تقول إن ابنها اختفى منذ سنوات، وتريدك أن تتدخل لإطلاق سراحه!

أخبريها أن تذهب إلى حزب المؤتمر الوطني، سأضع لافتة في باب بيتي، لا أعرف شـــيئا عن أية مفقود، لديك مفقود؟ فضـــلا اذهب إلى حزب المؤتمر الوطني !

أخبرها بنفسك، لدي موعد مع عدد من رجال الأعمال!

قال السـيد الرئيس: نصـف سـكان هذا الوطن هاجروا إلى كل أصقاع الدنيا والنصف الآخر مفقود!

وجه الكلام إلى زوجته: لا أستطيع مقابلة هذه العجوز يجب أن اخرج بعد قليل، سأخاطب الاحتفال بعيد الجيش!

قالت زوجته ضاحكة: وهل لا يزال هنالك جيش؟

تطوّعت السـيدة الأولى وهي في طريقها مع سـائقها إلى الخارج، سأخبر السيدة العجوز أنك غير موجود!

00

كان قد مرّ أكثر من عامين على سـعيد عبدالهادي وهو معتقل في زنازين جهاز الأمن والمخابرات. تغيرت وجوه من حوله وبقيت وجوه، كان يبدو في لحظات كثيرة وكأنه قد فقد الإحساس بمن حوله، يجلس صامتا طوال النهار، يزداد توغلا داخل نفسه كلما تطاولت فترة الحبس، كأنه يمارس إطلاقا لسراح روحه في فضاء داخلي بدون حدود في مقابل حبس جسده.

يفتح نوافذ الروح على فضاء الذاكرة، يرى نفسه جالسا بجانب شقيقه كمال الذي يصغره بخمسة أعوام، يراقبان قطيع والده الصغير من الخراف والماعز وهي ترعى بقايا مزارع الذرة والفول السوداني بعد موسم الحصاد، يرتدي أسمالا معطونة بالتراب والعرق، وينتعل حذاء بلاستيكيا أخضرا ممزقا، ينتبه إلى أنه رأى نفس الصورة قبل سنوات لكن ألوانها كانت مختلفة، حتى حذائه الممزق الأخضر كان لونه أشبه بلون التراب، حتى أعداد خراف وماعز والده القليلة بدت كأنها

تضـــاعفت في ذاكرته، حتى ارتفع صـــخبها من حوله وغرقت صورته في تفاصيل معجزة تكاثرها الزائف.

طوال عدة شـــهر لم يتعرض مرة أخرى للاســتجواب الذي كان يوميا في الفترة الأولى. كان يتوقع في أية لحظة أن يستدعونه ويقولون له: عثرنا على المكتبة التي قمت بتصوير المستندات فيها! لكنه شـــعر بمرور الزمن أنهم لم يعثروا على أية خيط لإدانته، ســـمع من بعض المعتقلين أنه نتيجة لضـــغوط بعض منظمات حقوق الإنســـان ســـيتم قريبا إطلاق ســـراح عدد من المعتقلين، وسيتم نقل البقية إلى سجون نائية.

كانت ملابســـه قد تحولت إلى أســـمال وكان بنطلون الجينز قد التصق بجسمه تقريبا بسبب تراكم العرق والغبار، بعد أيام جاء أحد رجال الأمن ونادى على عدد من الموجودين من قائمة قرأها عليهم، وطلب منهم الاستعداد للخروج، تسلموا أشيائهم القليلة وحملتهم ســيارة نقل فجرا إلى أحد مراكز الشــرطة في وسط المدينة حيث أُخلي سبيلهم.

شعر سعيد أنه عاجز في اللحظة الأولى عن التعرف إلى العالم خارج أســـوار المعتقل، بدت له خطوات الناس في الخارج، غريبة، مرتبكة، تضرب في الأرض دون هدف، وشعر بصدمة خفية، كأنه يستبدل المعتقل الصغير، بآخر يسجن فيه الناس داخل ذواتهم، الكل يسير مثل من يسير داخل محيط جسده، لا

يجرؤ على الاقتراب من بوابة الجســـد، حيث العالم الغارق في سبات أزمنة مختلفة.

اكتشف حين نظر في المرآة لأول مرة منذ أكثر من عامين، أنه لم يفقد جزءا من وزنه فقط، بل فقد حيوية شـبابه القديم، رأى عدة شـعرات بيضـاء غزت شـعر رأسـه الغزير، شـاعرا كأنّ وجهه تراجع من مكانه القديم إلى الخلف قليلا.

كان صديقه المعتقل قد نصحه بالتزام الحيطة عند الإفراج عنه، لأنهم في الغالب ســيبقونه تحت المراقبة لفترة من الزمن، ليتأكدوا أنّ صـور المسـتندات ليسـت في حوزته، أوضـح له: الموضوع بالنسبة لهم يشكل هاجسا خطيرا، أنك محظوظ، كل من ورد اســمه أو عرف حتى تفاصــيل غير مهمة عن هذه القضية حتى لو بالصدفة تخلصوا منه، وضحك صديقه وقال له لو اســتطعت الهجرة ربما تصــبح تلك المســتندات ثروة في الخارج! ســتصــلح كتابا يوثّق لرعاية النظام للتنظيمات المتطرفة وكل المحاولات الإرهابية التي قام بتدبيرها.

لم يحاول سعيد أن يتأكد من وجود صورة المستندات، استأنف حياته العادية، لحسن الحظ أن صاحب الورشة التي عمل بها قبل اعتقاله لم يطرده من العمل، أبدى تفهما لظروف غيابه الطويل وســمح له بالعودة فورا للعمل، ووعده أن يدفع له كل مستحقاته عن الفترة التي قضاها في المعتقل، وجد سعيد ذلك

عملا كريما سـيعطيه دفعة قوية حين يحين الوقت لتنفيذ فكرته للسفر التي اصبحت هاجسا ملحا له منذ خروجه من المعتقل.

كان صـاحب الورشـة نفسـه أحد ضـحايا النظام لذلك تفهم كل ظروف سعيد، قبل سنوات ألقت قوات الجيش القبض على ابنه الذي كان قد بدأ للتو العمل معه في الورشة بعد إكمال دراسته، اقتادوه الى معسكر للخدمة الالزامية في منطقة العيلفون، وبعد أشـهر مات الابن حين حاول عدد من المجندين في المعسـكر عبور نهر النيل الذي كان المعسـكر يقع عليه لقضـاء العيد مع ذويهم، قـامت قوات الجيش بفتح النـار عليهم فمـات الكثيرون غرقا وبرصاص الجيش.

كان صـاحب الورشـة يحقد على النظام لكنه كان يلتزم الصـمت دائما، ربما خوفا أن يوجه له النظام ضـربة إنتقامية اخرى في ابنه الوحيد الذي كان صغيرا حين اغتيل شقيقه.

زار سـعيد زوجة المقدم عبدالله وأولاده، حكت لـه إنـها ذهبت للاعتصـام عدة مرات أمام جهاز الأمن وانـها تعرضـت هي وأطفالـها للطرد والمضـايقات عدة مرات، كما اعتصـمت عدة مرّات أمـام مكتب الامم المتحدة، دون أن يظهر أيـة أثر للنقيب عبدالله، أوضـح لـها سـعيد انـه لم يره ايضـا طوال فترة اعتقاله، لكنه سمع في معتقله أنّ هناك أعدادا اخرى كبيرة من المعتقلين السياسيين، قام جهاز الأمن بتوزيعهم في مراكز اعتقال سرية كما قاموا بترحيل البعض الى سجون في مناطق نائية في شرق

وغرب البلاد، قالت لسعيد: ألم يترك عبدالله نسخة اخرى من المستندات معك؟

اوضح سعيد انهم صادروا المستندات حين القوا القبض عليه قبل اكثر من عامين، ثم سألها ماذا ستفعل ان عثرت على المستندات؟

قالت أعتقد أن المستندات ومحاضر لجنة التحقيق هي سبب اختفاء زوجها، وربما ان تسنى لها الحصول على صورة منها يمكنها مقايضة ذلك بزوجها، او على الاقل تعرف معلومات عنه.

سعيد قال لها ان ذلك امر خطير وانهم قد يسببون لها مشاكل كثيرة لمجرد الشك انها تعرف شيئا، وحكى لها انه تعرّض للسجن والتعذيب طوال تلك الفترة لمجرد الشك انه يحتفظ بصورة من تلك المستندات، فما بالك ان علموا بوجود تلك الصور مع شخص ما، وحتى يبعث فيها بعض الطمأنينة قال لها إنّ أحد زبائنه في ورشة صيانة السيارات ضابط شرطة، سيطلب منه المساعدة في تحديد مكان ومصير النقيب عبدالله، أوضح أنّ ضابط الشرطة بحكم عمله يستطيع الحصول على معلومات من جهات كثيرة.

كان سعيد يجلس مع والدها المسن في صالة البيت حين جاء الطفلان من المدرسة، كانا قد كبرا عن آخر مرة رآهما فيها قبل سنوات، صار عثمان شابا صغيرا على وشك دخول

المدرسة الثانوية، حين صافحه سعيد داعبه قائلا: مرحبا يا عم عثمان! قال عثمان أنت أكبر مني كيف أكون عمك؟ ابتسم سعيد رغم كل مظاهر الحزن في البيت وقال: والدك أسماك باسم جدك، وجدك عثمان هو شقيق والدي، فأنت إذن عمي.

هشام كان في الصف الأول في المدرسة الأساسية، حين دخل الطفلان إلى المنزل ليبدلا ملابس المدرسة، حكت له صفية أنّ الطفل الأصغر لم يعد يذكر والده كثيرا، لكن عثمان كان دائم السؤال عن والده، وكان يفهم أنّ والده اختفى بسبب ظروف لها علاقة بالحكومة، فقد شارك مع والدته وشقيقه في الاعتصام عدة مرات أمام جهاز الأمن، وشاهد رجال الأمن يعتدون بالضرب على والدته وعلي نساء مُسنات جئن أيضا يبحثن عن أولادهن المفقودين.

وعدها سعيد ببذل كل ما في جهده، في الخارج خطرت له فكرة لمحاولة إنقاذ ابن عمه النقيب عبد الله أو على الأقل محاولة استجلاء مصيره، فكرة لو كان يعلم بالكوارث التي ستجرها إليه، لما أقدم حتى على مجرد التفكير فيها.

00

بعد أيام قليلة من بدء صـــدور الصـــحيفة، جاء عاصـــم الحاج رئيس تحرير صحيفة الزمان لزيارة صحيفتهم، اعتقدت هاجر أنـه جاء بغرض التهنئـة لأنّ مؤســـس الصـــحيفة وعدد من محرريها كانوا من زملائـه، لاحظت هاجر أنـه بعد أن تحادث قليلا مع رئيس التحرير جـاء ليقف بجـانبهـا، لم يجلس على المقعد المخصـــص للزائر بجانب مكتبها، بل وقف بجانبها، انحنى قليلا ودون أن يلاحظ أي من زملائها شـــيئا، وضـــع مظروفا صـــغيرا أخرجه من جيبه بســـرعة، داخل درج مكتبها المفتوح وقـال هـامســـا، حـافظي عليـه جيـدا فيـه كنز من المعلومات!

عـاد ليجلس قليلا مع رئيس التحرير ثم اســـتـأذن خـارجـا، تحســـســـت هاجر المظروف دون أن تخرجه من الدرج ووجدت فيه ذاكرة فلاش فاســـتطاعت أن تخمّن ما تحويه الذاكرة، كان أول ما فكرت فيه أن تقوم بعمل نسـخة احتياطية منها حتى قبل أن تعرف ما تحتويه، بحثت مع زملائها عن ذاكرة فلاش غير مستخدمة، بزعم أنها تريد حفظ بعض ملفاتها الخاصة به قبل

تنظيف جهاز الكمبيوتر، قامت بنســـخ البيانات كاملة ثم أخفت ذاكرة الفلاش الأصـــليـة في بعض الأوراق في درج مكتبهـا وحملت النســـخة الاحتياطية في نهاية اليوم ووضـــعتها في مظروف مع بعض الأوراق ثم قامت بزيارة صـــديقة تعمل في أحد البنوك التجارية، طلبت منها أن تقوم بحفظ المظروف مع أوراقها الخاصـــة، شـــعرت الصـــديقة أن المظروف يحتوي مستندات مهمة فاقترحت أن تقوم بحفظه في خزانة مكتبها في البنك، ترددت هاجر قليلا وقالت: ربما أفضـــل في البيت، حكت لها الصـــديقة أن بيتهم يتعرض للســـرقة أحيانا، وأنّ خزانة مكتبها في البنك محمية جدا ويســـتحيل الوصـــول إليها، قرّرت هاجر أن تقوم في اليوم التالي بعمل نســـخة احتياطية ثانية تحفظها أيضا في مكان آمن.

في اليوم التالي كانت هاجر منهمكة في عملها، كانت تود الفراغ من المواد التي تعمل عليها لعدد اليوم التالي، قبل أن تقوم بفحص ذاكرة الفلاش وعمل نسخة احتياطية إضافية حين فاجأها رئيس التحرير بالخبر الصـــاعق: توفي عاصـــم الحاج رئيس تحرير الزمان! شعرت هاجر بالصدمة: كيف حدث ذلك؟ كان بصحة جيدة حين زارنا بالأمس!

صـــدمته ســـيارة مســـرعة وهو يهم بعبور الشـــارع إلى مبنى الصحيفة!

بقيت هاجر عدة أيام تحت تأثير الصدمة، قامت بزيارة أسرته مع أسرة صحيفتها، كانت تشعر بعلاقة غامضة بين مقتل الرجل وذاكرة الفلاش التي أحضرها لها، لابد أنه كان يشعر بأنهم يدبّرون شيئا ضده لذلك قام بتسليمها ذاكرة الفلاش، تذكرت كيف كان حذرا جدا وهو يسلّمها الفلاش حتى لا يلاحظ أي من زملائها ذلك.

عرفت من أحد زملائها أنّ صحيفة الزمان تعرّضت في اليوم التالي لوفاة رئيس التحرير، إلى هجوم ليلي لرجال مجهولون قاموا بتفتيش المكان تفتيشا دقيقا واستولوا على كميات كبيرة من المستندات وكل فلاشات الذاكرة والأقراص الصلبة المتحركة التي عثروا عليها، بل أنهم حملوا معهم كل أجهزة الكمبيوتر التي عثروا عليها في مبنى الصحيفة.

عرفت هاجر من محمد نور الدين، أنّ مدير التحرير في صحيفة الزمان تولى عمل بلاغ لدى الشرطة التي أخبرته أنهم يعتقدون أنّ جهة سيادية، هي التي قامت بمصادرة الأجهزة وأنهم سيعيدونها فور فحصها لأنّ لديهم شكوك بوجود معلومات تمس الأمن الوطني في تلك الأجهزة!

قالت هاجر: إذن هم يعترفون أنهم هم من قتلوه!

لم يقل رئيس التحرير شيئا، لكن بريق عينيه الحائر كان كأنه يقول: ذلك أمر بديهي، من سيصدق أنّ حادث حركة يودي

بحياة الرجل، وفي اليوم الثاني تُهاجم صـــحيفته وتُصـــادر كل مستنداتها وأجهزتها.

في مساء اليوم نفسه، فوجئ محمد نور الدين بزيارة هاجر في بيته دون حتى أن تتصـــل تليفونيا، وتتأكد إن كان موجودا في البيت، فقد كان على وشـك الخروج مع أسـرته لزيارة والديه، اعتذرت هاجر وقالت هامسة: لم أشأ أن أتصل قبل حضوري، فحسب معلوماتي التليفونات مراقبة وربما توجد أجهزة تنصت في صحيفتنا نفسها.

مدت يدها بفلاش الذاكرة وقالت: لهذا الســـبب قُتل عاصـــم الحاج، أوضـحت: أحضـره الرجل قبل وفاته ووضـعه دون أن يلاحظ أحد في درج مكتبي ونبهني لأهميته، يبدو أنه كان يشعر أنّ جهة ما تطارده وربما توقع أن يتخلصـــوا منه، لم أحاول فتحه لأنني لا أملك كمبيوتر شـخصـي، وكمبيوتر الصـحيفة لا توجد به برامج تمنع ســـرقة مافيه من ملفات، كما أنني أتوقع أنهم يملكون حسب ما سمعت، برامج يستطيعون عن طريقها معرفة الملفات التي فتحت على أية جهاز، حتى لو لم تكن تلك الملفات محفوظة في الجهاز .

فكّر رئيس التحرير قليلا وهو يزن ذاكرة الفلاش الصـــغيرة في يده وكأنه يزن قيمة ما تحويه من معلومات وبالتالي من مخاطر، ثم قال: لحظة، عندي جهاز كمبيوتر شـخصـي، أهداه لي أخي المهاجر قبل فترة ولم استخدمه بعد، يمكننا استخدامه

لفحص الفلاش، وحفظ نسخة من المستندات فيه، لكن يجب أن أحاول حفظه في مكان آمن بعيدا عن البيت، جلست هاجر في صالة البيت في الانتظار ، كان أطفال محمد نورالدين الثلاثة في كامل ملابسهم تبدو عليهم العجلة للخروج، أحضرت زوجته الشاي، وجلست قليلا بجانبهم قبل أن تعود لتكمل استعدادها للخروج .

أوصل رئيس التحرير جهاز اللابتوب بالكهرباء، لأن البطارية كانت فارغة، كانت المرة الثانية التي يستخدم فيها الجهاز، قام فقط قبل أشهر بتجربته ثم حفظه في خزانة الملابس.

بعد تشغيل الجهاز قام بتثبيت ذاكرة الفلاش عليه، كان هناك ملف واحد يحوي مجموعة من الصور، كل صورة محفوظة برقم متسلسل حتى الرقم 30، بدأ بالنقر على الصور بدءا من الصورة رقم 1، كانت الصورة لقرار من الجمارك يفيد بوصول شحنة كبيرة من المواد الغذائية، قامت باستيرادها إحدى المنظمات التابعة لأحد رموز التنظيم الحاكم، يفيد خطاب الجمارك أنّ الشحنة تم فحصها وصدر قرار بإتلافها بسبب انتهاء صلاحيتها منذ عدة شهور، الصورة الثانية خطاب يشير إلى تخليص شحنة غذائية من الجمارك، والشحنة تحمل نفس رقم الشحنة الأولى التي يفترض أنها أُتلفت بسبب انتهاء صلاحيتها. ومستندات أخرى حول بيع مؤسسات حكومية خاسرة إلى أعضاء في التنظيم الحاكم، ومعلومات حول شركات

تتبع لنافذين في التنظيم الحاكم تعمل مجرد واجهات لعمليات غسيل أموال، وكشف حسابات بنوك سرية في الخارج وأرقام ومعلومات حسابات بنوك في ماليزيا.

أغلق رئيس التحرير الملف قبل أن يكمل مطالعة كل صور المستندات، قال بصوت خائف مرتبك: تسرّب معلومة واحدة من هذه الذاكرة مخاطرة كبيرة!

قالت هاجر: هذا كنز وقع بين أيدينا، يجب أن نقوم بعمل ما، لا نستطيع بعد الان أن نقول إننا لم نر شيئا، أعطانا الرجل أمانة! ودفع حياته ثمنا!

كان محمد نور الدين غارقا في التفكير، تحدث هامسا، جريدتنا لا تزال تحبو، استنفذنا تقريبا كل ما نملك وبدأت الميزانية في التراجع بسرعة، ونسعى للاستمرار لأطول فترة، وهم يتربصون بنا منذ أول لحظة، سيغلقونها وسيطاردوننا، يجب أن نفكر بحذر شديد كيف نتعامل مع هذه المستندات، لا داعي للعجلة، سأقوم الآن بنسخها على الجهاز وحفظ الجهاز بعيدا ونحتفظ بذاكرة الفلاش في مكان آخر، يمكننا أن نحتفظ به في الصحيفة في مكان لا يخطر على بال أحد، حتى نجده بسهولة حين نتفق على طريقة التعامل مع هذه المعلومات وكيفية توصيل ولو جزء من الحقائق الموجودة فيها للقارئ، بالطبع ستكون هناك احتياطات في التعامل مع ذاكرة الفلاش لتأمينها، وعلى كل حال لا خوف من الاحتفاظ بها في الصحيفة أولا لأن

أحدا لن يتصــور أننا نحتفظ بمســتندات بمثل هذه الخطورة في الصحيفة، وثانيا لدينا نسخة احتياطية في كل الأحوال.

00

سـعيد بعد أن شـعر أنّ الأحوال هدأت من حوله قام بإخراج المسـتندات بعد أن اتفق مع صـديق لديه خبرة في التعامل مع أجهزة الكمبيوتر، لمسـاعدته في عمل نسـخة من المسـتندات وحفظها في ذاكرة فلاش حتى يسـهل عليه حملها، قام صـديقه باسـتخدام الماسـح الضـوئي لنسـخ صـور دقيقة للمسـتندات وحفظها في جهاز الكمبيوتر، استغرق ذلك عدة ساعات بسبب العدد الكبير لكل محاضـر اجتماعات لجنة التحقيق إضـافة للمستندات المرفقة. كان سعيد قد أحضر معه ذاكرة فلاش، لكن الصـديق وجد أن حجمها صـغير لا تتسـع لتخزين كل صـور المسـتندات، قرّر سـعيد أن يذهب لإحضـار ذاكرة بحجم أكبر، لكنه تردد قليلا بعد أن اسـتعد للخروج، قال: أخشـى أن يشـعر أحدهم أنني أبحث عن ذاكرة فلاش سـعيدويعتقدون أنني أنوي تخزين معلومات فيها! لم ألاحظ أية تحركات مريبة لكن ربما لا أزال تحت المراقبة!

فكّر صـــديقه وطلب من ســـعيد أن ينتظر قليلا ربما يســـتطيع العثور على واحدة، عاد بعد قليل بذاكرة فلاش كبيرة الحجم، قام بمســـح بعض الملفات القديمة التي كان يحتفظ بها في الذاكرة، قبل أن يشـــرح لســـعيد فكرته لتأمين المعلومات: سأحتفظ لك بنسخة المستندات في جهازي لبعض الوقت، رغم أنني أخشى أن تتسبب لي في مشاكل، لكن باعتبار أنني بعيد عن الشبهات لا أتوقع اية مشكلة، وفي كل الأحوال أرجو أن تبلغني حين تشـــعر أنك لا تحتاج لنســـخة احتياطية حتى أقوم بمســـح الملفات من جهاز الكمبيوتر، أو يمكنني أيضـــا أن أقوم بنســـخها في ذاكرة فلاش وحفظها وإتلاف ملفات الكمبيوتر، وافقه سعيد على ذلك وشكره على مساعدته القيمة.

بعد ذلك قام بإعادة المســـتندات إلى نفس مكانها القديم، حتى لا يلفت الانتباه قام سعيد بمواصلة العمل كالعادة، أعطاه صاحب الورشـــة كل مستحقاته خلال فترة اعتقاله ومعها مبلغ إضـــافي واعتذر له بسبب ركود السوق في الفترة الأخيرة، وأنّ الأعمال ليست مزدهرة كما في السابق، كان يجني أرباحا جيدة من بيع قطع الغيار لزبائنه بجانب صـــيانة العربات، لكن بســـبب تدهور الأحوال الاقتصـــادية لمعظم النـــاس، أصـــبح معظم الزبـــائن يفضـــلون شـــراء قطع غيار مســـتعملة بســـبب رخص ثمنها، اشـــترى منه صـــاحب الورشـــة أيضـــا عربته القديمة، التي لم يســـتطع ســـعيد عرضـــها في الســـوق حتى لا يشـــعر أحدهم بأنه

يبيع ممتلكاته، حتى أنّ السيارة ستظل مسجلة باسم سعيد حتى بعد سفره.

كانت خطة سعيد أن يعبر الحدود الغربية إلى ليبيا، ثم يحاول الوصول إلى أحد القوارب التي تقوم بنقل المهاجرين إلى أوربا.

حتى لا يلفت الأنظار إلى سفره إن كانت هناك بعض الجهات لا تزال تراقبه، قرّر سعيد أن يسافر أثناء عطلة عيد الأضحى، فلن يلاحظ أحد على الأقل خلال أيام العيد أنّ هناك شيء غير طبيعي، فقد كان معتادا منذ سنوات على قضاء عطلة عيد الأضحى مع أسرته في مدينة النهود، استقلّ البص إلى مدينة النهود، قضى هناك ثلاثة أيام ، أخبر أسرته أنه لن يبق معهم أسبوعين أو أكثر كالمعتاد، سيسافر ليتسلم عملا جديدا. شعرت والدته بخيبة أمل، كانت تتوقع منه أن يكمل زواجه على ابنة خالته كما وعد في آخر رسائله، وافق إرضاء لأمه على أن يقوم بعمل احتفال صغير لإعلان خطوبته، وعد والدته: خلال عامين على الأكثر سنتزوج.

ورغم أن الأسرة كانت حريصة على احتفال صغير احتراما لمشاعر أسرة العم عثمان والد النقيب عبد الله، لكن كمال شقيقه الأصغر وبعض أصدقاء وزملاء طفولة سعيد، فاجئوه بإحضار فرقة موسيقية مع مغن شاب، فتحولت المناسبة الصغيرة إلى حفل امتد لساعات الصباح، حذّرهم والد سعيد من

مشـكلة محتملة مع الشـرطة بسـبب قانون يُحدد موعد انتهاء الحفلات قبل منتصـــف الليل، لكن زملاء ســـعيد طمأنوه أنّ الشرطة تغض الطرف غالبا عن الحفلات في فترة الأعياد.

بدت ســـيدة خطيبته في غاية الجمال في ثوبها الأحمر، ذهب سـعيد في يوم العيد للسـلام على عمه عثمان، والد النقيب عبد الله، اكتشـف أن الأسـرة عرفت فقط قبل أسـابيع بخبر اختفاء ابنهم، حاول سعيد أن يخفّف من قلقهم على عبد الله، كانت الام جزعة جدا واسـتغرقت في البكاء حين رأت سـعيد أمامها، العم عثمان كان متماسكا رغم الحزن البادي في وجهه، أوضح لهم سـعيد أنه تحدث مع ضـابط في الشـرطة تربطه به صـداقة، وقد وعد أن يسـعى بطرقه الخاصـة لمعرفة المكان الذي يحتجز فيه النقيب عبد الله، ويحاول مقابلته ويرى أن كانت هناك إمكانية لتقوم أسرته بزيارته.

لم يكن هناك حديث للناس أيام العيد وحتى أثناء حفل الخطوبة سـوى الأحوال الاقتصـادية السـيئة والفشـل والفسـاد الحكومي، كان البعض يتحدثون بحسرة حول عدد من المشـاريع الزراعية التي بيعت للأجانب، المدرســـون الذين لم يتســـلموا مرتباتهم طوال أشـهر عديدة حتى اضـطر بعضـهم لركوب درب الهجرة الصـعب إلى أوربا عبر ليبيا، خفق قلب سـعيد وهو يسـتمع إلى عدد من المآســـي التي تحدث كل يوم بســـبب إقدام الشـــباب اليائس، على الهجرة، عدد كبير يموتون أثناء عبور الصـحراء

القـاحلـة، ويتعرض الكثيرون لابتزاز من قوات الحـدود التي يقولون إن بعض الدول الأوربية تدفع لهم، لمكافحة سـيول الهجرة غير الشرعية التي تيمم كلها من كل بلدان القارة شطر ليبيا، التي تسـودها حالة من الفوضـى بعد سـقوط نظام معمر القذافي، كما يقع الكثيرون في براثن عصابات تتاجر بالأعضاء البشـرية أو تسـتغل المهاجرين، وسـمع عن مهاجرين بيعوا كرقيق لبعض ملّاك المصـانع أو المشـاريع الزراعية في ليبيا، ومن كان حظه أفضـل اسـتطاع الوصـول إلى البحر وركوب مراكب متهالكة ينتهي أكثر من نصـفها بكل ما تحمل في قاع البحر.

باح سـعيد بالسـر فقط لكمال شـقيقه ولسـيدة، حين ذهب لوداعها، قال بحذر، المسـتقبل في هذا البلد بات مجهولا ربما أحاول السفر بحثا عن فرصة خارج الوطن!

قالت سيدة: هل ستحاول السفر إلى السعودية؟

قال سعيد: كلا، أريد أن أجرّب حظي في الهجرة لأوروبا

تغير وجه سـيدة، وقالت: لا تفعل، سـتتحسـن الأحوال في هذه البلاد، لا تتعجل، يمكنك أن تبقى هنا وتبدأ عملا خاصـا، ورشـة صغيرة لصيانة السيارات، سمعت أنّ بعض الناس بسبب عدم وجود خدمات صـيانة جيدة هنا للعربات، يضـطرون لنقل عرباتهم إلى الخرطوم لصيانتها هناك!

لم يشأ سعيد أن يوضح لها أكثر، قال فقط إنه يأمل أن يتمكن قريبا من حسم كل أموره. أوضح لها: لن تطول الغربة، فقط ما يكفي لتتحسن الأحوال قليلا لأبدأ مشروعا خاصا.

ودّعته سيدة حتى باب البيت، رأته يضيع في عتمة الشارع الغارق في المغيب، بدا لها كأن العالم كله، السحب التي كانت تتجمع ببطء، كرنفال المغيب، الظلمة الزاحفة، كلها كانت تتجمع مثل حواجز من الذكرى، مثل سحب خريف لا يمت بصلة لهذا العالم، فقط لتحجب صورته، قبل أن تتخلل العتمة صورته، ليبق لها فقط لبرهة قصيرة نبض خطواته الزاحفة إلى المجهول، دون أن تنتبه إلى دقّات قلبها التي كانت تشير إلى نذير شؤم تلاشي تلك الصورة، قبل أن تبتلعها عتمة المغيب إلى الأبد.

كان سعيد قد قام بوضع ذاكرة الفلاش التي تحوي المستندات في قطعة بلاستيك، وربطها جيدا تحسبا لاحتمال عبوره البحر، وقام بخياطتها في قميص الجينز السميك الذي سيرتديه أثناء الرحلة.

رافقه كمال شقيقه حتى موقف الحافلات، استقل حافلة صغيرة تسع عشرة ركاب مساء إلى مدينة الفاشر، لم يتوقف كثيرا في الفاشر بل استقل سيارة أخرى إلى ملّيط، وصل مليط مع مشارف الصباح، اتصل من محطة البص بالشخص الذي ينظّم الرحلة إلى ليبيا، طلب منه الانتظار في مكانه، حضر بعد قليل

ورافقه إلى بيت في أطراف المدينة سيقضي فيه النهار مع زملائه في الرحلة التي ستنطلق ليلا، مساء جاء الخبير بمسالك الصحراء الذي سيصحبهم في الرحلة عبر الصحراء، أوضح لهم أنه كان يفضل أن تكون الرحلة بالسيارات لكن زملائه يفضلون الإبل، آخر رحلة بالسيارات قبل أشهر انتهت نهاية مأساوية حين أغارت طائرات حربية على القافلة، الدواعش ينشطون في المنطقة الحدودية ويحتجزون بعض المسافرين رهائن يساومون أسرهم لدفع فدية قبل إطلاق سراحهم، وأحيانا يقومون بقتل الأسرى الذين لا يستطيعون الوصول إلى أسرهم لطلب الفدية، السيارات يسهل رصدها واستهدافها أما الجمال فتسلك مسالك وعرة بعيدا عن العيون.

تأكد أنّ كميات الماء التي طلب إعدادها جاهزة كلها إضافة إلى الخبز المجفف والشاي والسكر والدقيق والبصل، ثم قاموا بتحميل الأشياء كلها على الجمال وربطها جيدا، أوضح لهم ضرورة الاقتصاد في شراب الماء وأنّ الكوارث التي حدثت في الصحراء لعدد من المهاجرين سببها استهلاكهم كميات الماء خلال أيام قليلة، وأنهم بحاجة لحوالي 5 أسابيع قبل الوصول إلى مصراتة على ساحل البحر، وأوضح أن الرحلة قد تستغرق وقتا أطول قليلا لأنّهم قد يضطرون في أحيان كثيرة للتوقف أثناء النهار حتى لا يلفتون أنظار قوات الحدود التي أرسلتها الحكومة لتجوب الصحاري، لمكافحة الهجرة غير الشرعية بالتنسيق مع بعض الحكومات الأوربية، لمنعهم من الوصول

إلى الحدود الليبية، تســاءل أحد رفاق الرحلة عما قد يحدث إن عثرت عليهم قوّات الحدود؟ قال الخبير: لم يحدث لي أن التقيت بهم في رحلاتي، لكنني ســمعـت أنهم يبتزون المهـاجرين ويطلبون مبالغ من المال حتى يســمحوا للقافلة أن تواصــل المسير إلى الحدود الليبية.

ثم أوضــح لهم أنّ شــخصــا آخرا ســيتولى تنظيم رحلتهم إلى أوروبا من هناك، عليهم التفاوض معه بعد الوصول، سأله أحد الشباب المسافرين: كم يوما سننتظر قبل أن نستقل القارب إلى أوروبا؟ فكّر الرجل قليلا ثم قال: سيشرح لكم منسق الرحلة في مصراتة كل شيء، ربما تنتظرون بضعة أيام، تبدأ الرحلة دائما حين يكون البحر هادئا، كما ســتجدون في الغالب أشــخاصــا آخرين في الانتظار وصــلوا أولا، ســيســافرون هم في البداية، قبل أن يأتي دوركم.

تســلّم الخبير ثلاثة ملايين جنيه من كل مســافر، كان عددهم ثمانية أشخاص، فيهم أربعة شبّان من أريتريا، وأسرة صغيرة من أثيوبيا مكونة من رجل وامرأة وطفل عمره سبعة أعوام.

00

يوم عيد الأضحى كان السيد الرئيس يتلقى التهاني من ضباط الجيش والوزراء، حين توقف فجأة وسأل الرجل الذي بادره بالتحية العسكرية ثم صافحه بحرارة: أين كنت طوال سنوات يا جنرال الأيام الصعبة! كان السيد الرئيس يطلق عليه جنرال الأيام الصعبة، لأنه لم يكن يرتدي البزة العسكرية إلا نادرا، وحين يرتديها وتلمع النجوم الأربعة الذهبية في كتفه، يعرف السيد الرئيس أن هناك مشكلة ما تهدد وجود النظام نفسه، كان آخر مرة يراه فيها مرتديا البزة العسكرية يوم انشقاق الحركة الإسلامية.

نعمل في صمت سيدي الرئيس في خدمتكم!

استبقاه السيد الرئيس بجانبه بعد أن انصرف ضباط الجيش والوزراء.

لم أرك منذ أداء القســم، ســألت عليك كثيرا، كانوا يقولون لي دائما إنك مسافر! كيف تسافر دون أن تخبرني؟

لابد أنك نســيت ســيدي الرئيس، ألا تذكر آخر اجتماع لنا قبل حوالي العام؟ لقد طلبت مني أن أقوم بإنشــاء قوة جديدة اتفقنا أن نسميها الحرس الجمهوري!

الفريق عوض سليمان مستشار السيد الرئيس للشئون الأمنية ورئيس جهاز الأمن الســابق، في المرة الأخيرة التي رآه فيها الســيد الرئيس كـان لا يزال في رتبـة اللواء، كـان البعض يضـحكون سـرا قائلين إنه أنعم على نفسـه بهذه الرتبة حين تم تعيينه بعد نجاح الانقلاب رئيسا لجهاز الأمن، كان هو المنسق العـام لجهـاز الأمن التـابع للتنظيم الإخواني، أحـد الأذرع الرئيسـية التي دبّرت الانقلاب، وكان مسـئولا أيضـا عن تهيئة الشارع للانقلاب، حين قرر السيد الرئيس إعادته لجهاز الأمن، تجاهل همس بعض مساعديه: جنرالك الذي عينته مديرا لجهاز الأمن ســيدي الرئيس لم يدخل الكليـة الحربيـة أبدا، ولا حتى لمجرد زيارة شــخص ما، لكن من يرى أرطال الأوســمة التي يحملها فوق صــدره، يعتقد أنـه هو من قام بتأســيس الكلية الحربية!

يبدو في نظاراته الطبية وجســمه الضــئيل وشــعره الأشــيب وابتســامته الوقورة، أشــبه بباحث أكاديمي، أوضــح بهدوء: ســافرت كثيرا في أنحاء الوطن ســيدي الرئيس، راجعت كل

شـــيء، وجمعت الرجال الأوفياء الذين يمكننا الاعتماد عليهم وأعددت العُدة لكل شيء!

غسل يديه ببساطة من كل جرائم تنظيمه، غسل يديه من جرائم التعذيب، من بيوت الأشـــباح التي كانت من بنات أفكاره، من الإخفاء القسري للمعارضين في عهده الأول، اعترف بهدوء : الحركة الإســلامية فشــلت في إدارة الوطن، انفصــل الجنوب بسبب من سياساتهم، والحرب لا تزال تدور في دارفور وجبال النوبة والنيل الأزرق، نصــف أراضــي الوطن بيعت لشــركات أجنبية، والمؤســســات والمشــاريع الوطنية الكبيرة بِيعت أو نُهبت، أموال الذهب والبترول تحولت إلى أرصـــدة في الخارج أو قصــور وفلل في تركيا وماليزيا، رغم ذلك لا يمكن التخلص من التنظيم كله، أصبح التنظيم الإسلامي مثل شجرة مسكيت، مدّد عروقه في كل مكان، يمتص الماء من التربة بدون رحمة ويفسدها فلا تصبح صالحة لزراعة أية شيء عليها ولا حتى أشجار العُشر! تقتلعه من مكان فيظهر في مكان آخر، إبعادهم سيكون مغامرة خطيرة، يملكون كل شـــيء، سيقاومون حتى الموت محاولة إبعادهم. يتغلغلون في كل شـــيء حتى في جهاز الأمن الذي قمت بتنظيفهم منه بعد الانشقاق! إبعادهم سيجعل مسئولية الفشل التاريخية من نصيبك لوحدك! أفضّل فقط أن نبعدهم من الواجهة، ذلك سيعطينا فرصة لتحسين علاقاتنا مع الكثير من الدول والمؤسسات المالية الدولية، سيعطينا فرصة لنلتقط أنفاســـنا ونحاول إصـــلاح التنظيم من الداخل وتجديد

دمائه، أو نعيد تنظيمه باسم وشكل جديد! مثلما ظللنا نفعل منذ تأسيس التنظيم قبل عقود، لكل مرحلة شكل واسم جديد للتنظيم!

أنت تقول إنهم يملكون كل شيء، لديهم ميليشيات تابعة للتنظيم ولديهم سلاح، كيف ستستطيع إبعادهم من الواجهة؟

قوّات السلام والتنمية سيدي الرئيس، أنشأناها من بقايا قوات الجنجويد، هل تذكرها سيدي الرئيس؟ بعد دخول قوات الأمم المتحدة إلى دارفور لم يعد لديهم عمل، عادوا للنهب والسلب، حاولنا استيعابهم في مشاريع الزراعة المطرية، دربناهم على مكافحة الكوارث لنضمهم للدفاع المدني، لم ينجحوا في ذلك، مؤهلين أكثر لصناعة الكوارث وليس مكافحتها. لا يجيدون سوى الحرب، إذا طلبت منهم تنظيف منطقة ما من التمرد، يحيلونها إلى رماد في بضع ساعات، إن طلبت منهم شق جدول في مشروع زراعي، يشقه في العادة ثلاثة مزارعين في ساعة واحدة، يستغرق منهم هذا العمل عدة أيام وفي النهاية لا يصلح الجدول لنقل الماء، يحفرونه تماما مثل خندق لا ينقصه سوى بعض الاستحكامات ليصبح جاهزا للحرب!

قمنا بتدريبهم على أحدث الأسلحة، وبسبب ضعف الجيش عهدنا لهم بمهمة محاربة التمرد الجديد الذي ظهر بعد انفصال الجنوب، كما عهدنا لهم حراسة الحدود بعد أن وقّعنا اتفاقا مع الاتحاد الأوربي لمحاربة الهجرة غير الشرعية، بسبب

الفوضى في ليبيا بعد سقوط حكم العقيد الراحل معمر القذافي، أصبحت بلادنا معبرا للهجرة غير الشرعية القادمة من أواسط وشرق القارة، الشباب في كل مكان يتجهون صوب البحر، لا توجد حياة في نظرهم إلا فيما وراء البحار، يعرفون أنّ الوصول إلى الجانب الآخر من البحر دونه الموت، لكنهم يحثون الخطى تجاهه ليلا ونهارا، ولأنّ مصائب قوم عند قوم فوائد، أبلغنا هؤلاء الأوربيين، نحن وحدنا من يستطيع إيقاف سيل الهجرة، نحن متخصصون في صد السيول، سيول الماء التي تهبط علينا في الخريف من قمم الجبال، وسيول البشر التي تهبط علينا من مجاهل القارة. ورغم أننا أيضا كنا نصدّر المهاجرين إلى ما وراء البحر، لكن الأوربيون صدّقونا ووقعوا معنا اتفاقا، ودفعوا لنا تكلفة إيقاف السيول البشرية.

تقصد أنّ قوات الحدود هذه ستقوم بحماية التغيير الأخير

نعم، ألم تر الملك أركماني قبل أيام أثناء نومك!

كيف عرفت؟ هل تتجسسون حتى على أحلامي؟

نحن لا نتجسس على فخامتك، نحن نقوم بواجبنا لحمايتك!

عرف بعد تفكير عميق أن الأمر يخلو من أية خوارق تسمح لهم بالنفاذ إلى عقله النائم، وأنّ الأمر لا يعدو استخدامهم الهمجي لمعجزات الثورة التكنولوجية، فقد تذكّر أنه يبحث دائما في قوقل عن تفسير لأحلامه.

وماذا تعني لك رؤية الملك أركاماني!

الملك أركاماني لم يستجب لأمر الكهنة بالانتحار، بدلا من أن ينتحر قام بنحرهم وتولى الحكم مدى الحياة! قبل أركاماني كانت سلطة الإله هي الأقوى!

أي إله تقصد؟

آمون!

ومن هم الذين ستقوم قوات الحدود بنحرهم؟

ابتسم الفريق عوض بمكر هادئ وقال: الكهنة!

لقد قلت إنك ستكتفي بإبعادهم من الواجهة!

يجب أن نحتجز بعض قيادات الحركة الإسلامية حتى نعيد ترتيب الأوضاع، سيكون الغطاء هو محاربة الفساد الذي استشرى في الدولة، كلهم غارقون في الفساد، تستطيع تحديد حجم الفساد من حجم اللحى، ومقدار الخشوع! الذين يبكون أثناء خطبة الجمعة، حتى تتبلل لحاهم وتتبلل الأرض تحت أقدامهم، هم من يملكون الفلل في تركيا والأرصدة في ماليزيا، هم من يهرّبون الذهب عبر المطار، ويستخدمون الحقائب الدبلوماسية لتهريب الأحجار الثمينة!

ومتى سيتم التنفيذ!

ننتظر توقيعك على أمر التحرُّك! اسم العملية سيكون أركاماني الثاني! هذه أول عملية نستلهم اسمها من أحلام صاحب الفخامة!

قال بوقار وطني تشوبه مسحة دينية كأنه يستعير صفة الإله آمون بدلا من أن يحاربه: لتبدءوا على بركة الله! أوضح مبتسما: هذا أمر وليس خشوعا فاسدا!

رأى نفسه في جهاز التلفزيون يقرأ بيانا ينسب فيه تردي الأوضاع الاقتصادية بسبب الفساد الذي استشرى في كل المرافق، ولم تنفع من أجل مكافحته كل السبل، وأنه كان السبب الرئيسي في فشل كل الخطط التي وضعت لإنقاذ الاقتصاد المنهار، ولم يعد من مجال لعلاج سرطان الفساد سوى بالجراحة.

كانت قوات السلام والتنمية منتشرة في المدينة صباح اليوم التالي، تحرس المؤسسات الحكومية ومقار بعض الأحزاب السياسية، أصبح اللواء عوض سليمان نائبا للرئيس، إضافة لمنصبه القديم مديرا لجهاز الأمن والمخابرات، اقترح السيد الرئيس أن تتبع قوّات السلام والتنمية لرئاسة الجمهورية، له شخصيا، قال: سيخفف ذلك من أعبائك ويعطي هذه القوات المهمة مظهرا قوميا.

00

قبل بدء الرحلة مباشـــرة من مليط، قام الخبير بســـقي الجمال التي تعمدوا تركها عطشـــى طوال أيام حتى تشـــرب في اللحظة الأخيرة أكبر قدر من المياه، فلا تشـعر بالعطش مرة أخرى قبل وصـــولهم إلى واحـة النخيلـة التي تقع في منتصـــف طريق الرحلة.

الجو كـان لا يزال لطيفـا عقـب موســـم الأمطـار حين بـدءوا رحلتهم، لكن حرارة الجو بـدأت في الارتفـاع كلمـا اتجهوا شـمالا، يُفضّـل قائد الرحلة مواصـلـة السـفر ليلا، رغم حاجة المسـافرين للراحة، لأنه يسـتطيع تحديد اتجاه الرحلة بسـهولة بواســـطة النجوم، ســـعيد كان منظر النجوم المتراصـــة مثل الجواهر في قبة السـماء يعيد إليه ذكريات طفولة سـعيدة، رأى نفســه مع شـقيقه كمال ومع عدد من زملاء المدرسـة يذهبون إلى الفولة، التي امتلأت ذلك العام بماء المطر وفاضـــت المياه

وأغرقت أجزاء من المدينة، لحســـن الحظ لم يتأثر بيتهم كثيرا لأن البيت يقع في منطقة عالية قليلا، في موســـم الجفاف كانت المدرسة تُنظم رحلة سنوية للتلاميذ إلى جبل حيدوب الذي تقع المدينة على سفوحه، وسط مزارع الفول السوداني الواسعة، والده كان يملك مزرعة صـــغيرة، يزرع الفول الســـوداني والكركدي. لم يكن إنتاج المزرعة كبيرا لكنه كان كافيا لأسرتهم الصغيرة.

كانت الرحلة شاقة جدا وحرارة الشمس تكاد تذيب أجسادهم، في البداية كان الجو محتملا حين كانوا لا يزالون في نطاق الحزام الواقع في حدود المطر، لكنهم كلما اتجهوا شمالا كانت درجة الحرارة تصـــبح لا تطاق، عبروا وادي هور وتزودوا بالمياه قبل الانطلاق في الرحلة النهائية إلى الحدود الليبية، مرض الطفل الأثيوبي وأمه وأشـــرفا على الهلاك، قريبا من الحدود الليبية نفد الماء، قاموا بذبح أحد الجمال لكن الماء الذي عثروا عليه في بطن الجمل كان قليلا جدا، ولم يســـتطع الجميع شـــربه، ظهرت عليهم أعراض الجفاف الشـــديد، كان سعيد يشعر كأن العالم كله يدور من حوله، يشعر بآلام جسده تتســـرب الى قاع روحه، أصـــابته حالة من الذهول لم يعد يعي معها شيئا مما يدور حوله، حتى أنه لم يعرف كيف استطاع أن ينيخ الجمل ويستلقي أرضا فوق الرمال الحارقة، رأى ما يشبه شـــبحا يلبس ثوبا أحمر يقترب منه، كانت ســـيدة يراها تقترب منه وفجأة تبدو كأنها تطير بعيدا في الفضاء.

فجأة بدأ ينتبه على ما يشبه صوت سيارة، رفع رأسه فرأى أشباحا معلقة في نهر السراب من حوله، سمع صوتا يقول: لا تعطوهم ماء، اسقوهم قليلا من الشاي، شعر بشخص يبلل له رأسه ويمد له كوبا به سائل أحمر، شرب منه وهو لا يزال نصف مستلق على الأرض الساخنة، توفي اثنان من أفراد القافلة، الطفل الأثيوبي ومهاجر أريتري، انتبه سعيد على صوت والدة الطفل تبكي فوق جسده المتيبس، حين حلّ المساء، شرب سعيد مزيدا من الشاي وشعر ببعض الانتعاش، كانوا أكثر حظا لم تكن المجموعة التي أنقذتهم تتبع لقوات السلام والتنمية، بل لإحدى الجماعات المتمردة في إقليم دارفور، أعطوهم ماء ومزيدا من المواد الغذائية وساعدوهم في دفن الموتى، قبل أن يغادروا في اتجاه المجهول، أعلن الخبير: لم يبق لنا سوى مسيرة يوم واحد لنصل إلى العوينات.

في العوينات تزودوا بالماء، وبعض المواد الغذائية، كان عدد الجمال قد نقص بسبب ذبح جملين للحصول على الماء، اقترح الخبير أن يواصلوا الرحلة بالسيارة إلى مصراتة، قال إنّ عدد الجمال قد نقص وهي تبدو مجهدة جدا كما أنهم أيضا تعرضوا للإجهاد الشديد، سأله سعيد كيف سنحصل على سيارة؟ وهل سيكون الطريق آمنا في ظل الانفلات الأمني؟ هل يحتمل أن تتعرض لهم قوّات رسمية أو مجموعات مسلحة قد تعوقهم؟

قال سـعيد: سـمعنا أنّ الكثير من الأجانب تعرضـوا لهجمات تنظيم داعش وتنظيمات متطرفة أخرى، وهل يجب أن ندفع تكلفة إضافية رغم أننا دفعنا تكلفة الرحلة حتى مصراتة؟

قال الخبير إنهم ربما سـيدفعون مبلغا إضـافيا قليلا، وأنهم سيتولون إحضار سيارة تنقلهم بقية الرحلة، أوضح أنّ طريق السيارة آمن، أنّ معظم المهاجرين يفضلون قوافل الجمال في الجزء الأول من الرحلة بسبب انتشار قوات السلام والتنمية لكن داخل حدود ليبيا، تتسـاوى تقريبا حظوظ قوافل الجمال والعربات، بعض التنظيمات المتطرفة نشـطة في بعض المناطق، لذلك تقوم الجهات التي تنظم رحلات القوارب على حماية قواربها حتى تغادر المياه الإقليمية، كما أن رحلة السيارة تستغرق يوما واحدا وليس عدة أيام مثل الرحلة بالإبل مما يقلل فرص التعرض لأخطار الطريق.

كانت المجموعة منهكة جدا، اسـتغرقوا جميعا في النوم، في الصـباح شـربوا الشـاي وأعد لهم الخبير وجبة من اللحم المجفف والبصل والطماطم المجفف، أبلغهم أنّه قام بالاتصال مع المجموعة التي يعمل معها وسـتصـل سـيارة تنقلهم إلى مصراتة وأنّ على كل واحد فيهم دفع خمسمائة جنية إضافية، تحفّظ بعضـهم على المبلغ الإضـافي، كانوا يخشـون أن تكون تكلفة السفر عبر البحر أكبر من توقعاتهم.

أوضح لهم الخبير أنّ السيارة التي ستنقلهم تابعة للمجموعة التي ستتولى ترحيلهم إلى أوروبا.

استغرقت الرحلة وقتا أطول لأن السائق الخبير كان يسلك أحيانا طرقا بعيدة غير معبدة ليتفادى نقاط التفتيش، توقفوا مرة واحدة طوال يوم كامل ليقضوا حاجتهم بسرعة ويواصلوا الرحلة، حين اقتربت السيارة من المدينة بدأت تهدئ سرعتها لحين حلول الليل، توقف السائق أخيرا في شارع جانبي وتقدم المجموعة إلى شقة في بيت قديم، كانت الشقة كبيرة لكنها مزدحمة بالناس، أخبرهم السائق أنّ الرجل الذي سيتولى تنسيق الرحلة سيحضر صباحا ليتفق معهم، كانت غرف البيت كلها مشغولة بعدد من الأُسر، وعدد كبير من الأطفال، وضعت المجموعة أشيائها القليلة في صالة البيت واستلقوا أرضا، سمعوا بعد قليل حركة دخول شخص ما إلى البيت، ثم اكتشفوا صباحا أن كلّ نزلاء البيت غادروه مساء في رحلتهم عبر البحر، كان البيت في غاية القذارة بسبب استخدامه من طرف عدد كبير من الناس يوميا، حفاضات أطفال ملقاة أرضا، وغبار يغطي كل شيء، وأواني الاكل وأكواب الشاي ملقاة في أي مكان، اقترح أحد أفراد المجموعة أن يقوموا بتنظيف البيت، لكن أحدهم اعترض: هل نحتاج إلى ذلك، ربما نسافر اليوم، أثناء ذلك جاء الرجل المسئول عن تنسيق الرحلة، قال أنّ الرحلة سيتم ترتيبها خلال سبعة أيام، أخبرهم أنه سيحضر أو سيرسل شخصا سيعطيهم اسمه كل يوم لإحضار احتياجاتهم

من الغذاء والماء، وعليهم الاتصال به أن احتاجوا لأية شيء، وأن عليهم عدم الخروج من البيت مطلقا لأنّهم قد يتعرضون للاختطاف من بعض العصابات التي تتبع لبعض الجماعات المتطرفة، ونبههم إلى إغلاق باب البيت جيدا وعدم فتح الباب إلا بعد التأكد من شخصية الطارق، شرح لهم باختصار بعض ترتيبات الرحلة عبر البحر والمخاطر المحتملة، هناك قارب صغير به بعض المسلحين سيقوم بمرافقتهم حتى حدود المياه الدولية، لحمايتهم من خطر العصابات والجماعات المتطرفة التي تنشط في البحر، ثم طلب من كل واحد منهم دفع مبلغ ثمانمائة دولار، لم يتبق مع سعيد بعد دفع المبلغ سوى مائة دولار لم يكن متأكدا إن كانت كافية لمقابلة منصرفات الجزء الأخير من الرحلة قبل الوصول إلى الوجهة النهائية.

قضوا يومهم في نظافة البيت وإعداد الطعام، لحسن حظهم لم يحضر مهاجرون جدد، فبقي البيت هادئا نسبيا مقارنة بيوم وصولهم، مساء أخلدوا للنوم مبكرا على أمل أن يوقظهم منسق الرحلة، ليستأنفوا رحلة الهروب عبر البحر تلك الليلة، لم يدر بخلدهم أبدا أنّ عددا من الدواعش هم من سيقومون بإيقاظهم من النوم!

00

سـيدي الرئيس نحتاج بصـورة عاجلة لشـراء مواد بترولية وقمح، شـركات البترول ترفض تزويدنا بالمواد البترولية ما لم ندفع مقدما!

هذا كل ما وجدناه في خزينة الوطن سيدي الرئيس، مائة دولار وعشرة جنيهات إسترليني وألف ليرة تركية ومائة ين ياباني!

كم تساوي مائة ين ياباني بالدولار؟

دولار واحد سيدي الرئيس!

هل انهارت عملة اليابان أيضـا!؟ إنها تكاد تصـبح مثل عملتنا! رغم أننا لا نصـنع لا سـيارات ولا أجهزة تلفزيون، نحن تقريبا لا نصنع الآن شيئا سوى المريسة! وحتى المريسة لم نعد نجيد صناعتها، ويضيف لها الباعة الكثير من الماء! معظم السكارى في ضواحي العاصمة النائية، يشربون خمرا مغشوشة بالماء! لكن بسبب سوء التغذية، يكفي شراب أية شئ لافقادهم الوعي! في الزمن الماضـي كان شـرب كوب واحد يكفي لتفقد الوعي، أما الان تشرب برميلا كاملا وتظل في كامل وعيك!

لا نصنع شيئا رغم أننا استولينا على السلطة بذريعة تحقيق التنمية الشاملة والاكتفاء الذاتي، وكان أهم شعارات الثورة أننا سنصبح خلال خمس سنوات تايوان أفريقيا، مضت ثلاثة عقود ونحن على وشك فقط أن نصبح ميديلين أفريقيا!

يقال سيدي الرئيس أنّ جهاز الأمن والمخابرات هو الذي يدخل كل هذه المخدرات إلى البلاد لشغل الشباب عن التظاهر ضد النظام!

قال أحد مساعديه: لا تصدق هذه الترهات سيدي الرئيس، لقد حققنا الاكتفاء الذاتي! نستورد فقط القمح والدواء، حققنا الاكتفاء الذاتي من القنابل المسيلة للدموع! نقوم بإنتاجها في مصنع الأسلحة والذخيرة الوطني! يقال إنه بناء على تعليمات جهاز الأمن والمخابرات الوطني يقومون في مصنع الأسلحة بحشو القنابل المسيلة للدموع بالمخدرات، ذلك هو السبب الذي يجعل المظاهرات ضد السلطة الشرعية المنتخبة، تتحول إلى مظاهرات غناء وطرب صاخب! بل إنهم يهتفون بحياتك سيدي الرئيس، ويرفعون لافتة مرتجلة مكتوب عليها: تسقط الحكومة ويحيا ساكن القصر، صانع البهجة والحبور، صانع المطر!

لم يهتم السيد الرئيس بالأمجاد الثورية التي يسبغها عليه (المساطيل)، قال بغضب:

وهل هذا كل ما وجدتموه في بنك الوطن؟ وأين عائدات البترول والذهب؟ أين ذهبت عائدات بيع مشاريع الوطن ومؤسساته الكبرى؟

قال أحد مساعديه: يقال إنها تحولت إلى استثمارات في ماليزيا، فلل في تركيا وأموال سائلة في بنوك سويسرا! وبعضها ذهب هبات للتنظيم الدولي للإخوان المسلمين!

هذا هو كل ما حصلنا عليه سيدي الرئيس، اضافة لكشف حساب منصرفات السنة المالية المنصرمة، الأموال معظمها ذهب لشراء السلاح للحرب وبعضها لشراء السلام!

ألم تقولوا قبل قليل أننا نملك مصنعا للأسلحة؟ لماذا نشتري السلاح من الخارج إذا؟

المصنع سيدي الرئيس يقوم بتصنيع بعض الأسلحة الخفيفة، والمدافع الرشاشة والقنابل المسيلة للدموع، لكننا نحتاج لطائرات، ومدافع مضادة للدروع، وعربات مدرعة، لا تزال هناك بعض جيوب التمرد في الوطن سيدي الرئيس!

فهمت أننا يجب أن ندفع المال لشراء السلاح الذي لا يستطيع مصنع الأسلحة إنتاجه، مفهوم أن ندفع المال للحرب، لماذا يجب أن ندفع المال أيضا للسلام؟

هناك نقود تدفع للوسطاء الذين يقنعون أطراف الحرب بالتوقيع على اتفاقية السلام، هناك نقود دُفعت حسب هذا الكشف لأحد

الفصائل المتمردة ليوقع على اتفاق السلام، وحين عاد الفصيل للتمرد مرة أخرى، دفعوا لأحد القادة الميدانيين ليقوم بالتمرد على قيادته السياسية فأصبحت الحركة حركتين، ثم دفعنا نقود لقادة آخرين فأصبح لدينا بدلا من حركتين أربع حركات، ثم دفعنا ليصبح العدد الإجمالي ثمانية حركات، ثم دفعنا للثمانية حركات مرة أخرى لتُوقع على اتفاقية سلام جديدة، أمام عدسات وكالات الأنباء العالمية، ثم دفعنا لقادة ميدانيين آخرين لشق الحركات مرة أخرى! لذلك تتضاعف تكلفة السلام، تكلفة الحرب تصبح أقلّ من تكلفة السلام! حين يكون هناك سلام يمرض الناس كثيرا، يحتاجون للدواء، يحتاج الأطفال لمدرسة، ويحتاج الناس لشوارع ومستشفيات، ومخابز، ونقاط للشرطة. حين يلعلع الرصاص لا يتذكر أحد حتى المرضى حبة الدواء أو قلم الرصاص، الجميع يهربون بجلودهم، لا يبق من واجب على الحكومة سوى توفير الرصاص!

ألقى بالورق جانبا، أحضروا لي أفضل عبقري في الوطن، ساحر، شيطان، أريد من يوفر لي مالا في هذه الخزينة الفارغة!

نفّذ رجال أمنه تعليماته حرفيا، أحضروا له في اليوم الثاني رجلا ضئيل الحجم يكاد جسده الخفيف تحمله الريح حين يمشي في الشارع.

ألقينا القبض عليه بعد بلاغ من إحدى السيدات سيدي الرئيس، كان قد اتفق معها على جلسات لعلاج العقم ثم حاول اغتصابها، وضـــعناه في الزنزانة لحين عرضـــه على القاضـــي في اليوم التالي، لكننا وجدناه بعد قليل في الخارج، اعتقدنا أنه خبير في فتح الأبواب فوضعناه في زنزانة محكمة مخصصة للمحكومين بالإعدام، لكننا وجدناه بعد قليل في الخارج، وضـــعنا حوله عشـــرة حرّاس في الزنزانة، هبت ريح قوية داخل الزنزانة وجدناه بعد قليل جالســا في الخارج يشــرب كوبا من الشــاي، وفي الداخل وجدنا الحرّاس جميعا نائمون! يقال إن لديه سلطة على الجن والشياطين سيدي الرئيس!

لم تبد عليه أية مظاهر ســلطة ولا حتى على نفســه، كان يبدو زائغ البصـــر، يده اليمنى التي يرفعها كل ثوان لتثبيت النظارة على وجهه النحيل المليء بالتجاعيد، كانت ترتعش بصـــورة واضحة.

كان واضـــحا أن كل ســـلطاته في اختراق الجدران تتضـــاءل وتختفي في حضــرة ســلطة حقيقية لا تعتمد على الوهم، أمره السيد الرئيس ليجلس بجانبه، وسأله إن كان يرغب في شراب شـــيء ما، طلب كوبا من الشـــاي بالحليب قال إنه معتاد على شراب الشاي طوال اليوم.

قال الســيد الرئيس مبتســما بخبث: كنت أظن أن الشــيطان لا يحب الحليب!

اســـتعاد الرجل بعض زمام ســـلطته وقال: الشـــاي لي وليس للشيطان!

ضحك السيد الرئيس وقال: معجزة الخروج من السجن تصلح فقط للص! من يحتاج لمثل هذه المعجزة!

كان الرجل لا يزال يبدو خائفا بصورة ما، كأنه يخشى فشله في إثبات قدرته أمام رجل لا يرحم، تمالك نفســـه وقال: المعجزة الحقيقية إن تبق على قيد الحياة في هذا الزمان العصيب!

هل تقصد أن مجرد بقاءك حيا في دولتنا هو معجزة؟

تنبه الشيخ لفداحة تعليقه، قال: لا أقصد عهد سعادتكم، أقصد الأرض كلها، حروب وأوبئة ومجاعات ومشـــاكل لا تنتهي! لقد خلق الله الإنسان لعبادته وتعمير الأرض وإشاعة السلام، لكن كل ما يفعله هو القتل والتخريب، تعطي أحدهم قلما أو معولا ليتعلم شـــيئا أو يزرع الأرض، يلقي بهما أرضـــا دون اهتمام، تعطيه بندقية يكاد يطير من الفرح!

تجاهل الســـيد الرئيس اهتمامات الشـــيخ برفاهية الكوكب كله، وسأله

ما اسمك يا حضرة الشيخ؟

اسمي عبد الرسول يا صاحب الفخامة

بدأ يستعيد نفسه مع رشفات الشاي الرئاسي.

أريد أن أرى إحدى أعمالك الخارقة!

أنا مجرد رجل فقير، أنا مجرد إنسان على باب الله!

كرّر السيد الرئيس السؤال: دعنا نرى إحدى أعمالك الخارقة!، كان قد سمع أن السيد الرئيس لا يحب تكرار طلبه.

قال: هل تفكر فخامتك في شيء تحب رؤيته الآن.؟

كان أول ما خطر في بال السيد الرئيس، جهاز راديو قديم كان يحب قبل سنوات طويلة أن يخلد للنوم ليلا أثناء الاستماع له، لكنه فقده منذ تخرج من الكلية الحربية، في غمار تنقله من بيت إلى بيت من مدينة إلى أخرى من حرب إلى انقلابات عسكرية.

قال له شيخ عبد الرسول: هل تتكرم فخامتك وتغمض عينيك للحظة!

فتح صاحب الفخامة عينيه على منظر الراديو القديم أمامه على المنضدة.

يا للكارثة قال ضاحكا ليتني تذكرت سبيكة ذهب!

تملك وطنا يا صاحب الفخامة ماذا تريد بسبيكة ذهب؟

ضحك السيد الرئيس وقال: أستطيع بيع سبيكة الذهب، لا أستطيع بيع الوطن!

الآن دورك لتغمض عينيك!

فتح شـــيخ عبد الرســـول عينيه على منظر حقيبته الجلدية القديمة وحذائه المصـــنوع من جلد البقر، لا تزال تفوح منه رائحة القرض الذي يســـتخدم محليا في دباغة الجلود، وبعض أشـيائه القليلة التي تركها في الغرفة الملحقة بمسـجد صـغير، يقيم فيها في ضـــواحي العاصـــمة قريبا من مدخل الطريق الصحراوي المتجه شمالا.

قال الســـيد الرئيس: رجال أمننا ليســـوا أقل كفاءة من الجن، أمرتهم عند وصـــولك بإحضـــار أمتعتك، ثم أصـــدر قرارا جمهوريا: ســتقيم معي هنا، طاف معه في جولة قصـيرة داخل القصر: لدينا الكثير من النساء هنا، قال السيد الرئيس ضاحكا: إذا حاولت اغتصـاب إحداهن سـأحبسـك في قمقم لن يعرف إليه الجن طريقا!

تســاءل الســيد الرئيس: لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ ســمعت أن بعض الناس الذين يصادقون الجن يأمرونهم بعدم الزواج، ذلك ليس مهما، يمكنك تدبير حياتك دون زوجة، الحياة أقصـــر من أن نضـيعها في الشـجار والمحاكم، يمكنك أن تذهب سـرا إلى بيوت العاهرات، أو يمكنك إحضـــار إحداهن إلى جناحك هنا سرا، بشرط أن يكون ذلك بعد السادسة مساء، سيكون مزعجا قليلا أن حضرت لك امرأة اثناء النهار، وحين لا تعثر عليك في استقبال القصر الجمهوري، تستوقف سفيرا جاء لتقديم أوراق

اعتماده، تقول له هل يمكنك أن تصف لي كيف أجد شيخ عبد الرسول في هذا البيت الذي يشبه بيت جحا، يتوه فيه حتى من قام ببنائه، أنه يعمل هنا مستشارا للرئيس!

إن كان السفير رجل يحب مساعدة النساء فسوف ينسى موعد تقديم أوراق الاعتماد، ويجول مع العاهرة في أجنحة القصر بحثا عن المستشار الرئاسي!

أصدر السيد الرئيس أمرا: نحتاج لشراء مواد بترولية بصورة عاجلة قبل أن ينفجر الشارع.

طلب أن يختلي في غرفته لمدة ثلاثة أيام مع كمية من الزئبق الأحمر، أحضر رجال أمنه الزئبق الأحمر: حصلنا عليه بشق الأنفس يا مولانا! وفقك الله في هذه المهمة الصعبة، السيد الرئيس سيختبر مقدراتك، السرعة أيضا ستكون حاسمة في تقييم مقدراتك، من الأفضل ألا تترك شياطينك تخلد إلى النوم قبل إنجاز هذه العملية!

بسبب العجلة والسيد الرئيس الذي كان يطرق الباب كل بضع دقائق ليسأل: ألم تتمكن من تنزيل اية شيء؟ كان صوت الرجل يتسرب من خلف الجدران مشحونا بالغبار والحنين، تحول صوته إلى ما يشبه صوت الريح، صوت العاصفة، حين تُحوّل صباحات موسم الدميرة إلى ليل دامس.

يلتقط السيد الرئيس كلماته بصعوبة من فم العاصفة: لا شيء، لا شـيء! يقول السـيد الرئيس بخيبة أمل وقد بدأت آماله حول حل سحري لمصاعب الوطن تخبو:

لا شيء؟ ولا حتى ما يكفي لشراء ليتر بنزين؟

في النهاية رفضـــت شـــركة النفط الأجنبية الدولارات، لأنها مزيفة!

قال السـيد الرئيس: مزيفة؟ إنها من السـماء؟ هل يوجد أيضـا تزوير في السماء؟

قال شـيخ عبد الرسـول: الزئبق الأحمر لم يكن من النوع الجيد النقي، لم يكن الزئبق الأحمر الروحاني الذي طلبته، أحضـــر رجالك زئبق غير حقيقي، لقد اختبرته في يدي قبل أن أبدأ العمل، الزئبق الأصلي ينبض مثل القلب حين تضمه في قبضة يدك! لكنك لم تعطني فرصة لتوضيح مشكلة الزئبق المزيف، فبدأت العمل أملا في حدوث معجزة وأن يتم تمرير صـــفقة التنزيل في لحظة عدم تركيز في السماء!

وما العمل الان ألا تسـمع أصـوات المتظاهرين خارج القصـر؟ النـاس عادت إلى العصـــر الحجري يركبون الدواب في قلب العاصـمة! وشـركات البترول ترفض تسـليمنا شـحنات البنزين قبل أن يروا دولاراتنا، وشيخ عبد الرسول ينزل لنا من السماء دولارات مزيفة!

أصدر السيد الرئيس أمرا نهائيا: سيبدأ شيخ عبد الرسول خلوة التنزيل بعد صلاة العشاء. أريد زئبق أحمر نقي لا تخالطه أدنى شائبة، قبل مغيب الشمس والا فأنتم مطرودون جميعا من الخدمة! وأريد ألا أرى أحدكم صباحا في أية مكان، وسأتسلم بنفسي البيوت الحكومية التي تقيمون فيها!

جاءوا قبل المغيب بثواني قليلة يحملون شيئا في علبة بلاستيك. عثرنا عليه سيدي الرئيس، هاجمنا بيوت بعض شيوخ التنزيل فلم نجد سوى كميات قليلة، لا تكفي لتنزيل دولارات لشراء برميل بنزين واحد، وجدنا شيوخ التنزيل يعودون لعلاج الناس بالرقي بسبب شح الزئبق وبسبب غلاء أسعار الدواء سيدي الرئيس! ثم هاجمنا مناطق التنقيب العشوائي عن الذهب، وعثرنا على عدد من المنقبين لديهم كميات قليلة يستخدمونها لتنقية الذهب، حاول بعضهم الاعتراض، فصادرنا كميات الذهب التي عثروا عليها بدون ترخيص سيدي الرئيس! وضعوا الزئبق والذهب بجانبه! يا لليوم السعيد!

وضع شيخ عبد الرسول الزئبق في يده وضمه بقوة فنبضت يده بقوة مثل قلب ثور، قال الآن يمكننا العمل دون خوف من النتائج، ثم استأذن ليبدأ عزلته المجيدة، ذكّره السيد الرئيس بوجوب السرعة لإنجاز المهمة قبل أن تصبح الأوضاع خارج

السـيطرة، أجاز لقوات أمنه اسـتخدام الذخيرة الحية لتفريق المظاهرات لحين فراغ شيخ عبد الرسول من خلوته.

سلّمه شيخ عبد الرسول بعد يومين الغرفة المليئة بالدولارات، أصـدر فورا قرارا جمهوريا بتعيين الدكتور: عبد الرسـول سـليمان الطاهر، وزيرا للمالية، ومسـتشـارا اقتصـاديا لرئيس الجمهورية.

وماذا سـنفعل بوزير المالية القديم البروفسـور محمد عبد الدافع؟ لقد كان أفضـل من يقود المفاوضـات مع صـندوق النقد الدولي، أنه رجل عبقري حاصل على الدكتوراة من أوكسفورد ولديه زمالة جمعية المحاسبين البريطانيين!

أن كنت تسـمي هذا اَلْمُفْلِس الذي يتفاوض منذ عشـرة سـنوات مع صـندوق النكد الدولي دون أن نرى دولارا واحدا، أن كنت تسميه عبقريا! فماذا نسمي شيخ عبد الرسول الذي يقتلع لنا الدولارات من السـماء! ولا يحتاج في مفاوضـاته سـوى ثمان وأربعين ساعة! وبعض الزئبق الأحمر!

لكن سعادتك هو من مؤسسي الحزب ومن الإخوان الملتزمين!

ملتزم بماذا؟ ألم يسـرق ما يكفيه! هل نسـي أن الدولة كانت تدفع لـه إقامته في الفندق طوال فترة عملـه! وزير مالية يقوم برنـامجـه على خفض الإنفـاق الحكومي ويقيم هو نفسـه مع

أســـرتـه في فنـدق الـهيلتون! والحكومـة تملـك نصـــف بيوت الوطن! لماذا لا يقيم في بيت حكومي؟

لكن يقال إن بيوت الحكومة كلها بيعت!

بـالطبع بـاعهـا لصـــوص حزب المؤتمر الوطني، ثم يـأتي من يتحدث عن الإخوان الأنقياء الملتزمين!

لكن يقــال إن شـــقيقـك ســـيـدي الرئيس وهو من الإخوان الملتزمين..

إياك أن تتحدث عن أســرتي، جميع حزب الاخوان لصــوص ما عـدا إخوتي، ربمــا خـدعهم الاخوان لإغراقهم في الفســـــاد لابتزازي بذلك لكنهم لن ينجحون، إخوتي فوق الشبهات!

00

شعر ببعض الاستقرار بعد استقرار بعض أزمات الوطن، يقول لأقرب مساعديه: أين مشاريعنا الإنتاجية؟ ألم تكن هناك خطة لإعادة تأهيليها؟ من سيضمن استمرار هذه الرفاهية الشيطانية؟ أخشى أن تنفد كل الدولارات الموجودة في السماء، ولا يستطيع الشيخ سوى إنزال المطر!

المشكلة أنّ المطر إن هطل سيهطل في أراض لا تخصنا!

ماذا تعني بأراض لا تخصنا؟

أعني أنّ المشاريع الكبيرة التي تحدثت عنها، بيعت كلها سيدي الرئيس، أيام سطوة حزب الوطن الإخواني!

هل باعوا كل شيء؟ لم يتركوا ولا حتى فدّان واحد؟

قام المســـتثمرون الأجانب بزراعة حتى مقابر موتانا ســـيدي الرئيس بدعوى أنهم اشـــتروا تلك الأرض! أما مباشـــرة أو حصلوا عليها لقاء قروض واجبة السداد منذ سنوات!

فكّر السـيد الرئيس قليلا وقال: أريد خطة عاجلة لاسـتصـلاح الصحاري، سنعتمد على زراعة القمح!

معظم الصحاري بيعت لشركات التعدين سيدي الرئيس!

هل هي شركات أجنبية؟

بعضـها شـركات أجنبية وبعضـها يملكها أعضـاء حزب الوطن، الإخوان المسلمين يسيطرون تماما على اقتصاد بلادنا!

ماذا ســنفعل، ماذا تبقى لنا؟ هل نقوم بزراعة القمح في حديقة القصر؟

ضـحك المسـاعد وقال: القصـر وحديقته بيعا سـيدي الرئيس، الشـركة الصـينية التي اشـترت القصـر قامت ببناء قصـر جديد صغير، سنرحل إليه خلال أسابيع سيدي الرئيس!

كيف أترك قصري؟ هذا القصر شـاهد على تاريخنا؟ وهل تعني أنّ الشركة الصينية احتسبت تكلفة بناء القصر الجديد من قيمة القصر القديم؟

نعم لكن بقيت بضعة ملايين يجب أن نسددها للشركة الصينية!

كأنه يشعر بقدوم الكارثة الوشيكة:

مصيبة كبرى سيدي الرئيس، توفي الدكتور عبد الرسول وزير المالية كان على وشـــك تنزيل دفعة من الدولارات حين فارق الحياة فجأة، هذا كل ما اسـتطاع تنزيله وهو ينازع ملك الموت سيدي الرئيس. وسلّموه بضع وريقات لا تتعدى كلها خمسمائة دولار.! ، أخرج محفظته بارتباك ووضع المبلغ فيها.

يا للكارثة ألم يكن ملك الموت قادرا على الانتظار بضع ساعات حتى يفرغ الرجل من عمله!

الكارثة الحقيقية سـيدي الرئيس أننا نسـينا في غمرة انشـغالنا بإحصـــاء الدولارات السـماوية، أن نطلب من الرجل إعداد من يستطيع خلافته، وتدريبه وإعطائه أسرار المهنة!

أصـــدر تعليماته بإقامة جنازة وطنية للراحل الذي وصـــفته رئاسة الجمهورية بأنه كان وطنيا مخلصا بذل الغالي والنفيس من أجل وطننا، وأنه وبفضل خططه وخبرته العظيمة استطاع أن ينعش اقتصاد بلادنا ويضعه في الطريق الصحيح.

مسـح دموعه وهو يرى جثة الرجل الوحيد الذي كان يثق فيه، تختفي تحت التراب. الرجل الذي كان يدفع فاتورة بقائه في السـلطة: الوحيد الذي يعطيني مالا منذ وفاة أبي! الجميع يطلبون مني المال! هو الوحيد الذي يدفع لي بسـخاء، فقط أشير بيدي، فأجد نفسي غارقا وسط أمواج العملة الخضراء، العملة الصعبة! لم يُسمعني أبدا الأسطوانة المشروخة التي يرددها كل وزراء المالية الذين شغلوا هذا المنصب من قبله:

عفوا سـيدي الرئيس، لا يوجد مال، لم تهطل الأمطار بالقدر الكافي هذا العام، فشـل الموسـم الزراعي، أكلت الطيور المهاجرة محصـول اَلذُرَة الفتريتة، قضـت حشـرة المن على محصـول السـمسـم! لم نسـتطع بيع محصـول الصـمغ العربي بسبب العقوبات الأمريكية، ماكينات معظم المصانع متوقفة، لا نستطيع استيراد قطع غيار بسبب العقوبات!

جلس سـاهما في اجتماع مجلس الوزراء في اليوم التالي، شـاعرا أنه أضـاع شـيئا ما لا يسـتطيع تحديده، يشـعر باليُتم، للمرة الثانيـة خلال أقلّ من قرن يفقد والـده! انتبـه على لغط الوزراء المُفلسـين بعد قليل، لا يزال مقعد السـيد وزير المالية شـاغرا، الغريب أنّ الوزير الراحل كان هو الوحيد الذي يجلس صـامتا منذ بداية الاجتماع حتى نهايته، حين يسـير في ردهات القصر تتساقط الدولارات من ملابسه، عرف السيد الرئيس أنه كلما ارتفعت الأصـوات، يتراجع الناتج القومي، كلما ارتفعت الأصوات في مجلس الوزراء ، يرتفع سعر الدولار في السوق الموازي! كلما ارتفعت الأصـوات في مجلس المفلسـين الذين يسمون أنفسهم وزراء، يتراجع كل شيء، يتراجع حتى الفاصل المداري، يتقدم فقط حزام الجفاف والجراد والقحط.

تركهم في صـخبهم وخرج إلى مسـاعديه: أريد خلال ثلاثة أيام رجلا يخلف دكتور عبد الرسول!

بحثنا عن خليفة للرجل، وضعنا المعلومات في جهاز الكمبيوتر التابع للمركز الوطني للدراسات الاستراتيجية وعلوم المستقبل، استغرق تلقيم الجهاز ببيانات الشخص المطلوب وقتا طويلا، لأنّ جهاز الكمبيوتر كان يكتفي بوضع صورة وجه ضاحك على شاشته في كل مرة! لم نكن نعتقد أنّ هذا الجهاز اللعين يستطيع الاستغراق في الضحك سيدي الرئيس! في النهاية حين سئم الجهاز من تكرار نفس الطلب، وضع على شاشته صورة رجل يشبه الشيطان، وجه مستطيل وله قرنان صغيران خلف أذنيه! يبدو أنّ جهاز الكمبيوتر يريد أن يشير إلى خطة الإخوان المسلمين في بدايات الثورة، حين اقترح أحدهم استخدام الجن لإحراز تنمية بشرية متقدمة، تضعنا في مصاف الدول الكبرى، حيث يقوم الجن بأعمال خارقة مثل بناء المفاعلات النووية، وإنشاء السدود، إنجازات خارقة كان يقتصر إنجازها في ذلك الزمان على الشركات الأمريكية!

لكن الكمبيوتر في النهاية أرشدنا إلى الرجل المناسب، تتبعنا خطواته في خرائط قوقل، عبر الأقمار الصناعية، كان يطوف أماكن التعدين العشوائي على امتداد الصحاري على عربة كارو يجرها حمار، يشتري من الناس الذهب، يقول لهم: أنا ممثل السلطة! تخيّل سيدي الرئيس: ممثل السلطة على ظهر عربة يجرها حمار! يمضي مثل مؤامرة لتمريغ هيبة السلطة في الوحل! هيبة السلطة التي استعدناها على يديك سيدي الرئيس، بعد فوضى التجربة الحزبية التي كان فيها ساسة

الوطن في البرلمان يتحدثون كلهم في وقت واحد مثل أطفال الخلوة، لا أحد يستمع إلى الآخرين، قبل أن يتحوّل الصراخ إلى عراك بالأيدي والكراسي، حتى إننا حين استلمنا السلطة، وجدنا مقاعد البرلمان كلها محطمة سيدي الرئيس! حتى اصائص الورد الإنجليزي والصبّار استخدموها في الشجار، وفي آخر جلسة قبل الانقلاب، أحضر أحد النوّاب معه بندقية! هل تصدق ذلك سيدي الرئيس؟ بندقية داخل البرلمان! حتى أنّ أحد النوّاب علّق على ذلك قائلا: ماذا تركنا للمتمردين في الغابة! إن كنا سنستخدم البنادق في حسم الخلافات داخل البرلمان!

وجدناه ينادي على بضاعته مستخدما ألحان بعض أغاني الحقيبة القديمة، ومستخدما طنبورا كان يعزف عليه بإهمال، بحيث يمضي اللحن في طريق وتمضي الأغنية القديمة في طريق آخر، رغم ذلك كان يبدو مبتهجا، وزبائنه يبدون أكثر ابتهاجا وهم يسلّمونه ثمار شقائهم طوال سنوات في الصحاري، والعمل دون توقف في ظروف جوية قاسية، يكابدون الحر والعطش وعقارب الصحاري، والثعابين .

أعطوني الذهب أعطيكم دولارا لا يصدأ ولا ينخفض سعره أبدا!، إذا انتظرتم السماسرة يأخذون ذهبكم ويعطونكم جوالات من نقود لا تساوي قيمة الورق الذي طُبعت عليه! وحين تعودون إلى دياركم تكتشفون أن عمركم ضاع هباء، من أجل

أوراق تحتاج إلى جوال منها لشـــراء قطعة خبز واحدة، لكنني أعطيكم دولارا لا يصـــدأ ولا تنخفض قيمته أبدا، يمضـــي في رحلته اليومية لتمجيد الدولار، والاســتخفاف بالعملة الوطنية! التي طُبعت عليها صورتكم سيدي الرئيس!

دولاراته لم تكن مُنزلة، كان يقوم برسمها بنفسه! إنه عبقري سيدي الرئيس، تعطيه أية شيء فيسلمك نسخة طبق الأصل منه خلال ساعة واحدة! يستخدم ألوانا وأحبارا لم نر مثلها قط، يقول النـاس إنـه يملـك عـددا من الجـان الموهوب المتطوع لخـدمتـه، يقومون بـالتزوير، يُحضـــر لهم الورق والأحبـار ويقومون بـالعمل كلـه، وفي بعض الأحيـان شـــاهده النـاس مستغرقا في النوم فيما يواصل سائق غير مرئي قيادة العربة الكارو التي يجرها حمار، يقال إن الحمار نفســه من الجان، لم يشاهده الناس قط يأكل العلف أو يرد الماء!

لكنه يبدّد الذهب الذي يحصـــل عليه كله في النســـاء، يعشـــق النســـاء الجميلات، ما أن يســمع بفتاة جميلة في إحدى القرى، حتى يذهب فورا لخطبتها، حين يذهب لخطبة الفتاة، لا يضـــيع الوقت في التفاوض أو توضـيح نسـب أسـرته وممتلكاته، إلى آخر تلك الشروط الكلاسيكية للزوج السعيد، يضع فقط سبيكة ذهب أمامه مهرا للفتاة، ويتم عقد الزواج فورا، يقضـــي عدة أيام مع عروســـه الجديدة، قبل أن يعاوده من جديد الحنين للتجوال في الصحاري وشراء الذهب.

حين يعود لمناطق التعدين ولا يجد ذهبا، يستمع إلى شكاوى المعدنين كأنه بالفعل ممثل السلطة ويعدهم بتذليل المشاكل، يشتكون له من نقص الخدمات وصعوبة الحصول على المياه الصالحة للشرب، يقول لهم مندهشا: أنتم تستخرجون الذهب، ألا تستطيعون استخراج الماء؟

يشتكون له من انهيار الآبار وموت الشباب وعدم وجود أية وسائل سلامة أو إسعاف، يشكون له من عدم وجود مصل لسموم العقارب والثعابين، من ضعف شبكات التليفون، ومن أنّ أجهزة استكشاف الذهب في باطن الأرض التي يستخدمونها كلها قديمة ولا تعمل بكفاءة، إلا بعد أن نستخرج الذهب ونضعها فوقه! فتبدأ في إطلاق صفيرها كأنها اكتشفت شيئا!، كان يتركهم يتحدثون جميعا في الوقت نفسه، ويذرع المكان بقدميه، ثم يصدر أمره: احفروا هنا! ينتظرهم وهم يتعاركون مع الأرض القوية بمعاولهم، فيما شمس الغسق تنظر بفضول حزين إلى العالم، وفجأة يصرخ أحدهم: عثرنا على سبيكة ذهب! يعطيهم دولاراته المزيفة ويأخذ السبيكة، يعطيهم تمائم تحميهم من لدغات العقارب والثعابين، ويأخذ الذهب، يوجد لديه عدة أنواع من التمائم، أقلها أهمية يحمي من العين الشريرة ومن لدغات العقارب، أغلاها ثمنا يحمي من طلقات الرصاص، ثم يمضي في طريقه بحثا عن عروس جديدة، رغم أنّ المُعدّنين يترجونه ليبق معهم، سنعطيك نصف ما نحصل عليه، اذا ارشدتنا الى مكان الذهب! كان يقول أنا لا اعرف

شـــيئا لقد كانت مجرد ضـــربة حظ، وحين يلّحون عليه ليبقى، كان يعدهم انه سيعود بعد قضاء بعض حوائجه، يقول لهم: أين سأذهب ؟ الصحراء هي بيتي، سأعود لكم قريبا، ويمضي في طريقه!

قال الســيد الرئيس: يقال إنك تشــم رائحة الذهب من على بعد عدة كيلومترات!

ابتسم وقال: يوجد ذهب هنا! أشار الى أرضية غرفة الاستقبال الضخمة التي كان السير روبرت هاو يقيم فيها حفلات استقبال القناصل وزعماء القبائل، أمر السيد الرئيس بإحضار آلة حفر، أحضروا واحدة من النوع المستخدم في حفر الشوارع، أزاحوا السجاد الفارسي الثمين حتى لا يتلف، وأزاحوا قطع الاثاث قبل ان يبدأ الحفر، امتلأ المكان بالغبار، ولم يظهر شـــيء، فجأة أصدرت ألة الحفر صريرا معدنيا، أمر السيد الرئيس بإيقاف آلة الحفر، أزاح أحد مساعديه التراب بيده وباستخدام معول انتزع صندوقا حديديا صغيرا من الأرض، كان الصندوق اشبه بخزانه صغيرة، لم يتأثر سوى ببعض الصدأ، بعد عدة ضربات باستخدام المعول انفتح الصندوق وتدفق كنز صغير من قطع الذهب والمشغولات الذهبية.

أصـــدر الســـيد الرئيس قرار جمهوريا: تعيين الدكتور عبد الرازق عبد الرحيم وزيرا للبترول والثروة المعدنية!

سـيدي الرئيس: السـيد الوزير يعمل بهمة، يبدو أن شـياطينه تجيد التعامل أيضـا مع الثورة المعلوماتية، يبدأ العمل مبكرا، يقوم سـكرتيره بفتح خرائط قوقل على شـبكة الانترنت، ويقوم هو بوضـع علامات على المناطق التي يجب البحث فيها عن الذهب والمعادن الأخرى!

هذا رائع، ربما يجب تنظيم دورة دراسـية لـه في تشـغيل الكمبيوتر!

سـيكون ذلك عملا جيدا، لكن ربما يجب إخضـاعه في البداية لدورة محو الأمية!

ابتسم السيد الرئيس وقال: لن يحتاج لشيء، إنه موهوب، من يسـتطيع عمل دولار اصـلي بدون طابعة لن يحتاج لدورة محو الأمية! نحن نحتاج لذلك، لا نسـتطيع عمل ولا حتى جنيه من عملتنا الوطنية!

لديه مشـكلة واحدة سـدي الرئيس! لا يزال يحتفظ بالحمار وعربة الكارو في بيته الحكومي، حاولنا إقناعه بالتخلص منهما، لكنه يرد ضـاحكا أنه يخشـى أن يخرج في أول تعديل وزاري ولن يسـتطيع تدبير عيشـه بدون الحمار والعربة! لكننا عرفنا انه يخلع البذلة الرسـمية في نهاية الأسـبوع ويتخلص من الحراسة الملازمة له بدعوى أنه ذاهب لزيارة أمه المصابة برهاب السُلطة! ويرتدي جلبابه القديم وعمامته الممزقة ويعود للتجوال في الصحاري لشراء الذهب بدولاراته المزيفة!

عاد الكهنة سيدي الرئيس وكأن شيئا لم يحدث، حلقوا لحاهم وأنشئوا حزبا جديدا، أسموه حزب العدالة والتنمية، لا يخفون إعجابهم بالتجربة التركية، احتلوا نفس مقر حزبهم القديم، سحبوا يافطة الحزب القديمة ووضعوا اليافطة الجديدة في مكانها، ومن حسن حظهم تصادف رفع اللافتة الجديدة للحزب مع انتخابات برلمانية جديدة، سمحنا لهم بالفوز بنصف المقاعد، كانوا يطمعون في إحراز أغلبية عن طريق التزوير، لديهم خبرة طويلة في التزوير، يتحول صندوق الانتخابات بقدرة قادر إلى صندوق ملئ بأصوات تُحسب لهم، حتى المرشحون المنافسون لهم في نفس الدوائر الانتخابية لا يعثرون على بطاقات التصويت التي قاموا فيها بالتصويت لأنفسهم، يقولون : تلك معجزة! العناية الإلهية معنا! الحقيقة أنّ إبليس معهم، إبليس الذي بات يتعلم منهم، يقومون برشوة الحرّاس، يفرغون الصناديق من الأصوات المعادية ويعيدون حشوها بأصوات صالحة كلها، كلها في صالحهم! لكنهم عادوا أكثر أدبا توقفت كل محاولاتهم للوصول إلى الكُرسي، كرسي فخامتك، عادوا بنهم مضاعف للنهب، حتى رمال الصحراء عرضوها للبيع، أنشأ أحدهم شركة في جزر الأنتيل، قامت ببيع

وشـراء كل شـيء يخص وطننا في الخارج، بيت السـودان في لندن، والأرض التي كان يجب أن تشيّد عليها سفارة وطننا في جنوب أفريقيا، الأرض التي أهداها لوطننا المناضـل العظيم نيلسـون مانديلا، باعوا حتى أوقاف بلادنا في الأراضـي المقدسة! يسرقون وعينهم في الكعبة سيدي الرئيس! لم يوجد في التاريخ نهم جنوني للسـرقة والتزوير مثل نهم هؤلاء الكيزان لولا عناية الله والحراسة المشددة في المناطق المقدسة لسرقوا الحجر الأسود نفسه!

الحمد لله أنّ أسرتي بعيدة عن فسادهم!

يردد نفس العبارة حتى بعد أن خرج جنرال الأيام الصـعبة، يرافق الجنرال حتى غرفة الاستقبال، يجد العقيد سعد فضل الله في انتظار الإذن بمقابلته، كان يسـميه الناجي الوحيد، كان هو بالفعل الناجي الوحيد من الخلية التي أسـسـها صـديقه الراحل الجنرال عوف (أسكنه الله فسيح جناته) يداعبه قائلا: أشعر في وجودك بالأمان، قطعوا أذنيك وعلّقوك من رجليك طوال الليل، ولا زلت حيا!

يقول آليا في حضرة الناجي الوحيد: الحمد لله أن أسرتي بعيدة عن فسادهم!

لا تنس أنك أعطيتني الأمان في آخر مقابلة لي معك سـيدي الرئيس، يقولون أنّ الشركة المسجلة في جزر الأنتيل مسجلة باسم عدد من أخوان حزبك، وأحد أشقائك شريك معهم!

تلك إشاعة إخوانية للتغطية على فسادهم والإيحاء بأنّ الرئيس نفسه يشارك في فسادهم!

يقول: تعلموا على حساب الدولة سيدي الرئيس، بعضهم كان يقيم حتى في المرحلة الابتدائية في مدارس داخلية، تطعمهم الدولة وتعلمهم مجانا، وحين وصلوا إلى السلطة كان أول ما فعلوه أنهم ألغوا مجانية التعليم، فضاعت أجيال كاملة من أبناء شعبنا الفقراء سيدي الرئيس.

يقول السيد الرئيس: يريدون تلويث سيرة إخوتي معهم، تربينا في أسرة محافظة، كان والدي غنيا يملك مشروعا زراعيا، ينتج السمسم والذرة الفتريتة كان لدينا معصرة أمام البيت، نحن لا نحتاج لنسرق، كان لدينا معصرة، في البداية كان يجرها ثور، ثم قام والدي بتحديثها، أصبحت تعمل بواسطة موتور يعمل بالديزل.

كاد الناجي الوحيد من خلية الجنرال عوف أن يقول: يقولون في مواقع التواصل أنّ والدك كان فقيرا، وأنه كان مجرد عامل في تلك المعصرة التي تقول إن والدك كان يملكها! يمسك الناجي الوحيد فمه بقوة، يقولون أيضا إنه لولا مجانية التعليم لما استطعت أنت أو أشقائك من إكمال الدراسة! مجانية التعليم التي ألغاها نظامك بجرة قلم، فضاعت على وطننا عقول هي ثروته الحقيقية!

يردد آليا أسطوانة البراءة من فساد أخوان السلطة: والدي كان من أكبر المنتجين للفتريتة في السودان!

يضـــع الناجي الوحيد يده على فمه حتى لا تفلت كلمة واحدة، يتكبد مشـــاق الحضـــور إلى القصـــر رغم أنه يرى في كل مرة الكلاب الذين قاموا بتعذيبه، باغتصـــابه وقطع أذنيه، وخطف شقيقه، يراهم يجوبون ردهات القصر، رغم أن السيد الرئيس يقول: أعدناهم إلى الصـــفوف الخلفية، لا مكان للكهنة بعد اليوم، حتى الإلـــه آمون رع، المتواطئ مع الكهنـــة أحلنـــاه للتقاعد، هل رأيت تمثال الإله أبادماك في مدخل القصـــر؟ هل سمعت برئيس أحال إلها للتقاعد مثلما فعلت أنا؟!

لا يجرؤ النـــاجي الوحيـــد على القول إن الوحيـــد الـــذي أحيـــل للتقاعد منذ لحظة الانقلاب الأولى، هو أنت يا صاحب الفخامة! كيف تحيل إلها للتقاعد وأنت ســـلطاتك لا تتجاوز باب القصـــر الذي تقيم فيه! تستبدل في كل مرة كاهنا بكاهن!

يعيد نفي تهمة الفســاد عن أسـرته: كان أبي أكبر مُصـدّر للذرة الفتريتة

يمســـك الناجي الوحيد فمه بيده حتى لا يخطئ ويقول: يقال إن مالك المشـــروع طرد والدك لأنه اكتشـــف أن والدك كان يقوم بصـــناعة المريســـة من الذرة الفتريتة كان مدمنا على مريســـة الذرة، كان يسرق الذرة ليصنع المريسة، يحقق الاكتفاء الذاتي منها ويبيع الباقي لعمال الحصاد الاثيوبيين!

يحاول الناجي الوحيد ان يطرد أفكار مواقع التواصل من ذاكرته، كان السيد الرئيس قد حكى له أنه يستطيع قراءة أفكار وأحلام زوجته اثناء ممارسة الحب، يا للكارثة من يعلم هل تتوقف مواهبه الخارقة فقط في حدود الخلوة الشرعية، أم أنه يطوّر مقدراته ويستطيع قراءة أفكار الاخرين دون حاجة للحب!

رغم أنّ السيد الرئيس يمنحه الأمان، ليس فقط وفاء لذكرى صديقه الجنرال العظيم، الجنرال عوف، لكن ليرى من خلاله نبض الشارع، ليقرأ ما يحدث وراء جدران القصر، ليزيل من أذنيه بعض صدأ أكاذيب مستشاريه، أنّ الموسم الصيفي ناجح سيدي الرئيس لدرجة اننا لم نجد مكانا نُخزّن فيه محصول الذرة، بعد ان امتلأت كل الصوامع وكل البواخر التي تنقله خارج الوطن، فتركناه نهبا للطيور، نفس الطيور المهاجرة التي بدلا من أن يطعمها المستر أوباما، يفرض علينا مزيدا من العقوبات، يفرض العقوبات ويرسل لنا طيورهم الجائعة تقضي على محاصيلنا الصيفية !

الناجي الوحيد كان يحضر إلى القصر يوميا أملا في أن يساعده السيد الرئيس في العثور على شقيقه المفقود منذ سنوات، ماتت والدته بالحسرة عليه، وهو يشعر دائما بالذنب، فلم يكن لشقيقه أية نشاط سياسي، لكنهم اعتقلوه لإجباره هو على تسليم نفسه، وهو نفسه كان قد هرب خارج الوطن، وكان يُفكر

بالعودة ليفتدي شقيقه، لكن والدته توسّلت إليه بصوت مخنوق بالدموع ألا يحضـر، قالت له، ابق هناك، لا أريد أن أفقد أبنائي الاثنين!

يقول السـيد الرئيس: أخبرت الجنرال عوض سـليمان، إن كان لا يزال على قيد الحياة فإن الجنرال عوض هو الوحيد القادر على إحضاره!

يلاحظ الناجي الوحيد: كان الجنرال عوض مديرا لجهاز الأمن حين أُعتقل أخي!

يقول السـيد الرئيس، كان رئيسـا لجهاز الأمن، لكن التنظيم الإخواني كانت له أجهزة أمن متعددة، كل واحد من النافذين في التنظيم كان لديه جهاز أمن، يطلق كلابه على من يشـاء من معارضـيه! حتى لو كان هؤلاء المعارضـين من داخل التنظيم الإخواني نفسـه! معظم المفقودين اختفوا في تلـك الفترة، ومعظمهم اختطفهم أمن التنظيم، الأمن الشعبي!

00

بعد عام واحد خارج الوطن، عادت ثريا، لم يصارحها شقيقاها بحالة والدتهم الحاجة نور، وان حالتها كانت تسير من سيء إلى أسوأ منذ سفرها، لم يرغب شقيقاها في جعلها تترك زوجها وبيتها، ورغم أن أمها كانت تتحامل حين تتصل بها ثريا تليفونيا على نفسها، وتدّعي أنها في أفضل حال، حتى لا تكشف مقدار تعاستها بسبب غياب ثريا الذي نكأ جراح غياب عبد الرحيم.

تحسنت حال الأم بعد عودة ثريا، قررت ثريا أن تبحث عن عمل في مكان قريب من البيت، لم يعد ممكنا أن تبق لفترات طويلة بعيدا عن أمها، لذلك لم تفكر في البحث عن عمل يبعدها كثيرا عن البيت، كانت هناك مدرسة خاصة قريبة جدا من البيت، فكرت أنها لو وجدت عملا معهم، يمكنها كلما وجدت بعض الوقت أن تحضر بسرعة إلى البيت لتطمئن على أمها.

أخبرها بدر شـــقيقها أنّ أحد زملائه في الجامعة تربطه علاقة أسرية مع مدير المدرسة، ويمكنه أن يساعد في الوصول إلى المدير، لكن ثريا آثرت أن تذهب بنفســـها، تركت والدتها في رعاية جارتهم فاطمة التي حضرت لزيارتهم، وحملت شهاداتها وذهبت إلى المدرسة، لحسن الحظ أن المدير لم يكن مشغولا، أبلغته برغبتها بالعمل معهم، نظر المدير إلى شهاداتها، وأبدى إعجابه بمســـتواها التعليمي، قال لها: تخرجت من مدرســـة الرياضيات بمستوى رفيع، يمكنك العثور على وظيفة أفضل بدخل كبير، أو يمكنك حتى مواصـــلة دراســـتك والعمل في الجامعة نفســـها، شـــرحت له ثريا ظروف والدتها وأنها كانت تقيم أصـــلا خارج الوطن، لكنها فضّـــلت العودة لتكون بجانب أمها، رحّب الرجل بها وأوضـــح أنهم بالفعل في حاجة لمدرس في مادة الحســـاب، طلب منها أن تترك له رقم هاتفها وســـوف يتصـــل بها خلال أيام بعد الحصـــول على موافقة مجلس إدارة المدرسة.

لم يتأخر كثيرا، بعد ثلاثة أيام اتصـــل بها وأبلغها أنها يمكن أن تبدأ العمل من الغد أن رغبت في ذلك، وافقت فورا، طلب منها إحضار بطاقتها الشخصية معها لتوقيع العقد.

وجدت ثريا في العمل بالتدريس متعة عظيمة، لم يكن ذلك العمل من ضمن خططها في فترة الدراسة، كما أنّ وجود مكان

العمل بالقرب من البيت، أعطاها الوقت الكافي لرعاية والدتها وللحضور للبيت بسرعة في أية لحظة تحتاج أمها إليها.

عملت فقط لثلاثة أشـــهر قبل أن تبدأ عطلة الصـــيف، اقترحت عليها والدتها أن تقضي العطلة مع زوجها، رضخت أمام إلحاح أمها، لحسن الحظ كان إذن الإقامة ساريا ولا تحتاج للاتصال بزوجها ليرسل لها دعوة تحصل بموجبها على فيزا للزيارة.

أرسل لها زوجها تذكرة السفر، ورغم إصرار أمها عليها أن تقضـــي العطلة كلها مع زوجها لكنها آثرت أن تعود بعد ثلاثة أسابيع أو شهر على الأكثر.

قالت لها الحاجة نور أنا بخير، تحسنت صحتي كثيرا وأستطيع أن أقوم بنفســي بكل شــيء، وســيرتب بدر وســمير ســاعات عملهما ليبق أحدهما معي ، كما أن جارتنا فاطمة تزورني يوميا وهي دائما مستعدة للحضور والمساعدة في أي شيء، في الطبخ وتنظيف البيت، لكن بمجرد ســـفر ثريا، عاودتها نوبات الحزن الشديد والشعور بالوحدة.

فاطمة جارتهم كانت تحضر يوميا، تعد لهم الأكل، رغم أن بدر وســـمير كأنا يبذلان أيضـــا جهدا لتنظيف البيت وإعداد الاكل، أقنعتهما فاطمة أن يتركا لها مهمة اعداد الأكل لوالدتهم، تقول لهما: الأكل الذي تعدانه لذيذ، لكنه لا يصـــلح لمريض بارتفاع ضـــغط الدم! أوضـــحت حين لاحظت أنهما لا يفهمان الفرق: والدتي كانت مصابة بارتفاع الضغط وزوجي أيضا لديه نفس

المشكلة، لذلك أنا معتادة على طبخ الاكل بملح قليل وبقليل من لحم الدجاج، أو أعد لهما السمك، وتقول باسمة: اللحم الأحمر هذا يصلح للشباب مثلكما، تمارسان الرياضة، حتى إن لم تلعبا الكرة، مطاردة المواصلات العامة أيضا رياضة، كل من يقيم في هذه المدينة المزدحمة يمارس الرياضة إجباريا، حكت لهما أنها ذهبت مرة لزيارة أقاربها في أحد الأحياء الواقعة في طرف المدينة، وأنها نجت من الموت، حين اضطرت للجري وهي تطارد الحافلة أملا في الحصول على مقعد تجلس عليه، لكنها سقطت أرضا ولولا أن احدهم دفعها بعيدا في اللحظة الأخيرة لسقطت أسفل إطارات الحافلة.

لاحظت فاطمة أنّ الحاجة نور لا تأكل إلا قليلا، وانّ مسحة الحزن في وجهها تزداد مع مرور الأيام، سمعت الحاجة نور تقول يوما: لو أستطيع مقابلته سأُقبل قدميه وأطلب منه أن يأمر بإطلاق سراح ولدي!

سألتها فاطمة: من تقصدين يا خالة؟

قالت الحاجة نور: أقصد رئيس الدولة!

فكرت فاطمة وقالت: من يستطيع مقابلته، يقال إنه يسافر كثيرا، يعيش في الجو أكثر من بقائه على الأرض، ثم فكرت وقالت، هل تذكرين صديقتي شريفة؟ جاءت معي هنا لزيارتك قبل سنة أو أكثر.

لم يبد على الحاجة نور أنها تذكرت.

أوضحت فاطمة: تحضر لزيارتي من وقت لآخر، كنت أسكن في جوارهم قبل سنوات، قبل أن ننتقل إلى بيتنا هذا، لكن علاقتنا لم تنقطع، زوجها يعمل مع حرس الرئيس حسب ما فهمت منها قبل سنوات، اعتقد أنه كان ضابطا في الجيش أو الشرطة لا اذكر، سأطلب منها أن تسأل زوجها أن كانت مقابلة الرئيس ممكنة وإن كان يستطيع المساعدة في ذلك.

انفرجت أسارير الحاجة نور للمرة الأولى منذ أكثر من عشر سنوات، سرت عدوى الفرح في البيت، حتى فاطمة أصيبت بعدوى الفرح رغم أنها لم تكن متأكدة حتى تلك اللحظة إن كانت محاولة مقابلة الرئيس ستنجح أم لا، لكنها حاولت أن ترفع من معنويات العجوز إلى أقصى حد ممكن، قالت: أتمنى أن نتمكن من مقابلته وأن يستطيع عمل شيء لمساعدتنا، سمعت أنه قام بطرد بعض قادة الإخوان المسلمين من حكومته، يقول الناس إنهم سبب الفساد والحروب واعتقال الناس بدون سبب ومطاردة الشباب المساكين في الشوارع والأسواق، وإرسالهم إلى الحرب، مات عدد كبير من الشباب الأبرياء في حرب لا يعرف أحد متى ستنتهي.

ساعدت فاطمة الحاجة نور لتتوضأ لصلاة المغرب، استغرقت الحاجة نور في الدعاء بعد الصلاة، دعت الله أن تتمكن من مقابلة الرئيس وأن يساعدها في العثور على ابنها، شعرت

فاطمة بالخوف كانت دموع الحاجة نور تنزل غزيرة على وجهها وهي تدعو الله أن يتيح لها لقاء ابنها قبل موتها، خشيت فاطمة ألا تتمكن صديقتها من المساعدة ويضيع كل الجهد الذي بذلته لرفع معنويات العجوز، التي أرهقها الحزن الطويل.

حاولت حتى يصل أبناء الحاجة نور إلى البيت أن تحكي لها بعض القصص والمواقف الطريفة، التي تحدث لها كلما ذهبت لشراء مستلزمات البيت من سوق الخضروات القريب، قالت بسبب إنها تقضي وقتا طويلا مع الباعة، تجادلهم في الأسعار كلما ذهبت لشراء الخضروات، أصبحت تعرف معظم الباعة، حكى لها أحد الباعة حين ناقشته في سبب ارتفاع أسعار الخضروات كل يوم رغم أن معظمها يُنتج في مزارع حول العاصمة، ولا تكلفهم كثيرا في ترحيلها، حكى لها أن الحياة أصبحت تكلف كثيرا، وتلفت حواليه قبل أن يقول بحذر، قبل وصول هذه الحكومة للسلطة لم يتعب آبائنا كثيرا، كان التعليم مجانا، وكان العلاج في المستشفيات الحكومية مجانا، الآن حين يمرض أحد أطفالي اضطر للاستدانة لدفع تكاليف العلاج، لا يعطون الطفل حبة دواء إن لم أدفع ثمنها أولا، ألم تسمعي قصة الطفل الذي توفي في إحدى المستشفيات الغالية أثناء عملية جراحية، ورفضت المستشفى تسليم الأب جثة ابنه ليقوم بدفنها قبل أن يدفع للمستشفى بقية تكلفة العملية الجراحية! كما أنه بسبب تطور الحياة أصبحت هناك منصرفات كثيرة،

حتى الأطفال يريدون نقود إضـــافية لشـــراء رصـــيد لجهاز الموبايل، زوجتي أيضـــا أصـــبحت حياتها كلها في داخل هذا الجهاز العجيب الشبيه بمنشار يستهلك كل ما نحصل عليه من دخل. ثم ضحك وحكى لي قصة بائع زميل اشترى جهاز موبايل قبل فترة، بعد أن ظل طوال ســـنوات يرفض اقتنـاء الجهـاز، مبررا ذلك بأن من صنع هذا الجهاز يريد التجسس على الناس! وكان زملائه وأصـــدقائه يســـخرون منه! ماذا ســـتريد أجهزة المخابرات من بائع خيار وجرجير! في النهاية اقتنع بأنه يجب أن يشتري جهاز موبايل، وبسبب أنه لا علاقات كثيرة له، بقي الموبايل بجانبه صـامتا طوال الوقت، تحولت أسـئلة الناس من حوله إلى: لماذا يبق جهازك طوال الوقت صـــامتا، ألا تخشـــى زوجتك أن تتعرف إلى امرأة أخرى وأنت تعود إلى البيت كل يوم متأخرا؟ يجب أن تتصـــل بك من وقت لآخر حتى تتأكد أنك مشغول في عملك، وليس مع النساء!

كان يرد بسرعة وحسم: لست متزوجا!

لمـاذا لا تتزوج! تريد أن تجمع المـال طوال حيـاتك؟ افرض أن سيارة صدمتك أو سقطت صاعقة في الخريف فوق رأسك، من سيرث كل هذا المال الذي تجمعه ليلا ونـهارا!

وحتى يجد حلا لمشـكلة عدم الاتصـال بـه، طلب من أحد زملائـه في السوق سرا أن يتصل بـه، اعتذر الزميل أن تليفونـه خـال من الرصـيد ولن يسـتطيع الاتصـال بـه، أعطى زميلـه ثمن الرصـيد

ولبث في الانتظار بعد أن أبلغ جميع جيرانه في السوق أنه في انتظار محادثة تليفونية مهمة اليوم! لكن الاتصال لم يتم، يبدو أن صديقه كان جائعا ومحتاجا للمال وبدلا من شراء رصيد للموبايل، ذهب إلى مطعم قريب من السوق واشترى وجبة سمك مقلي، والمصيبة أنه قام بإبلاغ الجميع بالقصة، وفي حين كان زميلهم البائع يعلن أنه في انتظار محادثة مهمة، كان الجميع يستغرقون في الضحك لأنهم يعرفون أن النقود التي دفعت للاتصال التليفوني ذهبت الى مطعم السمك!

ابتسمت الحاجة نور قليلا، ولحسن الحظ وصل أبنائها في تلك اللحظة، فودعتهم فاطمة لتعود الى بيتها.

00

مضت أيام طويلة، كان الأمل يرتفع أحيانا في قلب الحاجة نور، قبل أن يخبو فجأة حين تمر أيام دون أن تسمع شيئا جديدا يحقن الحياة في شرايين الأمل، أخبرتها فاطمة بعد أيام أنها تحادثت مع صديقتها، وقد وعدت الصديقة بان تتحدث مع زوجها في الأمر، أعطى احتمال حدوث شيء قريب دفعة قوية لآمال الحاجة نور في قرب رؤيتها لابنها، مضت أيام دون أن تسمع فاطمة شيئا من صديقتها، لكنها كانت تواصل محاولة بث الأمل في قلب الحاجة نور، أخيرا اتصلت الصديقة، زوجها يعمل الآن في حراسة الزوجة الثانية للجنرال، تحدث مع زوجة الجنرال، وقد وعدته رغم مشاغلها بترتيب اللقاء مع الجنرال.

تحادث بدر الدين مع فاطمة، أوقف فاطمة أمام باب البيت وهي تهم بالمغادرة حتى لا تسمع أمه بكلامه مع جارتهم، أوضح لها أنه يخشى لو استطاعت والدته لقاء الرئيس، أن يعطيها ذلك اللقاء الأمل في أنّ عبد الرحيم سيعود قريبا، لكنه سمع أنّ أشخاصا كثيرين سعوا للقاء مسئولين حكوميين بخصوص

ذويهم المفقودين، تلقوا وعودا بحل المشـــكلـة ثم لم يحـدث شـيء، إنه يخشـى أن تكون الصـدمة على أمه كبيرة، لأنّ عدم حدوث شـيء بعد مقابلة الرئيس سـيعني بالنسـبة لها أنّ أسـوأ الاحتمالات قد وقع فعلا، لكن فاطمة كان لها رأي مختلف، قالت إنّ الحاجة نور قد أرهقها الصـبر والانتظار، وأنها بحاجة لبذل محاولة للوصـــول إلى ابنها، تعطيها بعض القوة لتحمل رهق الانتظار دون أمل، أوضـــحت: ولماذا لا نتوقع حتى لو بنســـبة قليلة، أنّ لقاء الرئيس هذا قد يثمر حلا للمشكلة؟

شـرح لها بدر الدين وجهة نظره: بدلا من اللقاء لو قمنا بكتابة عريضـــة وأرســـلناها عبر نفس هؤلاء الناس إلى الرئيس، قد يكون الانتظار لنتيجة العريضة مجديا أكثر، حتى لو طال انتظار الرد، فيمكن دائمـا القول إن الرئيس يتلقى عرائض كثيرة، إضافة لأسفاره ومشاغله الأخرى، ويحتاج لشهور طويلة للرد عليها.

فكرت فاطمة قليلا وقالت: أعتقد أن فكرة العريضـــة فكرة جيدة وممكنـة، لكن زوج صـــديقتي تحدث على كل حال مع زوجة الرئيس، ترتيب المقابلة نفســه مؤكد ليس ســهلا، أن نجح ذلك فدعنا نجربه وإن لم ينجح نلجأ لفكرة العريضـــة، وهي طبعا سيكون إرسالها للرئيس أكثر سهولة من محاولة ترتيب لقاء.

لم يبد على بدر الدين أنـه اقتنع تمـامـا، لكنـه شـــكرها على مجهودها وقال ليس علينا إذن سوى الانتظار.

كانت ثريا تتصل يوميا للاطمئنان على والدتها، لم تخبرها الأم بأنها قد تقابل الرئيس قريبا، خشيت أن تعترض ثريا على الفكرة، اعترضت ثريا عدة مرات على أية محاولات للوصول إلى بعض النافذين في النظام، كانت تقول إنهم جميعا يكذبون، يتبادلون الأدوار، يزعم بعضهم التعاطف مع ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان، بينما هم جميعا جزء من هذه الانتهاكات وتتم بعلمهم.

بعد أيام اتصلت فاطمة، كان بدر الدين في مكان عمله في ذلك الوقت، رد عليها سمير الذي بقي مع والدته ذلك النهار، أخبرته أن زوج صديقتها سيحضر بعد يومين لاصطحاب الحاجة نور ويمكن لأحدهما مرافقتها وأنها ستكون معهم.

لم يكن بدر الدين سعيدا بفكرة لقاء الرئيس، لكن لم يكن هناك بد من الذهاب معها، على الأقل حتى يشهد ما سيقوله الرئيس، كان قد سمع أن مندوبا من المفوضية السامية لحقوق الإنسان سيزور البلاد قريبا، وربما يتمكن من مقابلته، لم يكن متأكدا إن كان هو نفس المندوب الذي قدّم له قبل سنوات عريضة يشرح فيها قضية اختفاء شقيقه وفشل كل جهودهم لاستجلاء مصيره.

جاءت فاطمة مبكرا في اليوم الموعود، ساعدت الحاجة نور على الاستحمام وارتداء ملابسها، كان واضحا تفاؤل الحاجة نور بلقائها المنتظر مع رئيس الجمهورية. حتى أنها للمرة

الأولى منذ سنوات وجدت الشجاعة لترتدي الثوب الذي كانت ترتديه يوم زفاف عبد الرحيم الذي لم يكتمل، ظلت تتحاشى ذلك الثوب طوال سنوات، حتى أنها وضعته أسفل كومة من الملابس في خزانة ثيابها حتى لا تقع عيناها عليه ولا بالصدفة، فتنفتح جروح تلك الليلة التي ظلت تنزف لأكثر من عشر سنوات، كان ثوبا قطنيا بلون سماوي، مصنوع في سويسرا، أحضره عبد الرحيم لها لترتديه في ليلة زفافه.

جاء الضابط زوج صديقتها في الموعد، رفض دعوة بدر الدين للدخول إلى البيت لشراب كوب من الشاي ، اعتذر بأنهم قد يتأخرون في الوصول بسبب ازدحام طرقات المدينة، كان اذان العشاء ينطلق من مساجد المدنية حين انطلقت السيارة تعبر شوارع المدينة التي خففت أنسام الليل الزاحفة، من الحرارة القاتلة التي تكاد تذيب كل شيء أثناء النهار الطويل.

توقفت السيارة في مدخل قيادة الجيش، ورغم أن صاحب السيارة يعمل في المكان لكن السيارة تعرضت لتفتيش دقيق، وتمت مراجعة هويات ركابها وتفتيش ملابسهم قبل السماح لها بالعبور، توقفت السيارة أمام بوابة منزلة الرئيس، نزل الضابط وتحادث قليلا مع الحراس أمام البيت، عاد الضابط ليطلب من مرافقيه البقاء داخل السيارة لدواعي الأمن، أبلغهم أنه أرسل لزوجة الرئيس حسب اتفاقه معها وأنه ينتظر الإذن بالدخول، طال انتظارهم لأكثر من ساعة. شعر بدر الدين

بالضـيق والغضـب لكنه كظم غيظه، ربما انشـغل الرجل بأمور عاجلة، كان يشعر بعدم ارتياح تجاه المقابلة، والدته ليست في حاجة لصدمة أخرى، لكنه لم يشأ أن يغلق أية نافذة للأمل حتى لو كانت ضيقة لا ينفذ منها شعاع ضوء واحد.

اعتذر لهم الضـابط مرة أخرى، كان ينظر في سـاعته قلقا، قال ربما هناك اجتماع طارئ أو محادثة تليفونية مهمة، أفضـل أن ننتظر قليلا بدلا من محاولة عمل موعد جديد قد يسـتغرق أشهرا.

فجأة انفتحت بوابة البيت، ظهرت زوجة الرئيس، كان معها ثلاثة مرافقين، نادت على الضـابط، وتحدثت معه بسـرعة، ثم استقلت إحدى السيارات الواقفة وغادرت المكان.

عاد الرجل، كان واضـحا أنه يشـعر بالحرج، قال بعد تردد: أنا في غاية الأسـف السـيدة أوضـحت لي أنّ السـيد الرئيس غادر قبل فترة بسبب اجتماع عاجل لم يكن في جدول أعماله.

صمت الجميع تحت تأثير الصدمة، كان بدر الدين ينظر إلى أمه بخوف، رأى والدته متماسـكة رغم خيبة الأمل، شـعر الضـابط أنهم تفهموا الأمر فاسـتأذن منهم لدقيقة واحدة، فقد رأى أحد زملائه في طاقم الحراسـة وصـل في تلك اللحظة، ويريد أن يسـأله من شـيء ما قبل أن ينطلقوا عائدين، طالبا منهم ألا يقلقوا وأنه سـيبذل جهدا مضـاعفا لعمل موعد جديد في أقرب فرصة ممكنة.

شـــاهدوا الضـــابط يقف جانبا مع زميله الذي وصـــل قبل قليل، يتحادثان بعيدا قليلا عن طاقم الحراسة أمام بيت الرئيس، فجأة انفتح الباب مرة أخرى. لمعت نجوم البذلة العسكرية، شـاهدوا الجنرال وسط رجاله يخرج من البيت.

قبل أن يتدارك بدر الدين أو فاطمة صـــدمة ظهور الرجل رغم قول زوجته إنه غادر المكان مبكرا، قامت الحاجة نور بسـرعة بفتح باب السيارة، ورغم أنها كانت تمشي بصعوبة في الفترة الأخيرة بسبب آلام المفاصل وآلام الركبة، لكنها سارت بنشاط وبخطوات واســـعة حتى اقتربت من الســـيد الرئيس، الذي لم يتوقف رغم أنّ العجوز كانت تتوسـل إليه ليستمع إليها، دفعها الحرس لإبعادها عن السيد الرئيس، فسقطت أرضا، لم يتوقف السـيد الرئيس ولم يتوقف حرّاسـه الأربعة، اسـتقلوا السـيارة التي انطلقت بسرعة.

أسرع بدر الدين باتجاه أمه، وجاء الضابط راكضا يبدو أنه لم ينتبه للمشـــهد منذ بدايته، رفعا الحاجة نور من على الأرض، كان واضـحا أنها لا تقوى على المشـي، حملاها ووضـعاها في السيارة، كان صدر السيدة العجوز يعلو ويهبط بسـرعة، وبدا واضـحا أنها تعاني من صـعوبة في التنفس، اقترح الضـابط أن ينقلهم إلى أقرب مســتشــفى، حاول الضـــابط اختصـــار الوقت بقيادة سيارته في شوارع جانبية حتى يتفادى ازدحام الشوارع المكتظة بالسيارات رغم تأخر الوقت.

توقفت السيارة داخل المستشفى، طلب الضابط قبل أن يوقف سيارته من أحد العاملين إحضار نقالة بسرعة لنقل المريضة.

في تلك اللحظة تحديدا وبين ذراعي ولدها أسلمت الحاجة نور الهدى عبد الرحمن، الروح. كانت حركة الجسد قد همدت حين وضعوها على النقالة، فحصها الطبيب بسرعة، قبل أن يعلن وفاتها.

00

استيقظوا على مشهد البنادق في وجوههم، كان الوقت فجرا، تحت تهديد السلاح خرجت المجموعة كلها، كانت هناك حافلة في انتظارهم في الخارج، شلّت المفاجأة قدرة سعيد على التفكير، شعر أنّ كل ما بناه وخطط له خلال الفترة الماضية على وشك أن يضيع، سيكون مصيرهم مجهولا، كان قد سمع أن المهاجرين الأفارقة يتعرضون للخطف ويباعون كرقيق، لتشغيلهم في المزارع والمصانع، تحدّث منسق الرحلة عن جماعات متطرفة تحاول اختطاف قوارب المهاجرين لكنه لم يحذرهم من احتمال جماعات قد تداهم البيت الذي حسبوه آمنا وبعيدا عن الأعين.

شعر سعيد أنّ الموت الذي نجا منه في معتقلات جهاز الأمن سيتمكن منه أخيرا في هذه البلاد النائية، داخل السيارة قاموا

بعصب عيونهم جميعا، حتى لا يتعرف أحدهم على المكان الذي سيأخذونهم إليه.

أخذوهم إلى مخيم خارج المدينة في منطقة جبلية على مشارف الصحراء، حين أزالوا العصابة من عينيه شاهد سعيد علم الدولة الإسلامية الأسود، كان هناك عدد من الشباب صغار السن يخضعون لتدريبات رياضية.

وضعوهم في خيمة كبيرة على يمين المعسكر، في الجانب المقابل كانت هناك خيم أخرى لمجموعات التنظيم وخيم أخرى للنساء والأطفال، تطل كلها على ساحة التدريب في الوسط، وفي الجانب الشمالي خيمة أخرى أكبر حجما تستخدم كمسجد.

تولى أربعة من الشباب حراستهم، لم يكن مسموحا لهم الخروج من الخيمة الا لأداء الصلاة أو قضاء الحاجة، يتولى الحراس إحضار الطعام مرتين في اليوم، أشاروا للمرأة الوحيدة زوجة الشاب الأثيوبي لتذهب إلى خيمة النساء.

استيقظ سعيد صباح اليوم التالي مرهقا من النوم على الأرض، سمح له الحراس بالذهاب إلى المرحاض الواقع خلف المعسكر، شاهدهم يتدربون من على البعد، يحمل بعضهم صواريخ على الكتف يبدو أنها صواريخ مضادة للطائرات، تذكر قول الخبير الذي قاد رحلتهم عبر الصحراء، أنّ طيران بعض الدول المجاورة يقوم بغارات مستهدفا معسكرات تنظيم الدولة الإسلامية.

شـــاهد خيمـة أخرى أكبر حجمـا لم يرهـا بـالأمس، تقع خلف المســجد بين تلال صــغيرة من الرمال، لا يبدو أنـها تســتخدم للسـكن، خمّن أنـها تسـتخدم كمخزن للمعدات وربما الأسـلحة، شـــاهد في نفس الاتجاه بعيدا قليلا من خيمة المخزن، ســيارة تكاد تكون مغطاة بالرمال، لولا انعكاس ضـــوء الشـــمس على جزء من زجاجها الأمامي غير المطمور في الرمال، لما لاحظها سـعيد، لم يعرف أن كان ذلك مقصـودا لتمويه السـيارة، أم أن الرمال الزاحفة غطتها بسبب عدم استخدامها لفترة طويلة، لم ير العربـة التي أقلتهم بعد اختطـافهم ربمـا يحتفظون بعربـاتهم داخل الخيمة الكبيرة..

المرحاض كان مجرد خيمة صـــغيرة بداخلها حفرة عميقة في الرمـال مثبتـة حوافها بـأعواد وقطع من الخشـــب، تفوح منـها رائحـة الأمونيـا، اســـتيقظت مجموعتهم، كـان لا يزال الرعب مخيما على المجموعة، مجرد وقوعهم في يد داعش كان يعني أسـوأ الاحتمالات، اسـتدعوهم كل واحد منهم على حدة لمقابلة شـــخص اســـمـه أبو النعمـان، أبلغهم أبو النعمـان أنّ إطلاق سراحهم مشروط بدفع فدية، طلب منهم إحضار أرقام تليفونـات أهلهم، أبلغه سعيد بأن أسرته فقيرة ولا تستطيع تدبير المبلغ، نصـــحـه أبو النعمـان أن يتصـــل بهم ليقوموا بتـدبير المبلغ المطلوب، لأن البديل عن الدفع سـيكون أمرا سـيئا، أعطاه أبو النعمان الهاتف وطلب منه أن يتصـل أمامه، شـرح له سـعيد وضـع أسرته مرة أخرى، ثم أوضـح له أنه دفع مبلغا من المال

للرجل الذي سينظم سفرهم عبر البحر، ومن الأفضل أن يتصل به ليعيد له المبلغ المدفوع ويمكنه أن يدفعه لهم مقابل إطلاق سراحه، تردد الرجل قليلا، ثم سمح له بالاتصال بالرجل بشرط أن يكون حذرا، وأن يطلب منه فقط تسليم المبلغ إلى شخص سيرسلون له رقم تليفونه.

بمجرد أن أدار الرقم وعرّف نفسه، بدأ الرجل يصرخ متسائلا أين أنتم؟ كان مفروضا أن تسافروا فجر الأمس، شرح له سعيد باقتضاب أنهم بسبب ظروف طارئة لا يستطيعون السفر الآن، وأنه يريد استعادة المبلغ الذي دفعه له، لكن الرجل كان يصيح من الجانب الآخر: لا أستطيع إعادة المال لك، لقد دفعته للجهة التي تنظم الرحلة والمشكلة أنكم لم تسافروا في الرحلة المحددة، وهم يرفضون إعادة المال الذي دفعته لهم!

حاول بعض المحتجزين الاتصال بذويهم، شرح لهم الرجل الأثيوبي أن أسرته لا تملك مالا وأنه مسافر ليحاول مساعدة أسرته، لكن أبو النعمان هدده، وأمهله أسبوعا واحدا والى فإنه سيدفع حياته ثمنا.

قال الشاب الأثيوبي بعد عودته من مقابلة أبو النعمان: أخشى أنهم سيقتلوننا لأننا لسنا مسلمين ولا نملك مالا!

قال سعيد : لقد هددونا جميعا بالموت، لا أعتقد أنهم ينظرون إلى الديانة بل إلى المال، ونحن جميعا لا نملك المال!

قال الشـاب الأثيوبي: اتصـلت امامه بأخي، لكنني أعرف أنه لا يستطيع عمل شيء، لو كنت أملك هذا المال ما غامرت بحياتي من أجل الهجرة!

مرّت الأيـام كئيبـة، لاحظوا أنّ الـدواعش يضـيّقون عليهم الخنـاق، ويراقبونـهم على مدار السـاعة، في اليوم السـابع اسـتدعوهم خارجا، أوقفوهم في صـف وكأنهم سـيقومون بإعدامهم، تقدم أحد مقاتليهم شـاهرا مسـدسـا، أطلق منه رصـاصـة على الشـاب الأثيوبي في رأسـه أردته قتيلا، كانت زوجته تصـرخ حين حملها اثنان من الدواعش وأعاداها إلى الخيمة التي تقيم فيها النساء.

قال الرجل وهو لا يزال شـاهرا مسـدسـه: أمامكم ثلاثة أيام إما الدفع أو سـتواجهون نفس المصـير، وأشـار إلى جثة الأثيوبي الغارقة في الدماء.

أعادوهم إلى خيمتهم، كان الشـعور بالصـدمة والحزن الشـديد على اغتيـال رفيق الرحلـة الأثيوبي امـامهم يمنعهم حتى من الكلام، شعروا أنّ إعدام الرجل بتلك الصورة البشعة، يحبط آخر أمل في احتمال نجاتهم، وأنّ نفس المشـهد سـيتكرر خلال ساعات، في رؤوسهم.

اتصـل سـعيد مرة أخرى بمنسـق الرحلة، لم يرد الرجل إلا بعد أن كرّر الاتصـال بـه عدة مرات، قـال لـه الرجـل نعرف أن الـدواعش يحتجزونكم ولا تسـتطيع الكلام، الموقف صـعب

حاولت أن اســترجع المال لكن أقصــى ما حصــلت عليه أنهم ســينقلونكم إلى أوروبا إذا أمكن لكم الهروب من الدواعش، ودون أن ينتظر منه الرجل جوابا حاول أن يشــرح له بعض الإشارات التي يمكن تتبعها في الصحراء للوصول إلى ساحل البحر.

اضطر سعيد أن يختم المحادثة لأن الرجل كان ينظر إليه بشك، قال للمنسق: أرجو أن تبذل جهدك لاستعادة مال الرحلة بسرعة وسوف نرسل لك رقم الرجل الذي سيستلم منك المال.

مرّ يومان وبقي يوم واحد على المهلة، لاحظوا أن الدواعش زادوا من الحراسة حولهم ليلا، حتى لا يفكر أحد في الهرب.

في الليلة الأخيرة ودعوا بعضــهم البعض، لم تكن هناك أي نتيجة للاتصالات التليفونية بأسر المعتقلين، عرفوا أن ليلتهم تلك ستكون الأخيرة، وأنهم ربما يتم إعدامهم قبل بزوغ شمس اليوم التالي، بقي ســعيد الذي لم يســتطع النوم بســهولة في استعراض حياته، تذكر أنّ والده حرص على تعليمه السباحة بسبب حوادث غرق شهدتها بلدتهم لبعض الشباب في موسم المطر حين تمتلئ الفولة والبرك والخيران الموسمية، أصبحت السباحة هوايته الأثيرة، حتى أنه شارك في بعض مسابقات السباحة في الخرطوم وكان يفوز دائما بمراكز متقدمة، سخر منه أصــدقائه في الخرطوم في البداية حين أعلن لهم أنه يجيد

السباحة، قال له أحدهم: أين تعلمت السباحة؟ هل كنت تسبح في الرمال؟ لا توجد أنهار في غرب البلاد!

شرح لهم أن مدينتهم والمناطق المحيطة بها كانت تتحول في موسم المطر إلى بحر كبير، لكن أحدا لم يصدقه، قال أحدهم: كيف تسبح في ماء المطر؟ ولا حظ صديق آخر: منطقتكم الأرض فيها رملية لا تبق قطرة ماء على سطح الأرض بعد دقائق من هطول المطر! لابد أنك تقصد بحر الرمال!

دعاهم لزيارة مدينته في الخريف، لبى اثنان من أصدقائه الدعوة، فوجئوا بالأمطار الغزيرة والبرك والخيران، التي أدت لإغلاق الطرق، ما أدى لاحتجازهم في البلدة لحين انتهاء موسم المطر.

أثناء الطريق عبر الصحراء كان دائما يشعر بالفرح لاستطاعته تعلم السباحة، ربما يساعده ذلك في سفره الطويل، فقد سمع أن كثيرا من الناس يفقدون حياتهم بسبب عدم إجادتهم للسباحة حين تتعطل القوارب التي تقلهم أو تغرق بسبب الرياح والأمواج العاتية.

كانت الليلة الأخيرة في تلك الصحراء القاحلة، نظر سعيد من ثقب في الخيمة، كان ثلاثة حرّاس يتمشون جيئة وذهابا مثل رجال آليين، فيما قمر ساحر يغرق العالم في ضوء الفضة الباردة.

00

استيقظ سعيد على صوت انفجار قوي اهتزت له الأرض، قفز من مكانه مفزوعا معتقدا أن حفلة الإعدام بدأت، نظر إلى ساعته كان الوقت الواحدة بعد منتصف الليل شاهد النيران في بعض الخيام، كان بعض رفاقه قد استيقظوا أيضا على وقع الانفجار، كان أول ما فكّر سعيد، أن المعسكر ربما يتعرض لهجوم، نظر في الخارج فلم يجد لحرّاسهم أثرا، نبه رفاقه أنهم يجب أن يبتعدوا من المكان بسرعة ربما يكون الهجوم مستمرا، خرجوا بسرعة وانطلقوا إلى التلال المحيطة، شاهدوا شبحا في ضوء القمر وأضواء نيران المعسكر يتجه نحوهم، حسبوا في البداية أنه أحد الدواعش لكنهم اكتشفوا أنها السيدة الأثيوبية زوجة الرجل الذي قتله الدواعش. قالت لهم أنّ الدواعش هربوا قبل أن تسقط القنابل في المكان، جاءوا فجأة وأيقظوا النساء والأطفال ولاذوا بالفرار، خرجت هي من خلفهم في الوقت المناسب قبل أن تبدأ الغارة شاهدت أشباح سياراتهم تبتعد وهي مطفأة الأنوار باتجاه الصحراء.

انبطحوا أرضـا بين تلال الرمال بعيدا قليلا عن المعسـكر، رفع سـعيد رأسـه لم يكن هناك اثر لطائرات في الجو، قال يبدو أن الغارة اسـتهدفت مخازن السـلاح، كانت هي الخيمة الوحيدة التي لا زالت النيران تشـتعل فيها، قال مفسـرا كلام السـيدة الأثيوبية حول أن الدواعش هربوا قبل وقوع الغارة، لابد أنهم تلقوا تحذيرا من جهة ما.

لاحظ أحد المهاجرين: غريب أن الغارة لم تسـتهدف الخيمة التي نسكن فيها أو حتى الخيمة التي يقيم فيها الدواعش، علّق سـعيد: لابد أنهم يعلمون بوجود محتجزين مع الدواعش، أو أنهم رصدوا هروب الدواعش فاستهدفوا فقط مخازن السلاح.

كان الجو هادئا، اقترح سـعيد أن يقوموا بالهرب بعيدا من المكان، ربما يعود الدواعش مرة أخرى.

تسـاءل أحد رفقاء الرحلة: إلى أين نذهب نحن لا نعرف حتى أين نحن؟ وسيكون انتحارا أن حاولنا التوغل في هذه الصحراء دون معرفة!

أوضـح سـعيد أن المنسـق شـرح له كيف يتجه شـمالا باتجاه البحر بتتبع النجم القبطي، قال: إن المسافة كانت حوالي ساعة قطعناها من مصـراتة إلى هذه المنطقة. قد يعني ذلك مسـيرة يوم، فكّر سعيد قليلا ثم قال عندي فكرة، تبعته المجموعة وهو يتجه خلف المخزن المحترق حيث رأى السـيارة المدفونة في الرمال، كانت لا تزال في مكانها، قال لهم أن نجحنا في إخراج

السـيارة من الرمال واسـتطعنا إدارة المحرك ربما يمكننا الوصول بسرعة إلى مصراتة، بالطبع لا أعلم أن كانت العربة تعمل أم لا وهل هناك وقود يكفي للوصـول إلى وجهتنا، لكنها محاولة على كل حال أرجو أن تنجح.

علق أحد الشباب الإريتريين من زملاء الرحلة:

أخشى أن يضيع الوقت في هذه المحاولة وحين نقرر أن نسير على أقدامنا يكون الدواعش قد رجعوا أو تشـرق الشـمس ويختفي النجم القبطي!

قال سعيد سنحاول العمل بسرعة كسبا للوقت، بدءوا فورا في العمل، جرى سعيد باتجاه المعسكر أملا في العثور على معدات تساعدهم في إزاحة الرمال بسرعة، عثر بالفعل على جاروف وقطع من الخشـب، سـاعدت في تجريف الرمال بسـرعة من حول العربة، كانت سـيارة لاندكروزر يبدو أنهم يسـتخدمونها لنقل السلاح والمعدات، قام سعيد بنزع الأسلاك من جهاز إدارة المحرك، وقام بتوصيل الأسلاك مع بعضها لإشعال المحرك، لكنّ الموتور الذي يشعل الماكينة أصدر صوتا متقطعا دون أن يدير الماكينة، قال سعيد لا بد من أن البطارية فارغة لم تشحن منذ وقت طويل.

فحص البطارية، كانت تبدو جديدة، قبل أن يعلن: لابد من دفع السـيارة حتى نتمكن من إدارة محرّك السـيارة، مكان وقوف السـيارة لم يكن ملائما للدفع بسـبب الرمال، اقترح سـعيد أن

يتكاتفوا جميعا لدفع السيارة لإخراجها من مكانها باتجاه المعسكر، حيث الأرض الثابتة نسبيا منحدرة قليلا ويمكن دفع السيارة فيها بسهولة، قال سعيد لحسن الحظ أن الماكينة تعمل بالديزل، تحتاج لوقود أقل وحتى البطارية إن لم تكن قوية بما يكفي فالمحرك لا يحتاج لها كثيرا.

اضطروا لحفر الرمال لتمهيد الطريق أسفل إطارات السيارة، لحسن الحظ كانت الإطارات في حال جيدة، كانوا يدفعون السيارة قليلا ثم يتوقفون لحفر الرمال أسفل الإطارات مرة أخرى، استغرق ذلك وقتا طويلا حتى بدأت العربة تخرج من المنطقة المنخفضة بين تلال الرمال، سعيد كان ينظر من وقت لآخر حواليه قلقا من احتمال عودة الدواعش قبل مغادرتهم للمكان، طمأنه أحد رفاق المجموعة: المكان أصبح مكشوفا لا أعتقد أنهم سيعودون إليه مرة أخرى. قال سعيد: أخشى أن يحضروا ليجمعوا بعض الأشياء التي نجت من الحريق وربما ليصفوا حساباتهم معنا.

أصبحت السيارة الآن في وضع أفضل، في أعلى التلة الصغيرة تشرف على الميدان وسط المعسكر، نبههم سعيد أن بذل مجهود مضاعف لدفع السيارة، سيوفر لهم الجهد والوقت ويمكنهم الانطلاق فورا في رحلتهم، طلبوا من سعيد الجلوس إلى مقود السيارة وإعداد السيارة، كانت الدفعة قوية لكن المحرك لم يستجيب، أوضح سعيد أن السيارة لم تتحرك منذ

أشـــهر، لذلك لا يســـتجيب المحرك بســـرعة، المحاولة الثانية كانت داخل الميدان، عدّل سعيد المقود باتجاه جانب من الميدان به أرض منخفضــة قليلا، كانت الدفعة أكثر قوة هذه المرة رغم أن أرض الميدان ليســـت منحدرة كثيرا، لحســـن حظهم دار المحرك هذه المرة، ضغط سعيد على الوقود بشدة حتى يضمن ألا يتوقف المحرك مرة أخرى، وحتى تشحن البطارية أكبر قدر من الطاقة بسرعة، ثم عاد مرة أخرى ليفحص المحرك، أسرع يبحث عن مـاء في الخيـام التي لم تحترق، عـاد ببعض المـاء، أعاد تعبئة خزان تبريد المحرك الصـــغير بالماء، وشـــرب من بقية الماء وأعطى رفاقه، في تلك اللحظة لاحظوا أنهم يشعرون بالعطش والجوع لكن الشـــعور بالخوف كان أكبر، عاد ســـعيد جاريا إلى إحدى الخيم، عثر على بعض الخبز المجفف وبعض البســـكويت ومســـحوق الحليب الجاف والســـكر وضـــعه في الســـيارة، ركبت المجموعة بســـرعة، المرأة الأثيوبية بجانب سعيد وبقية الشباب في الخلف، نظر سعيد إلى السماء، لتحديد موقع النجم القطبي، لحســـن الحظ كانت الســـيارة نصـــف مليئة بالوقود، أعلن : إذا لم نضل الطريق سيكفي الوقود لنصل إلى وجهتنا، انطلقت الســـيارة بســـرعة، غالبا ربما يعود الدواعش صـــباحا لجمع بقية الأشـــياء التي تركوها خلفهم، وإن ســـارت الأمور بصـــورة جيدة ولم يضـــلوا الطريق ســـيكونون حتى ذلك الوقت قد وصلوا إلى وجهتهم.

00

قاد سعيد السيارة في درب غير ممهد، لاحظ أن المرأة الأثيوبية كانت تبكي بصـــمت، لقد فقدت في هذه الرحلة البائســـة ابنـها وزوجها، ولا زال مصيرها نفسه معلّقا في المجهول، حاول أن يخفف عنها قليلا، ونصـحها بالنوم بعد تعب الليلة المنصـرمة، كانت إشـــارات الفجر الوليد قد بدأت تظهر في الأفق حين بدأت أضـــواء متناثرة تظهر من على البعد، لحســـن الحظ لم تتوقف السيارة منذ انطلاقتها، كان واضحا أن المحرّك أعيدت صيانته قبـل فترة، فكّر أنّ الـدواعش ربمـا تركوا من خلفهم مزيـد من الســـيارات مدفونـة في الرمال ولابد أنـهم ســـيعودون لنقلـها إلى مقرهم الجـديـد، إن لم تكن الطـائرات المغيرة قـد اصـــطـادت سياراتـهم في رحلة الـهروب.

بسبب عدم تأكده من الطريق سار سعيد بِبَطّ حتى لا يبتعد كثيرا أن سار في اتجاه آخر، لم يكن هناك من طريق للاتصال بمنسق الرحلـة، كـان بعض أفراد المجموعـة قد تركوا تليفونـاتهم في

البيت عند اختطافهم، من استطاعوا حمل تليفوناتهم استولى الدواعش عليها عند تفتيشهم لدى وصولهم للمعسكر.

سيعتمد الان على ذاكرته إن لم يستطع الوصول إلى البيت الذي كانوا يقيمون فيه، فسيصعب عليهم العثور على منسق الرحلة.

قال سعيد : أعتقد أننا على مشارف مصراته، أفضل أن نتوقف هنا قد يصبح التعرف إلى البيت أكثر سهولة حين تشرق الشمس، انتبه سعيد إلى أنه كان يكلم نفسه، كانوا جميعا نيام.

استيقظوا على وقع شمس حارقة، أشار له أحد الشباب الإريتريين على الاتجاه الصحيح، قال له إن البيت كان قريبا جدا من البحر، بدت لهم ملامح الحي القريب من البحر مألوفة، ظلوا يدورون في شوارع وأزقة الحي لوقت طويل قبل أن يصرخ أحدهم هنا! كان البيت مغلقا، طرق سعيد بيت الجيران، أخبروه أنهم لا يعلمون شيئا لكن صاحب البيت نفسه يسكن في الجوار وربما يستطيع إيصالهم بالرجل الذي يبحثون عنه، أعطاهم صاحب البيت تليفونه للاتصال بالأخ التاجي كما كان يطلق على منسق الرحلة، كان التاجي سعيدا بنجاتهم من الدواعش طلب منهم الانتظار أمام البيت وسيحضر حالا لنقلهم إلى بيت آخر لحين ترتيب الرحلة الجديدة.

طلب سعيد من صاحب البيت أن يفتحه لهم ليأخذوا بعض أمتعتهم التي تركوها في البيت لحظة اختطافهم.

بعد قليل جاء التاجي، أخذهم إلى بيت آخر في الجزء الغربي من المدينة، كان البيت أفضل من البيت القديم، أحضر لهم التاجي خبزا وبعض المواد الغذائية والشاي والقهوة ووعدهم بالعودة مساء لإبلاغهم بترتيبات الرحلة.

غسلوا أجسادهم المنهكة وأكلوا بعض الخبز وشربوا الشاي واستسلموا للنوم، لم يستيقظوا إلا على وقع ضربات على الباب، كان التاجي، قال: سترتاحون يوم غد وتستعدون للرحلة بعد غد فجرا.

حذرهم التاجي قبل ذهابه ألا يفتحوا الباب لأي طارق، قال لهم إن لم يتعرفوا على صوته لا يجب أن يفتحوا الباب.

استيقظوا صباح اليوم التالي بحال أحسن بعد نوم طويل، شربوا الشاي وأكلوا بعض الخبز، قال أحد الشباب الإريتريين: لقد نسينا موضوع السيارة، ألا يمكننا بيعها تعويضا لنا على العذاب الذي وجدناه بسبب هؤلاء الدواعش! تحمس الجميع للفكرة، فالسيارة لا صاحب لها الآن على كل حال.

خبط سعيد رأسه، معك حق، لقد نسيناها تماما، سأتصل الان بالتاجي ربما يجد لها مشتريا أو يشتريها هو نفسه، قال التاجي: كم تريدون ثمنا لها؟ أخبره سعيد أن أية مبلغ مناسب سيكون جيدا بالنسبة لهم خاصة أنهم فقدوا كل ما يملكون، ولم يتبق لهم أية مال قد يحتاجون له حتى تستقر أحوالهم بعد الوصول إلى الضفة الأخرى.

سأل التاجي: سمعت أنك قمت بإصلاح هذه السيارة؟ هل لديك خبرة في صيانة السيارات؟

أخبره سعيد أنه عمل لسنوات في صيانة السيارات وأنه درس ميكانيكا السيارات في معهد متخصص.

قال التاجي: هذا ممتاز وهل لديك خبرة في قيادة القوارب؟

ضحك سعيد وقال: مرة واحدة قدت قارب صغير بمحرك، كنا في رحلة في نهر النيل ومرض قائد القارب.

قال التاجي هذا ممتاز، لديك خبرة في صيانة محركات الديزل ولديك خبرة صغيرة في قيادة القوارب، الجهة صاحبة المركب الذي ستسافرون عليه تحتاج لواحد من المهاجرين لديه بعض الخبرة في قيادة مركب، وارى أنك أكثر شخص مناسب لأن عندك خبرة في صيانة المُحركات، وان وافقت سيعيدون لك نصف المبلغ الذي دفعته.

فكّر سعيد قليلا وقال، ألا يجب في البداية أن أرى القارب وارى المحرك ثم أقرر أن كنت أستطيع القيام بهذه المهمة؟

قال التاجي: صدقني المسألة في غاية السهولة، وستجد قيادة المركب أسهل من قيادة القارب،

وكيف أستطيع تحيد الاتجاه الذي يجب أن أقود إليه المركب؟

قال التاجي: سيعطونك جهاز جي بي اس لتحديد الاتجاهات وسيشرحون لك طريقة استخدامه، وسيعطونك أيضا هاتف يتصل بالأقمار الصناعية لتتصل برقم ما في حالة الطوارئ.

وإن وصلنا سالمين هل يجب إعادة هذه الأجهزة؟

قال التاجي: لا تهتم بذلك أن وصلتم سالمين لديهم وكيل هناك سيتصل بك في الوقت المناسب ويحدد معك موعدا ليتسلم الجهاز.

وهل يجب أن أحتفظ لهم بالقارب أيضا؟

ضحك التاجي وقال: أين ستحتفظ به؟ لست ذاهبا في نزهة، هذا قارب يستخدم لتهريب البشر ستصادره السلطات عند وصولكم! وسيستجوبونكم، من الذي نظّم الرحلة وما هي أوصافه؟ وكم دفعتم له، أرجو ألا تصفوني جيدا لهم! يمكنكم القول إنني أضع شالا يخفي نصف ملامح وجهي، وأنكم لم تشاهدوا سوى عيوني فقط!

ثم ضحك التاجي وقال: يقال إنهم شيدوا متحفا كبيرا من القوارب المصادرة ومن بقية الأشياء التي يعثرون عليها في قوارب المهاجرين الغارقة، وأنّ الكثير من السوّاح يدفعون نقودا كثيرة لزيارة هذا المتحف! وهكذا نحن نوفر لهم مورد رزق جديد!

وجد سعيد العرض جيدا على الأقل ربما يضمن سلامتهم، كان قد سمع أن الأشخاص الذين يقودون مراكب التهريب يسيئون معاملة الركاب أحيانا، وقد يتخلون عنهم إن كان هناك خطر أو تعطل المركب.

قال التاجي: سأحاول عرض السيارة للبيع اليوم أن تم البيع سأحضر لكم المال مساء، إن لم أجد مشتريا سأقوم بشرائها لكنني للأسف لا أستطيع دفع مبلغ كبير لكم.

00

قالت هاجر السناري في اجتماع التحرير الأسبوعي: ألاحظ أننا بدأنا نتحول إلى نسخة من الصحف المستقلة التي ترفع راية الاستقلال وهي تنفذ تعليمات الرقابة أفضل من الصحف المسماة حكومية!

ابتسم رئيس التحرير وقال: وعدتك أننا سنفتح ملف الفساد ضمن ملفات كثيرة ستعالجها الصحيفة، لكن نحن لا زلنا نحاول تثبيت أنفسنا في السوق وعند القارئ الراغب في صحافة حقيقية تكون عينا للمواطن، وتنبهه إلى كل مواطن الفساد وانتهاك الحقوق.

لكن كيف سنكسب ثقة القارئ أن كنا نردد مثل الببغاء نفس الأخبار التي يذيعها التلفزيون الحكومي؟

قال رئيس التحرير بصبر: وعدنا القارئ أننا سنكون في صفه، وسننفذ وعدنا حتى لو أدى ذلك لإغلاق الصحيفة!

صمتت هاجر، بعد الاجتماع ناداها رئيس التحرير، طلب منها أن تبدأ في دراسة المستندات، ودون تعجل يمكنها البدء في

كتابة سلسلة مقالات، أوضح وجهة نظره: يمكن أن تستفيدي من المستندات في صياغة نقد عام، دون ذكر أسماء أو وقائع محددة، في الواقع فإن معظم قصص الفساد التي توثقها تلك المستندات معروفة لمعظم الناس، ما نريد أن نصل إليه هو تعرية النظام وكشف فساده وانتهاكاته وعدم التزامه لا بالاتفاقيات والمواثيق الدولية ولا حتى بالاتفاقيات التي يوقعها سوى مع خصومه المحليين، أو مع جهات دولية.

نحن سنبدأ بالكتابة، والفرق أننا نملك الآن الدليل أن طالبتنا جهة ما بالدليل يمكننا أن نفرج عن جزء من هذه المستندات، لكن حين تكتبين حول قصص الفساد هذه، لن يشك أحد في الغالب أنك تملكين شيئا جديدا، فكما ذكرت معظم هذه القصص فاحت رائحتها منذ سنوات، فالفساد أصبح سياسة رسمية وهو موجود في كل مكان، في تعيين الموظفين الجدد للمؤسسات الحكومية، في أية صفقة حكومية، في المنصرفات الحكومية في إنشاء أي مبنى أو مؤسسة، باختصار في أي شيء، غير الرشاوي والعمولات، ضحكت قبل أيام حين سمعت قصة محاسب راجع حسابات الإذاعة القومية، كان شعراء الأغاني الذين لديهم حقوق قديمة لدى الإذاعة قد استلموا حقوقهم وقاموا بالتوقيع على الاستلام، من بين الشعراء الذين وُجد توقيعهم على استلام حقوقهم الشاعر سيف الدولة الحمداني!

ضـــحكت هاجر وقالت، عموما ســـأحتاج بعض الوقت للاطلاع على المستندات ثم أعود إليك بفكرتي حول معالجة هذا الأمر.

أعاد قولـه: تذكري أننـا في كل الأحوال لن نســـتطيع نشـــر المســـتندات في الوقت الحالي، وإلا فإنّ الصـــحيفة لن تتجاوز عتبة المطبعة، لكنها ستفيدنا كأدلة قاطعة أن جرؤ أحدهم على تقديم شكوى ضدنا، ومؤكد أنّ الوقت المناسب لنشرها كاملة سيأتي يوما ما.

لا تنسي بعض قصص الفساد في بيت الرئيس نفسه! وبعضها يمس جهاز الأمن نفســـه، جهاز الأمن الذي اشـــترى تقريبا الدولة كلها.

حين خرجت هاجر من مكتب رئيس التحرير، جاءها يزيد موسى، عمل معها يزيد في صحيفة الزمان لفترة، ثم انتقل إلى صـــحيفة الفجر بعد صـــدورها، كان شـــابا لطيفا، كان يشـــارك أحيانا في جمع بعض المواد لبعض الملفات المتخصـــصـــة التي تصدرها الصحيفة.

قال لهاجر: أعرف كثيرا من القصـــص عن فســـادهم، يمكنني مساعدتك!

كانت هاجر تشـعر بأنه يحاول التقرب منها منذ أن عملا سـويا قبل سنوات، كان أصغر منها سنا، ظلت تتعامل معه دائما كأخ أصغر، لكنها في تلك اللحظة شعرت بأنه نوع من الناس يصعب

أن تقول له لا، لكنها أبقت على ترددها تجاه مشاعره الواضحة نحوها، شكرته وقالت: كلما وجدت فراغا اكتب لي أية قصة تسمع بها لكن يجب أن تعرف أننا لا نستطيع نشر قصة حتى بدون أسماء ما لم يكن لدينا مستندات.

طمأنها قائلا: لدي قريب يعمل مع الهيئة القضائية وقع بالصدفة على معلومات ومستندات مهمة حول فساد توزيع الأراضي السكنية، وتحويل بعض الأراضي الزراعية إلى أراض سكنية، هناك مافيا تجني الملايين من هذه التجارة.

كان رئيس التحرير قد حذّرها ألا تقوم بفتح الملفات في البيت، شرح لها أن مبرمج كمبيوتر يشرف على تأمين برامج الصحيفة سيقوم بوضع برنامج حماية خاص على جهاز الكمبيوتر الذي تستخدمه، كما سيضع شفرة معينة لا تسمح لأي مستخدم آخر بالدخول إلى ملفاتها الشخصية.

لم تتمكن في ذلك اليوم من عمل شيء بخصوص المستندات، اكتفت بوضع بعض الخطوط العامة حول المقالات المقترحة التي ستفتح بها ملف الفساد المستفحل في كل مفاصل الدولة. فكرت أن تبدأ بمناقشة فكرة التمكين نفسها التي قامت عليها معظم خطط النظام في الاستحواذ على كل مؤسسات الدولة، وفي إعطاء الأولوية لمنسوبي الحزب في شغل المناصب، وفي الاستفادة من تسهيلات البنوك، دون أية ضمانات تفرض فقط على عملاء البنوك من عامة الشعب.

حكى لها يزيد اِنْهَ سمع من أحد أقربائه وكان مشاركا في وضع وتصـــحيح الامتحان الذي يؤديه المتقدمين لوظيفة الســـكرتير الثالث في وزارة الخارجية، قال الرجل: جميع الطلاب الذين نجحوا قمنا بإسقاطهم، وطلاب التنظيم الذين سقطوا جميعا في الامتحان قمنا بمنحهم درجات نجاح ساحق!

علّق يزيد على قصته قائلا: لذلك لا اندهش حين أسمع بممثلينا في السفارات وهم مشغولون بالتجارة بكل شيء، بل وبتهريب بعض السلع الثمينة مستغلين حصانتهم الدبلوماسية، وفي كل مكان تطاردهم اتهامات التحرش الجنسي، والإساءة لمواطني بلدهم الذين يزورون الســـفارات طلبا للخدمات التي تقدمها الدول لمواطنيها، وتســـهم في إيجاد الحلول لكل مشـــاكلهم في بلاد الغربة، اما هؤلاء فمهمتهم هي تعقيد مشـــاكل المواطن المهاجر عن بلده.

حضـــر المبرمج في نهـاية اليوم، قـام بمراجعـة وتنظيف الكمبيوتر، وتنصـــيب برنامج للحماية، ثم شـــرح لها كيفية الدخول إلى ملفاتها التي أصبحت محمية الان بأرقام سرية.

كـان الوقـت قـد تـأخر، قرّرت هـاجر أن تبـدأ في فتح ملفـات المستندات في اليوم التالي، دون أن تشعر أنها إنما كانت تفتح على نفسها بابا من أبواب الجحيم.

00

في المســـاء حضـــر التاجي للتأكد من أنّ المجموعة مســـتعدة للســـفر وليجيب على تســـاؤلاتهم بخصـــوص الرحلة وما بعد الوصول إلى الضفة الأخرى، كان قد نجح في بيع السيارة، قال ضـــاحكا وهو يمد يده بالنقود إلى ســـعيد: أنتم الوحيدون الذين نجحوا في سرقة داعش!

ابتسم سعيد وقال: لقد سرقوا منا وقتا ثمينا، ودمروا أعصابنا في انتظار أيام طويلة كنا نتوقع فيها الموت في كل لحظة، قتلوا أحد رفاقنا أمام أعيننا وأمام زوجته. قسّـــم ســـعيد المبلغ على أفراد المجموعة، كانوا قد أصبحوا ستة أفراد بعد اغتيال الشـــاب الأثيوبي على يد داعش، لكن ســـعيد اقترح أن يقســـموا المبلغ على سبعة، ويعطي نصيب الشاب المغدور إلى زوجته، حصـــل كمل واحد منهم على خمســـمائة دولار، كان ذلك مبلغا جيدا سيؤمن لهم منصرفات فترة من الوقت قبل عثورهم على عمل، وحصل سعيد على نصف المبلغ الذي دفعه للسفر، أصبح وضـــعه المادي أفضـــل كثيرا، قال لهم التاجي: هل تعرفون ماذا تفعلون حين تصلون إلى إيطاليا؟

قال أحد الشـباب الأريتريين: لدينا شـقيقنا في إيطاليا سـيتولى مساعدتنا.

قالت السيدة الأثيوبية: لدي أيضا شقيق هناك.

سـعيد وبقية الشـباب لم يكن لديهم فكرة واضـحة، قال: ربما يجب حسب ما سمعنا أن نطلب حق اللجوء السياسي.

أوضـح التاجي: سـتخضـعون لتحقيق في إيطاليا وسـيعطونكم إقامة مؤقتة لمدة 6 أشـهر يجب خلال هذه الفترة أما أن تجدوا عملا يؤمن لكم إقامة، أو تقوموا بطلب حق اللجوء السياسي، كثيرمن المهاجرين يفضـلون مواصـلة الطريق إلى داخل أوروبا، معظم من سـاعدت في سـفرهم، ذهبوا إلى فرنسـا أو ألمانيا، يمكنكم أخذ القطار إلى أقرب نقطة لحدود فرنسـا ومن هناك تعبرون الحدود بأقدامكم، أن حالفكم الحظ ستتمكنون من الدخول بدون أن يراكم رجال الشـرطة، أن رأوكم سـيعيدونكم مرة أخرى إلى إيطاليا، يقولون إن الإجراءات تسـتغرق وقتا أطول في إيطاليا، لذلك يفضـل معظم المهاجرون السـفر إلى فرنسا أو ألمانيا، لكن سمعت أنه بسبب تدفق اللاجئين بسبب الحرب في سوريا أصبحت فرص الحصول على لجوء أقل من الماضي.

انتحى التاجي قبل أن يغادر بسعيد، جعله يشاهد صورا للمركب في تليفونه المحمول، وصـورا للمحرك، ثم شـرح له كيفية استخدام جهاز تحديد المواقع وتليفون الثريا، القارب يبدو من

المطاط أو البلاستيك، ولديه محرك ضخم في المقدمة، تساءل سعيد: هل هذا القارب آمن؟ وكم عدد من سيسافرون؟ هل هناك معدات لإصلاح المُحرّك أن حدث عطل ما؟ شرح له التاجي أن القارب آمن، وأنه لا يغرق، قد ينقلب في الماء بسبب الرياح القوية أو الحمولة الزائدة لكنه لا يغرق، كان لسعيد أسئلة أخرى حول المحرك وكمية الوقود التي يستهلكها، شرح له التاجي كل شيء، هناك وقود في أوعية بلاستيكية، يجب عليه الحذر لإبقاء توازن القارب دائما في الوضع الصحيح، بتوزيع الركاب بصورة جيدة على جانبي القارب لتجنب ميلان القارب وانقلابه، أوضح التاجي أنّ مُحرّك القارب جديد حسب علمه، ولن يتعطل من رحلة واحدة، لكن للاحتياط سيتأكد من وجود معدات، يمكن استخدامها في حالة حدوث عطل طارئ، شرح لهم التاجي أن هناك احتياطي من الماء العذب في القارب لكنه أحضر لهم بعض الماء والخبز وبعض الحلوى لتعطيهم طاقة أثناء السفر، أوضح أنهم لا يسمحون للركاب بمتاع سوى القليل من الزاد، الرحلة تستغرق حوالي ستة عشر ساعة، أن سارت الأمور بصورة جيدة ستكونون مساء قد وصلتم إلى وجهتكم.

غادر التاجي البيت على أن يعود فجرا لنقلهم إلى المركب، سعيد قام بحفظ النقود في قطعة بلاستيك مع الفلاش الذي يحوي المعلومات والمستندات.

تناولوا عشـــاء خفيفا من الخبز واللبن الزبادي، طلب منهم سـعيد محاولة النوم بسـرعة لأنّ الغد سـيكون يوما طويلا وشاقا، هو نفسه لم يستطع النوم إلا بصعوبة شديدة، وقبل وصول التاجي كان هو قد استيقظ وحزم أشيائه القليلة.

أوقف التاجي السـيارة على مبعدة من البحر واقتادهم عبر طريق يمر وسط حاويات وسيارات شحن، عبروا أسفل خطوط أسلاك شائكة، قبل أن يجدوا أنفسهم أمام القارب، كان هناك مسافرون آخرون، امتلأ القارب وتراصت الأجساد داخله، قام الرجل الذي أشرف على دخولهم إلى القارب بشرح كل شيء لسعيد مرة أخرى، ساعده في إدارة المحرك عن طريق سحب الحبل بقوة، ثم سلمه جهاز الجي بي اس والتليفون، وشرح له مرة أخرى كيفية تتبع الاتجاه الصـحيح على جهاز الجي بي اس، أعطاه أيضا بطارية احتياطية في حالة نفاد بطارية جهاز الجي بي اس أو التليفون، وشرح له كيفية استخدام البطارية الاحتياطية في شحن الجهازين كما سلّمه أيضا مصباح يدوي صغير لاستخدامه يف حال الطوارئ.

دار القارب دورة صـغيرة ثم انطلق في طريقه، وقف التاجي يلوح لهم قليلا قبل أن يختفي،

لاحظ سعيد بسرعة أن القارب كان يميل إلى اتجاه اليمين، طلب من أحد الركاب بالجلوس يسـارا فأصـبح القارب أكثر اتزانا، لحسن الحظ كان البحر هادئا، انطلق القارب مثل السهم فوقه،

سعيد كان يمسك بجهاز الجي بي اس في يده اليسرى، ويمسك بمقود القارب بيده اليمنى.

سعيد لاحظ الإرهاق الشديد في وجوه المهاجرين، وهناك أطفال صغار كانوا يبكون طوال الوقت، كانوا قد قطعوا مسافة كبيرة حين أشرقت الشمس، وجد سعيد أنهم إن ساروا بنفس السرعة دون مشاكل، فقد يصلون حلال 12 ساعة إلى سواحل إيطاليا، لاحظ أن مؤشر الوقود قد انخفض كثيرا، أسفل المقعد الذي يجلس عليه كانت أوعية البلاستيك المليئة بالوقد سحب سعيد وعاء واحدا قام بتخفيض سرعة المحرك، وفتح غطاء خزان الوقود وأعاد تعبئة الخزان، لاحظ أن مؤشر الوقود توقف عند المنتصف، فشعر ببعض القلق، خشي ألا تكون كمية الوقود كافية للوصول إلى وجهتهم، رغم تأكيد التاجي والرجل الآخر أن الكمية ستكفي وسيتبقى بعض الوقود عند وصولهم.

استسلم بعض الركاب إلى النوم، يبدو أنّ أحد الأطفال استغرق للنوم في حجر أمه التي لم تستطع مقاومة النوم، فجأة وإثر موجة عالية لم يتوقعها سعيد سقط الطفل في الماء، صرخت والدة الطفل، أسرع سعيد عائدا وأوقف المركب وسقط فورا في الماء محاولا البحث عن الطفل، صرخ فيه بعض الركاب وطالبوه بالعودة وإلا فإن القارب قد يغرق، كان الرجل الذي سلّمه القارب قد أوصاه في اذنه ألا يتوقف إن سقط أحد الركاب في الماء، ونبهه إلى مخاطر كثيرة، هناك جهات تتربص

بالمهاجرين مثل المجموعة التي قامت باختطافهم، وهناك سفن تتبع للاتحاد الأوربي قد تعيدهم إلى ليبيا، بذل سعيد جهدا خارقا للعثور على الطفل لكن كان واضحا أنه سقط في المياه العميقة، عاد سعيد، كانت والدة الطفل تصرخ وهناك سيدة تحاول تهدئتها دون جدوى، لبث سعيد محتارا لفترة وكانت الدموع والشعور بالحرج تغطي وجهه، حثه بعض الركاب على مواصلة الرحلة، قال أحدهم لا فائدة من الانتظار، ذلك قدره، ليلطف الله به وبنا.

استأنف سعيد قيادة القارب، فقد حماسه للمضي قدما، وكان بكاء الأم يمزق قلبه، لكنه انصاع لرجاء الركاب الآخرين أن لا فائدة ترجى من التوقف، وأنّ الجميع قد يتعرضون للمصير نفسه إن لم يستأنف السير، بعد حوالي ثلاث ساعات أعاد تعبئة خزان الوقود، قام هذه المرة بتعبئة الخزان بكمية أكبر، حتى لا يضطر لإعادة تعبئته بسرعة، كان الصمت يخيم على الجميع، كأنّ الرعب من مصير الطفل الغارق ألجم الجميع، تحوّل بكاء أم الطفل رويدا رويدا إلى بكاء صامت، كانت الدموع تغطي وجهها فيما تغطي عينيها بكفها الأيسر.

قرابة المساء، أفرغ سعيد آخر ما تبقى من الوقود، حسب إشارات الجي بي اس يفترض أنهم خلال 4 ساعات سيكونون على مشارف الساحل الإيطالي، خمّن أن الوقود سيكفي بالكاد للوصول إلى هناك، فجأة بدأ المحرك يصدر صوتا غريبا، قبل

أن يتوقف فجأة، جذب سعيد الحبل بقوة محاولا إشعال المحرك مرة أخرى، لكن المحرك لم يستجب لمحاولاته، حسب خبرته فأنّ الصوت الذي أصدره المحرك قبل توقفه قد يكون إشارة لوجود رمل أو أوساخ في الوقود، لم تكن حركة الموج تُبشر بخير، كأنّ عاصفة تقترب منهم، هطلت أمطار مفاجئة، توقف سعيد عن محاولات إشعال المحرك، قام بإزالة غطاء المحرك وبحث عن المعدات التي أكد له الرجل أنها موجودة في القارب، عثر أسفل المحرك على حقيبة بلاستيكية بها بعض المفاتيح، قام بفك الجهاز الصغير الذي يضخ الوقود إلى داخل المحرك، سحب الوقود من المضخة بفمه بقوة فامتلأ فمه بخليط من الوقود والطين، أعاد توصيل المضخة، وإغلاق غطاء المحرك ثم سحب الحبل بقوة، لحسن الحظ دار المحرك، اتجه سعيد بقوة في الاتجاه الذي حدده الجي بي اس، توقف المطر لكن الموج بدأ يصبح أكثر ارتفاعا وبدا القارب مثل ريشة، تتلاعب به الأمواج والرياح، لم تمض سوى حوالي ساعة حين توقف المحرك مرة أخرى، بعد أن أصدر صوتا مثل المرة الأولى.

أعاد سعيد نفس ما قام به في المرة الأولى، كانت المهمة أصعب هذه المرة بسبب دوران القارب باستمرار بسبب الرياح والأمواج، عرف أن عملية تنظيف مضخة الوقود كل مرة تهدر جزءا من الوقود، لكن لم يكن هناك من حل آخر، حاول الا يسحب كثيرا من الوقود بفمه، قبل ان يعيد المضخة الى مكانها.

واصلوا السير لساعة أخرى، حين توقف المحرك هذه المرة كان الموج قد اصبح عاليا جدا واصبح القارب في رحمة الموج، سحب سعيد جهاز التليفون وبدأ يحاول استخدامه وهو يحاول تنظيف المضخة في نفس الوقت، انقلب القارب في تلك اللحظة الحرجة، وسقط جهاز التليفون والجي بي اس في الماء، نادى سعيد على الرجال لمساعدته لإعادة القارب لوضعه الطبيعي ونادى على السيدات ليتشبثن مع اطفالهن في الرجال او في جسم القارب.

استطاعوا بصعوبة إعادة القارب الى الوضع الطبيعي، طلب سعيد ان تصعد النساء أولا وان يجلسوا متقابلين للحفاظ على توازن القارب، لحسن الحظ كان عدد الركاب كاملا، المشكلة ان خزان الوقود كان مفتوحا حين انقلب القارب، خشي سعيد ان يكون الوقود قد تسرب من الخزان، سقط غطاء المحرك في الماء مع جهاز الجي بي اس والتليفون.

لم يكن هناك وقت للأسف على ما ضاع، حاول سعيد عدة مرات إدارة المحرك، لحسن الحظ دار في النهاية رغم ان صوته كان متقطعا قليلا، عرف سعيد ان الماء ربما تسرب الى خزان الوقود، قاد القارب بسرعة اقل لمحاولة تفادي قوة الأمواج، بحث عن النجم القبطي لكن كان واضحا ان السماء كانت ملبدة بالغيوم، عرف انه لم يتبق له سوى الاهتداء بحاسته السادسة، داهمه في تلك اللحظة شعور غريب، شعر

كأنه يســـير فوق قبره! إن هذه الأمواج التي تتلاطم مثل جبال صـغيرة من حوله سـتكون هي قبره! في تلك اللحظة بدأ محرك القارب يصـدر مرة أخرى نفس الصـوت الذي ينبئ عن وجود مشـكلة في انسـياب الوقود، قبل أن يتوقف مرة أخرى، جاهد لمحاولة تنظيف المضـــخة مرة أخرى، لكنه أحس حين حاول تنظيف المضخة بفمه أنّ الوقود كان مختلطا بالماء، حاول عدة مرات دون جدوى إشـعال المحرك، لكن المحرك بقي مثل قطعة حجر هامدة، دهمتهم موجة عاتية أخرى كاد القارب ينقلب على اثرها قرّر ســـعيد أنه من الأوفق أن يتوقف عن محاولة إشعال المحرك مرة أخرى، ويركّز جهده مع رفاقه على محاولة حفظ توازن القارب حتى لا ينقلب، قال للرفاق: لو اســـتطعنا الصـمود حتى الصـباح مؤكد سـتلتقطنا إحدى السـفن، المنطقة قريبة من سواحل أوروبا وهي منطقة ملاحة نشطة.

تذكر أن معه مصباح كهربائي صغير أعطوه له للاستخدام ليلا في حال الطوارئ، قام بإشعاله واستخدم قطعة قماش في تثبيت المصـــباح حول رقبته، بدأ الجو يميل للبرودة، رغم أن الوقت كان لا يزال في شـــهر ســـبتمبر، لكن بســـبب المياه والرطوبة العالية بدأ الأطفال يرتجفون من البرد، غرق بعض الركاب في نوبة من القيء، ربما بسبب دوران القارب حول نفسه بسرعة بســـبب الرياح، طلب منهم ســـعيد أن يحاولوا أكل ما تبقى لهم من حلوى، لتمنحهم بعض الطاقة، شـــعر ســـعيد ببعض القلق كانت الأمواج تجرف القارب، مثل ريشة في مهب الريح، خشي

أن تجرفهم الريـاح بعيـدا في الاتجـاه المعـاكس، دعـا الله أن تدفعهم الرياح باتجاه الشـاطئ الإيطالي، وربما بقليل من الحظ لا يحتاجون حتى لمن يلتقطهم، مضت الساعات وخفت صراخ الأطفال بسبب الإرهاق الشديد، فجأة لمح سعيد ما يشبه نقطة ضوء بعيدة، اعتقد في البداية أنها مجرد نجم في السماء لكنه تذكر أن السماء مغطاة تماما بالغيوم، صرخ في رفاقه: انظروا هناك ضوء يأتي من هذا الاتجاه!

00

بدأت هاجر السناري في دراسة ملفات الفساد، قرأت بحرص شديد، وحاولت أن تحفظ في ذاكرتها أكبر عدد من الأرقام والمعلومات، فرئيس التحرير لا يريدها أن تكتب أي شيء على الورق، قضت وقتا طويلا، وجدت نفسها تغرق في تلال من المستندات والمعلومات، سرقها الوقت حتى فوجئت بالمكان خاليا تماما، لم يكن هناك سوى أحد حرّاس الأمن، أثناء جمعها لأشيائها حضر المحرر المناوب الذي سيقضي السهرة تلك الليلة في الصحيفة، ودعته هاجر وخرجت، لحسن الحظ وجدت عربة تاكسي بسرعة نقلتها إلى البيت.

استيقظت متأخرة قليلا صباح اليوم التالي وجدت أمها قد أعدت لها طعام الإفطار، وحتى تغتسل وترتدي ثيابها وجدت القهوة أيضا جاهزة، أفطرت مع والدتها، مازحتها أمها: متى سنفرح قليلا! طال عهدنا بالفرح! كانت أمها تشير إلى الزواج كعادتها، ضحكت هاجر وقالت، لم يحن الأوان بعد! وعلى كل حال أين هو سيئ الحظ ذلك؟ هل سأذهب للبحث عنه بنفسي!

قالت الأم: ســـيء الحظ! قولي من هو ذلك المحظوظ الذي يجد مثل هذا الجمال والأدب!

أوضـحت هاجر ضـاحكة: الصـحافة مهنة البحث عن المتاعب، وفي هذا البلد هي مهنة المتاعب والمصائب نفسها.

قالت الأم: وما الذي يجبرك على التعب ومشـاق مهنة لا تجدين منها سوى الهم والغم ومضايقات صغار الناس؟ ابن خالتك في الخليج، لمـاذا لا تقبلين بـه، وتغـادرين هـذه البلاد ربمـا يكون الحظ في انتظارك!

قالت: لا أريد السفر ولا أريد ابن خالتي!

لماذا تغلقين كل باب ينفتح في وجهك؟ أنا أريد الســـفر، أنتظر أن ترسلي لي دعوة لأزورك وأرى شكل الدنيا في الخارج!

قالت هاجر: سـيحدث ذلك يوما ما، رغم أن دنيانا الحقيقية هي هنا، في هذا البلد، لن نتركه للأوغاد واللصوص يدنسون ترابه وكل شيء جميل فيه!

قـالـت أمهـا: ومـاذا تســـتطيعين أن تفعلي وحـدك، هـذا عمـل معارضــة لديها جيوش وأسـلحة تواجه بها هؤلاء الناس الذين لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلوبهم!

قـالـت هـاجر: يجب أن يقوم كل إنســـان بدوره، أنـا في حدود اســتطاعتي والآخرين كل لما هو ميســر لـه، والا إن إنتظر كل

واحـد منـا الآخرين ليتحركوا، لن يتحرك أحـد ولن يســقط الاستبداد.

نظرت هاجر إلى الســاعة وقالت تأخرت كثيرا، ودعت أمها بسرعة وخرجت.

اجتمعت في البـدايـة مع محمـد نور الـدين، أبلغتـه بـالخطوط العامة لمقالاتها، ســوف تشــير من على البعد دون ذكر وقائع محددة، طلب منها رئيس التحرير كتابة مقالها وسـوف يراجعه قبل إرســاله إلى المصــمم، كان مقالها الأول عاما، يشــير إلى بعض تقـارير المنظمـات الـدوليـة حول ترتيب بعض الـدول في مؤشر الفسـاد، وحول الضرر الكبير الذي يحدثه الفسـاد خاصـة في جانب تنمية الإنســان، وأن الدول التي ينتشــر فيها الفســاد تتخلى تلقـائيـا عن مســئوليـاتهـا تجـاه المواطن الفقير، عن الإنســان بصــفة عامة وهو الثروة الحقيقة الذي تهدف كل مشروعات التنمية إلى الإسهام في تعليمه وترقية أدائه.

بعد مراجعة رئيس التحرير، يحضـر الرقيب التابع لجهاز الأمن والمخـابرات ليلا لمراجعـة المقـالات قبـل إرســال العدد إلى المطبعة، في العادة يتعامل الرقيب حســب التعليمات التي تحدد الخطوط الحمراء التي لا يجب تجاوزها والموضــوعات التي يحظر تناولها، حتى كأخبار، ظهر المقال في الصــحيفة صــباح اليوم التالي.

قالت هاجر لرئيس التحرير: هل نزيد الجرعة قليلا! أم نكتفي بقصة أبو فراس الحمداني؟

ضحك رئيس التحرير، وقال يمكننا رفع الجرعة قليلا، لا نريد إرباك الرقيب، تعود على تعديل بعض المانشيتات، أخشى أنه لا يقرأ كثيرا ويقع اللوم علينا في النهاية.

الجرعة الثانية تم تمريرها، الاستغناء عن كوادر الخدمة المدنية الذين خسرت الدولة كثيرا في سبيل تطوير أدائهم وإرسالهم إلى دورات تدريبية خارج الوطن، وإحلال كوادر غير مؤهلة بذريعة الانتماء السياسي، أفقد الخدمة المدنية دورها كحائط صد وأدى لنشوء ثغرات تسلل منها الفساد.

ظهر المقال الثاني، ولم تتعرض الصحيفة لأية مضايقات، بقي رئيس التحرير قلقا طوال النهار، من تجاربه السابقة كان صمت جهاز الأمن دائما، مجرد فخ، صمت يسبق العواصف، اتفق مع هاجر أن تخفف الجرعة قليلا، وتبدأ في فتح ملفات فساد بعض المؤسسات البعيدة عن رموز السلطة.

أشارت هاجر في مقالها الجديد إلى حادثة انهيار مبنى حكومي، نفذته شركة تتبع لأحد أقطاب النظام، لم تذكر اسم اية مسئول، بل أشارت للواقعة نفسها من خلال حديثها عن الإرث العظيم للمهندسين السودانيين، وحكت واقعة قصة سمعتها عن إحدى شركات المقاولات التي كانت في الماضي تنفذ بعض المباني الحكومية، تعرّت الشركة لامتحان حقيقي حين وصل طاقم

المهندسين المطلوب منهم تسلم المبني ومراجعة شروط تنفيذه، رفض المهندسون تسلم المبني عدة مرات بسبب وجود مخالفات بسيطة لا يُتوقع أن تسبب أية مخاطر، حتى اضطرت الشركة المنفذة في النهاية، لإعلان إفلاسها، وبقي المبنى مهجورا لسنوات، ثم ختمت مقالها بالقول: في الماضي حين تُكشف قضية فساد، كان المتهم يتوارى عن الحياة العامة حتى إن كان بريئا، الآن كشف فساد شخص ما يصبح سُلّما لوظائف وترقيات.

قال رئيس التحرير: الجرعة اليوم زادت قليلا لكن لا بأس، ننتظر ونرى، إن تغاضى عنه الرقيب، ربما لا تكون هناك مشاكل أخرى، لكن بالطبع يستحيل التنبؤ برد فعلهم.

أبلغها رئيس التحرير إنّ مبيعات الصحيفة ارتفعت بصورة ملحوظة منذ بدء نشر مقالاتها، صمت قليلا ثم قال: يصعب أيضا التأكد من أية شيء، هؤلاء أناس يحترفون الخداع، أحيانا يصادرون صحيفة أو كتاب فقط ليرفعوا من شهرة الصحيفة أو الكتاب، باعتبار أن كل ممنوع مرغوب.

تعني أنهم قد يشترون معظم أعداد جريدتنا حتى لا يقرأها أحد؟

بالضبط هذا ما قصدت، بالأمس التقيت في مناسبة اجتماعية بعدد من الأصدقاء تحدث أحدهم عن مقالك، دهشت لأنّ أكثرهم أخبرني أنه حاول الحصول على الصحيفة، لكنه وجدها قد نفدت في كل مكان سأل فيها!

قالت هاجر: عموما الشـــيء الإيجابي أنّ الناس باتت تســتيقظ بـالفعل من حـالـة اللامبـالاة التي دفعهم إليـهـا النظـام، ويـهتمون بمتابعة ما يحدث في بلادهم من مصـــائب بســـبب ممارســـات النظام.

وافق محمد نور الدين على كلامها لكنه أوضـــح مخاوفه: هذا شـــيء إيجابي على المدى البعيد، لكن أخشـــى أن يكون ســـلبيا على المدى القصير بالنسبة لنا!

في مقالها الجديد، انتقلت هاجر للحديث حول الفساد في توزيع وبيع الأراضـــي، تحدثت عن واقعة اغتيال موظف كبير في إحدى الإدارات الحكومية، راجت شـــائعات كثيرة بأنه قتل لدفن أسرار فساد تمس بعض أقطاب النظام والحزب الحاكم.

في مســـاء اليوم نفســـه، اســـتقلت هاجر حافلة إلى البيت، كان الوقت قد تأخر قليلا، لم تشـــاهد أحدا في الطريق القصـــير بين محطـة البص والبيـت، كـانـت ترى دائمـا بعض أبنـاء الحي يتســـامرون بجانب أعمدة الكهرباء، لابد أنّ هناك مباراة مهمة في كرة القدم جعلت الجميع يبقون في بيوتهم، كـانـت دائمـا تستمع إليهم يتشاجرون حول الفرق التي يشجعونها، بعضهم يشـــجع فريق برشـــلونة الأســـباني والبعض فريق ليفربول الإنجليزي، توقفوا عن الشجار حول الفرق المحلية ربما بسبب الضعف العام الذي اعترى كل مناحي الحياة، فتدهورت الفنون

والرياضـة، وربما لأن استقبال القنوات الفضـائية أعطى النـاس الفرصة لتتعرف على فنون لعبة كرة القدم المتطورة.

شــعرت هاجر بخوف غامض، فكّرت أن ســبب شــعورها ربما لأنـها غير معتادة أن تجد نفسـها وحيدة هكذا في شـارع به دائما حركـة دائبـة، فجـأة وهي على بعد خطوات من البيـت توقفت بحركة مباغتة سـيارة بجانبها، هبط منـها شــخصــان بســرعة ودفعاها دفعا للركوب في العربة التي انطلقت بســرعة دون أن يرى أي إنسان ذلك المشهد.

00

كانت نقطة الضوء تقترب بسرعة وتصبح أكبر، قبل أن يظهر شبح سفينة ضخمة، ركّزت أضوائها على القارب، وبدءوا يُنزلون سلالم حبال هبط منها بعض البحارة لمساعدة الناجين، ساعدوا الجميع على الصعود إلى متن السفينة، وضعوهم جميعا في بهو السفينة، وأعطوهم مناشف لتجفيف أجسامهم ووجبات سريعة ليستعيدوا بعض الطاقة، وحليب وغذاء خاص للأطفال، أبلغهم أحد البحّارة أن الباخرة متجهة إلى جزيرة صقلية التي تبعد بحوالي ساعتين من المكان.

شعر سعيد للمرة الأولى ببعض الراحة والهدوء للمرة الأولى منذ سنوات، منذ لحظة القبض عليه بواسطة جهاز الأمن، استسلم لنوم متقطع في مقعده، تذكر سيدة ووعده لإكمال زواجه منها في أقرب وقت ممكن، تذكر النقيب عبد الله ابن عمه، هل عرفت أسرته شيئا عن مصيره أم لا، كان مقتنعا أنهم قتلوه، عرف في فترة المعتقل أن كل من عرف شيئا حتى لو بالصدفة، عن قضية محاول اغتيال الرئيس المصري، تمت

تصـــفيته، أحدهم تمت تصـــفيته، وقاتله نفســـه تمت تصـــفيته لإخفاء أية أثر للجريمة إلى الأبد.

لكنه برغم ذلك كانت لديه خطة لمحاولة استجلاء مصير النقيب عبد الله، تحســـس للمرة الأولى منذ مغادرته للســـاحل الليبي، ذاكرة الفلاش التي يحتفظ بها مع بعض المال داخل ملابسه.

اســتيقظ بعد قليل على أصــوات عالية، كانت الباخرة قد رســت في مكان ما، نقلتهم حافلة كبيرة كانت في الانتظار إلى مركز اســـتقبال قريب من الميناء، حيث تم اســـتجواب كل واحد منهم على حدة حول جنسيته ومعلوماته الشخصية، وسبب سفره بالبحر بدون أوراق ثبوتية، وبعد التحقيق يقوم كل مهاجر بتوقيع طلب للحصول على إقامة مدتها ستة أشهر.

أســتغرق التحقيق مع المجموعة عدة ســاعات حصــلوا خلالها أثناء الانتظار على وجبة خفيفة، وبعد انتهاء التحقيق نقلوا بواســـطة الحافلة إلى مركز احتجاز في مدينة نابولي، أخبرهم المحقق أن عليهم الانتظار لمدة أقصـــاها أربعة أســـابيع قبل حصولهم على بطاقة الإقامة التي تتيح لهم التحرك بحرية خلال ستة أشهر.

كانت أيام الانتظار في مركز الاحتجاز رتيبة، لحسن الحظ كانت هناك مكتبة صـــغيرة ملحقة بالمركز، يمكن فيها قراءة بعض الصـــحف أو اســـتعارة كتاب، ســـعيد كان يحب القراءة، لكن مشـــاغل الحياة مع العمل في العاصـــمة باعدت بينه وبين

القراءة، لكنه كان يتابع الصحف، لديه مكتبة صغيرة يحتفظ بها في البيت، كان يعثر أحيانا على كتاب نادر، مع باعة الكتب الذين يفترشون بكتبهم الأرض جوار الجامع الكبير في الخرطوم، أو جوار مبنى البوستة في أمدرمان.

كانت هناك صحيفة عربية واحدة في المكتبة، إضافة لصحف إيطالية وإنجليزية، كان على سعيد أن يذهب بمجرد فتح المكتبة لأن هناك نسخ قليلة من الصحيفة العربية، إن لم يذهب مبكرا، سيكون عليه الانتظار طويلا، قام مرة واحدة باستعارة كتاب اختاره من مجموعة الأدب الإنجليزي في المكتبة، اختاره مجرد أن وقعت عينه على اسم الكاتب: شارلز ديكنز، كان قد قرأ له في المدرسة المتوسطة قبل سنوات كتاب قصة مدينتين وكتاب أوليفر تويست، لكنه وجد كتاب مذكرات بيكويك الذي عثر عليه في المكتبة، بلغة معقدة جدا، لم يستطع مواصلة قراءته، كانت كتب المكتبة الإنجليزية الكلاسيكية الموجودة ضمن المناهج الدراسية في السودان، بلغة إنجليزية مبسطة جدا، يسهل على قارئ لم يدرس الإنجليزية كثيرا، أن يتمكن من قراءتها، يذكر أنه حاول مرة قراءة كتاب لشكسبير لكنه وجد لغته صعبة جدا، يذكر أنه تناقش مع أستاذ اللغة الإنجليزية، الذي أخبره أنّ لغة معظم الكتب الكلاسيكية لغة صعبة، ربما لم تعد بعض مفرداتها مستخدمة في اللغة الإنجليزية الحديثة، لكنّ الطبعات الجديدة المعدّلة من هذه الكتب، تكون دائما لغتها مواكبة للتغييرات التي طرأت على

اللغة، كان أستاذ اللغة الإنجليزية دائما يقول إنّ اللغات تتطور مثل كل سلوك آخر للإنسان.

شارك في حوارات مع المجموعة التي سافرت معه، حول مستقبل أحوال المهاجرين في أوروبا، وحول برنامج كل منهم بعد الحصول على الإقامة المؤقتة، كان أكبر هم معظمهم هو الوصول إلى أوروبا، اما ما الذي يجب عليهم القيام به بعد ذلك فلم يفكر فيه أحد. قال أحد الشباب الإريتريين: أريد مواصلة دراستي، كنت قد بدأت دراسة الطب لكنني توقفت قبل أن أكمل السنة الأولى، ولا أدري هل يمكنني هنا مواصلة دراستي أم يجب أن ابحث عن عمل! أوضح الشاب الإريتري إنّ ما يجعله متخوفا أنه قرأ في بعض الصحف، إنّ السياسات الخاصة باستقبال المهاجرين والمساعدات التي تقدم لهم، أصبحت تتغير بسرعة، فبسبب سيل اللاجئين على أوروبا من أفريقيا ومن سوريا وغيرها، أصبح هناك تخوف من إمكانية استيعاب كل هؤلاء اللاجئين، وأدى ذلك إلى ازدياد شعبية الأحزاب اليمينية التي تناهض معظمها سياسة استقبال اللاجئين.

انضم لمجموعتهم اثنان من الشباب السودانيين، لم يسافرا معهم في رحلة الصحراء إلى ليبيا أو رحلة البحر، وصلا إلى مركز الاحتجاز بعد يومين من وصول سعيد، كانا قد قدما أيضا من ليبيا، لكنهما تعرضا لمتاعب كثيرة هناك، كان سعيد يعتقد أن ما رأته مجموعته من أهوال يندر أن يمر بها شخص آخر،

من احتجاز على يد داعش، وتعطل القارب في عرض البحر، إضافة للرحلة المضنية عبر الصحراء.

لكن التقائه بالشـــابيين القادمين من ليبيا أعطاه انطباعا أنه ومجموعته كانوا أكثر حظا، من آخرين كثر عانوا ولا يزال البعض يعاني أهوالا رهيبة، حكى له الشـــابان أنهما بعد عذاب شـديد وصـــلا إلى ليبيا مع خمســة شـبان آخرين وبنتين من أريتريا، وأنهم جميعا اضـــطروا للعمل في ليبيا لأنّ المال الذي تبقى معهم بعد رحلة الصحراء، لم يكن كافيا لركوب البحر.

اختطفتهم عصـــابة وباعتهم كرقيق، عملوا لفترة عامين في مزارع ومصانع وكانوا يتعرضون للضرب وسوء المعاملة، ولم يكن لهم من حقوق ســـوى الأكل فقط، وبســـبب التعذيب والمرض وســـوء التغذية توفي اثنان من الشـــباب، وذات مرة حاول أحد الشباب الهرب، لكنهم تمكنوا من إلقاء القبض عليه وضـــربوه حتى الموت، لم يعرفا قط مصـــير بقية المجموعة ومصـير الفتاتين الإريتريتين، لكنهما سـمعا أن معظم النســاء اللائي يقعن في أسر هذه العصابات يتم بيعهن واستغلالهن في الدعارة.

كانا الأكثر حظا حين نقلا للعمل في مزرعة بعيدة عن المناطق المأهولة، اضـــطر صـــاحب المزرعة مرة لتركهما يعملان لوحدهما، ولأنّ المنطقة بعيدة عن العمران لم يتوقع أن يقدما على الهرب، اســتطاعا الهرب حين توقفت بالصــدفة ســيارة

جوار المزرعة بسبب عطل فيها، وأثناء انشغال السائق بإصلاح السيارة، ترجاه الشابان أن يقلهما إلى أقرب مدينة وسيدفعان له كل ما يملكان من مال، وافق الرجل على أن يقلهما مجانا حين سمع قصتهما، قضيا وقتا طويلا يتسكعان في أرصفة الميناء وينامان في الشوارع، حتى أرسل لهما أحد أقربائهما استطاعا الاتصال به تليفونيا، أرسل لهما مبلغا من المال لتغطية تكاليف الرحلة عبر البحر.

سعيد قام بشراء جهاز تليفون محمول من أحد نزلاء المركز، اتصل بشقيقه كمال وطلب منه أن يطمئن والديه على أحواله وأنه بخير وفي انتظار الحصول على إذن بالإقامة ليبحث عن عمل، سأل كمال عن أحوال البلد ثم سأله إن كان قد سمع شيئا عن النقيب عبد الله، أبلغه كمال أنه لم يكن موجودا طوال شهر في البيت، كان قد سافر لأداء امتحانات نهاية العام في الخرطوم. وعده كمال أن يسأل والدته أن كانت قد سمعت بأية أخبار جديدة عن النقيب عبد الله، لكنه لا يتوقع أن يكون هناك جديد في تلك القضية، فلو كان النقيب عبد الله ظهر أو عُرف مكانه لسمع بذلك بالتأكيد.

ثم اتصل بسيدة، أخبرها أنه وصل إلى وجهته وتبقت بعض الإجراءات قبل أن يتحدد وضعه، وأين سيستقر به المقام، كرّر وعده أنه سيكمل إجراءات الزواج مجرد أن تستقر أحواله، كان سعيد يتكلم بسرعة بسبب غلاء الاتصال التليفوني

المباشر، وكان يخشى أن ينفد رصيد التليفون بسرعة، سألها أن كانت سمعت شيئا عن النقيب عبد الله، أبلغته أنها ذهبت مع والدتها لزيارة والديه قبل أيام، وعرفا منهما أنه ليس هناك جديد بشأنه وما زالت أسرته في الخرطوم في انتظار ظهوره في أية لحظة، ولم تثمر اتصالاتهم بقيادة الحزب أية معلومات مفيدة، وأن الجميع ينكرون معرفة مكان وجوده!

مرّت الأيام بطيئة، كان الشقيقان عادل وعلي قد أقنعاه أن يواصل معهم الرحلة إلى فرنسا، كانت حجتهم أن إجراءات طلب اللجوء في إيطاليا تتأخر كثيرا، المشكلة أوضح علي: إن الشتاء يقترب، وإن لم نحاول عبور الحدود بسرعة، قبل هطول الثلوج، سيتعين علينا أن نبقى هنا حتى العام القادم، يقال إن اعدادا كبيرة من المهاجرين، فقدوا حياتهم أثناء محاولة عبور الحدود في فترة الشتاء.

بعد حوالي أسبوعين من وصولهم وصلت بطاقات بعض الإقامات، فرح سعيد جدا لأن إقامة المرأة الأثيوبية وصلت، أخبرته أنها سوف تسافر في نفس اليوم بعد السماح لها بمغادرة المركز إلى روما، حيث يقيم شقيقها هناك، أعطته رقم تليفون شقيقها وشكرته على كل مساعداته، ودعها وداعا حارا ووعدها بالاتصال بها حالما تستقر أحواله.

مضت الأيام التالية رتيبة جدا، تتغير الوجوه في المركز باستمرار، مجموعة تغادر ومجموعات أخرى تصل، على

وجوههم رهق السفر عبر البحر، في الأسبوع الرابع وصلت بطاقة سعيد، أقنعه الشقيقان عادل وعلي أن يبقى معهما في المركز حتى يتسنى لهم جميعا الخروج معا، لم يكن سعيد متأكدا إن كان ذلك مسموحا، لكنه قرّر المجازفة بالبقاء، فقد سعد برفقة الشقيقين، وعرف أن أية مغامرة قادمة ستكون أكثر احتمالا معهما.

في اليوم التالي سمع اسمه عبر مكبّر الصوت، أبلغه المسئول أن عليه مغادرة المركز وان كل من يحصل على بطاقة الإقامة يمكنه البحث عن مكان آخر للإقامة، أو يمكنه تقديم طلب للجوء السياسي، وستتولى جهات أخرى تأمين المسكن ومنصرفات المعيشة لحين البت في طلب اللجوء.

أبلغ المسئول أنه فقط بقي حتى يحصل أصدقائه على بطاقات الإقامة لأنهم يرغبون في التحرك سويا في الفترة القادمة، تفهم الرجل وجهة نظره لكنه اعتذر مرة أخرى أن الأماكن محدودة في المركز، وهم يتوقعون وصول مزيد من المهاجرين مساء نفس اليوم، ذهب سعيد يبحث عن الشقيقين وجدهما في صالة الألعاب الرياضية، أبلغهما أنه مضطر للخروج اليوم لأن إدارة المركز اكتشفت أنه لا يزال موجودا في المكان، أعطاهما رقم تليفونه ليتصلا به بمجرد خروجهما وحمل متاعه القليل وغادر المركز.

00

في أحد المكاتب التابعة لجهاز الأمن والمخابرات، ظلت هاجر محتجزة لعدة ساعات، تعرضت للصفع عدة مرات، قبل أن يُلقى بها في غرفة جانبية بدون إضاءة، في النهاية حضر أحدهم لاستدعائها لمقابلة الضابط، فوجئت عند دخولها إلى المكتب أن الضابط الذي تخيلت أنه أحد ضباط جهاز الأمن، هو رئيس الجهاز نفسه، لم يسبق لها أن التقت به، لكنها رأت له بعض الصور، طلب منها الجلوس وأشار للشاب الذي أحضرها بالانصراف، سألها سؤالا واحدا: أين المستندات؟

عرفت أنهم توقعوا أنها حصلت على نسخة من مستندات رئيس تحرير الزمان قبل وفاته، ادعت عدم الفهم وقالت: أية مستندات تقصد؟

قال لها المستندات التي أحضرها لك المرحوم عاصم الحاج رئيس تحرير صحيفة الزمان! وبدون أن ينتظر منها ردا، أوضح لها: في الخامس عشر من يوليو قبل حوالي شهرين ونصف زار السيد عاصم الحاج، صحيفة الفجر، في حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، بقي لحوالي الساعة في الصحيفة،

وقبل أن يخرج، سلّمك نسخة من مستندات بها بعض قضايا الفساد المزعوم، نحن نريد هذه المستندات، أن سلمتينا المستندات سنخلي سبيلك وسنتنازل عن أية قضية ضدك، ولن تتعرضين لأية مضايقات.

هذه المستندات تهم أناس كثيرين، وقد يؤدي نشرها قبل التثبّت من الاتهامات الخطيرة فيها، إلى حدوث مشاكل تضر بأمن هذه البلاد، إن لم تعطيني هذه الأوراق لا أعرف ما سيحدث لك ولا أستطيع حمايتك، أنا هنا بغرض المساعدة فأرجو مساعدتي حتى أتمكن من تقديم يد العون لك.

حاولت هاجر كسب الوقت، قالت لا اذكر أن المرحوم زارنا في الصحيفة في تلك الفترة، ولا اذكر أن كنت قابلته، آخر مرة قابلته فيها كان قبل الاستغناء من خدماتي من صحيفته.

قال الرجل باختصار وكأنه يريد قطع الطريق على محاولة ادعاء النسيان: كنت موجودة في الصحيفة، وقد جاء بعد أن فرغ من الطواف على أقسام الصحيفة وتحية زملائه القدامى، جاء ليقف بجانب مكتبك، لا بد أنه وضع شيء ما على مكتبك، أوراق، أو ذاكرة فلاش، أو قرص مدمج.

قالت هاجر: لم يسلمني أية شيء.

قال الرجل: ألا توجد أية ملفات بها مستندات تخص اتهامات فساد لبعض النافذين في الدولة على جهاز الكمبيوتر الذي تستخدمينه في الجريدة؟

تذكرت هاجر أنّ رئيس التحرير طمأنها أنّ برامج الحماية وتشفير الملفات، لن يتيح لأي شخص الدخول إلى ملفاتها السرية، أوضحت بهدوء أنه لا توجد لديها في جهاز الكمبيوتر أية مستندات تخص فساد أية جهة.

أطرق الرجل وقال: يبدو أنك لا ترغبين في الحصول على مساعدتنا، عموما خلال ساعات سنعرف كل شيء، هناك من يقوم الآن بفحص جهاز الكمبيوتر الذي تستخدمينه، لدينا خبراء يستطيعون العثور على أية ملفات فُتحت على جهاز الكمبيوتر.

بقيت الأم ساهرة طوال الليل، اتصلت بالصحيفة أبلغها المحرر المناوب أنّ هاجر غادرت الصحيفة قبل ساعات، ووعدها بالاتصال فورا برئيس التحرير، استيقظ رئيس التحرير فزعا على خبر اختفاء هاجر، قال لابد إن هؤلاء الكلاب اعتقلوها، اتصل وهو يرتدي ملابسه بمحامي الصحيفة، لكن هاتفه كان مغلقا، أدار محرك السيارة، ثم بدأ يفكر ما الذي يمكن أن يقوم به في هذا الوقت المتأخر، كانت الساعة حوالي الثالثة صباحا، قرّر أن يتصل بصديق ضابط في الشرطة يسأله النصيحة، لحسن الحظ كان تليفونه مفتوحا ورد عليه بسرعة، قال له

الضـابط إن الصـحفية في الغالب معتقلة لدى جهاز الأمن، ومن الأفضـل أن يذهب إلى مباني الجهاز صـباحا للسـؤال عنـها، أو يتصل بالمحامي ويدع له مهمة متابعة المشكلة.

توقع رئيس التحرير أن تكون والـدة هـاجر مســتيقظـة فقرر الذهاب إليها أملا في أن تطمئن قليلا، بالفعل وجد البيت مضاء، حين طرق الباب فتحت والدة هاجر الباب بســرعة معتقدة أن ابنتها عادت إلى البيت، فوجئت برئيس التحرير، شـعرت بدوار من فرط الخوف أنّ الرجل ربما يحمل خبرا ســيئا، لكنـه قال بســرعة: ابنتك بخير، هذه ليســت المرة الأولى كما تعلمين، مهنتنا مخاطرها ومضايقاتها كثيرة.

بدأت الأم تبكي: كنت دائما أترجاها أن تترك هذا العمل، وتبحث عن عمل آخر أو تســافر لكنها تحب المشــاكل وتريد أن تبقينا دائما في قلق وخوف عليها.

أبلغها رئيس التحرير اِنْهَ ســيذهب مع المحامي صــباحا إلى مكاتب جهاز الأمن للســؤال عنها، والاطمئنان عليها ومحاولة إطلاق سراحها، طلب رئيس التحرير من والدة هاجر أن تحضر معه حتى لا تبق وحيدة بقية تلك الليلة، لكنها رفضــت قالت: ربما تحضر هاجر في أية لحظة، أفضل ان ابق في انتظارها.

أمام إصــرارها اضــطر رئيس التحرير للعودة إلى البيت، كان يشــعر بالذنب مما حدث أو قد يحدث لهاجر، رغم أنه حذرها

كثيرا، بل وحاول تأجيل كتابة المقالات لكنه استسلم أمام إصرار هاجر ورغبتها في المواجهة.

استسلم لنوم مضطرب، واتصل بالمحامي بمجرد أن استيقظ من النوم، أبلغه المحامي أنه سيحضر فورا الى مبنى الصحيفة ليذهبا سويا إلى جهاز الأمن.

انتظرا في الاستقبال لوقت طويل قبل أن يلتقيهما ضابطا في الجهاز حسب طلب المحامي، أبلغهما الضابط أنه أجرى بحثا حول اسم السيدة المفقودة، ولم يجد أية معلومة تفيد باحتجازها من قبل الجهاز، حاول الضابط أن يشرح لهما أن مهام الجهاز تغيرت منذ اتفاق السلام، وأن هناك نيابة مختصة بالجهاز تقوم بفتح البلاغات ومتابعة القضايا، قاطعه المحامي قائلا إن الجميع يعلمون أنّ الجهاز لا يزال يعتقل الناس دون اذن من النيابة أو القضاء، وانّ بعض المحتجزين يظلون رهن الاعتقال لفترات طويلة دون توجيه أية اتهام لهم أو السماح لذويهم بزيارتهم.

حافظ ضابط الأمن الشاب على هدوئه وابتسامته الخفيفة، أوضح: التجاوزات تحدث في كثير من المرافق لكننا نبذل قصارى جهدنا لتلافيها ومحاسبة كل من يتجاوز صلاحياته.

عرف المحامي الا فائدة من مواصلة الحوار، في الخارج قال لرئيس التحرير أخشى أن الأستاذة هاجر في خطر حقيقي ما داموا ينكرون وجودها معهم!

شـــعر رئيس التحرير بأنه واقع في مأزق، صـــمت قليلا وقال: وبماذا تنصحنا، كيف نتصرف لنتأكد على الأقل أنها بخير؟

قال المحامي: ســـنحاول أن نعمل في أكثر من اتجاه، يجب في البداية عمل بلاغ لدى الشـــرطة، يجب في العادة الانتظار ثلاثة أيام قبل عمل بلاغ فقدان شخص ما، سأرتب عمل البلاغ، هناك جهاز الأمن الشـــعبي التابع لتنظيم الأخوان، أحد زبائن مكتبي كان ضابطا سابقا في الجهاز ربما يستطع افادتنا بشيء، توقف المحامي أمام مبنى الصحيفة، وعد رئيس التحرير بالاتصال به حال عثوره على أية معلومات.

بقي محمد نور الدين لدقائق مع المحامي داخل الســـيارة، ثم ودعه وغادر السـيارة، دهش حين رأي المحررين كلهم يقفون في الخارج أمام الصـحيفة، شـعر أن شـيئا ما قد حدث، لم يكن من عادة المحررين مغادرة مبنى الصـــحيفة كلهم في مثل هذا الوقـت، يخرج المحررون لاســـتراحـة أحيـانـا خلف مبنى الصحيفة، توجد بائعة شـاي تحت شجرة النيم خلف الصحيفة، يتحاورون ويدخنون ويشربون القهوة والشاي هناك.

بـادره أحـد المحررين: وقع هجوم على الصـــحيفـة من جهـة مجهولة، كانوا يبحثون عن شـــيء ما، اســـتولوا على أجهزة الكمبيوتر، وعبثوا بكـل شـــيء وحطموا قطع الأثـاث ومزقوا الأوراق، عرف أنهم قاموا بإبلاغ الشـــرطة بالحادثة وهم في انتظار وصـول الشـرطة، وإنـهم آثروا البقاء في الخارج حتى لا

يفسدوا أية أدلة أو بصمات قد تقوم الشرطة برفعها، سأل رئيس التحرير عن الحارس الليلي للصحيفة والمحرر المناوب، عرف أن المعتدين احتجزوهما في إحدى الغرف تحت تهديد السلاح، وبقيا محتجزين لعدة ساعات طوال الليل حتى غادر المعتدون، أوضح أحد المحررين: طلبنا منهما الذهاب إلى البيت، كانا يشعران بإرهاق بسبب الواقعة والسهر طوال الليل، سوف يعودان لاحقا ليدليا بإفادتهما للشرطة.

بدا رئيس التحرير قلقا جدا، كان يشغله مصير هاجر أكثر مما وقع للصحيفة، زاد من قلقه شعوره أن التفتيش الدقيق والاستيلاء على أجهزة الكمبيوتر، يعني أنهم عرفوا بصورة ما بخبر المستندات التي وصلت للصحيفة.

لا بد من أن مقالات هاجر أكدت شكوكهم، المشكلة أنهم حتى لو عثروا على صور المستندات المطلوبة في أجهزة الكمبيوتر التي استولوا عليها، سيضعون احتمال وجود نسخ أخرى من صور المستندات في أماكن أخرى، ما يعني أن المضايقات ستستمر وسيصعب التنبؤ أين ستنتهي.

قام بفحص تليفونه الذي ضبطه في وضع الصامت أثناء وجوده في جهاز الأمن، ونسي رفع صوت الجرس مرة أخرى، وجد أن والدة هاجر اتصلت به عدة مرات، اتصل بها وحاول أن يطمئنها رغم أنه فشل في إخفاء نبرة القلق في صوته،

أوضح لها أن المحامي يبذل جهدا كبيرا وأنها ستعود إلى البيت في أقرب فرصة.

00

قضى سعيد ليلته الأولى متسكعا في وسط المدينة، حين شعر بالجوع، بحث عن مطعم رخيص، لا يكلفه كثيرا، وجد مطعما مكتوب عليه بالعربية: ساندوتشات فول وفلافل، كان هناك شخص واحد في المطعم الصغير يقوم بكل شيء، يعد الطلبات ويسلمها ويحاسب على الطلبات، معظم الزبائن كانوا يتسلمون طلباتهم ويغادرون المحل للجلوس في الميدان، الذي يطل عليه المحل، كانت الحركة هادئة في الميدان الذي تتوسطه نافورة ضخمة، عرف سعيد أن الرجل صاحب المطعم من مصر، جلس سعيد يأكل على أحد المناضد القليلة داخل المطعم الصغير، بعد أن فرغ من الأكل، سأل صاحب المطعم إن كان يعرف فندقا رخيصا في الجوار، سأله الرجل المصري: هل أنت مهاجر؟ أخبره سعيد أنه وصل منذ أسابيع قليلة عن طريق البحر، قال الرجل: قبل عامين كان معي هنا شاب سوداني، جاء أيضا من ليبيا عمل معي لفترة هنا في المطعم لكنه قرر السفر، اعتقد أنه الآن في بريطانيا، كان يرغب في إكمال دراسته.

أوضـــح له الرجل: الفنادق في وســـط المدينة غالية قليلا، لكن يمكنك الذهاب بعيدا قليلا من وســـط المدينة، شـــرح له كيفية الوصـــول إلى أحد الفنادق الرخيصـــة، ثم فكّر صـــاحب المطعم قليلا وقال، لدي عرض لك أن كنت لا تمانع، هناك شـــاب يســـاعدني في العمل لكنه مريض، إذا لم يكن لديك مانع يمكنك تنظيف المطعم بعد نهاية العمل، سأدفع لك بعض المال ويمكنك قضـــاء الليلة في المطعم، وان رغبت يمكنك مســـاعدتي أثناء النهار وسأدفع لك أيضا، وجد سعيد الفكرة جيدة وحلا مناسبا له، ســـأله الرجل: هل حصـــلت على إقامة مؤقتة هنا، أخرج ســـعيد بطاقة الإقامة، قال الرجل: ممتاز، فقط لكي أطمئن، لأنّ البوليس أحيانا يداهمنا بحثا عن مهاجرين غير شرعيين.

بقي سعيد أسبوعا كاملا في المطعم، كان يقوم بتنظيف المطعم وغســـل الأواني ليلا، كان يخلد للنوم قرابة الفجر ويســـتيقظ عصرا، يساعد صاحب المطعم في فترة المساء ثم يبدأ عمله الليلي بمجرد إغلاق المطعم.

بعد أسبوع رجع مساعد الطباخ، اعتذر له المصري بأن العمل لا يحتمل أكثر من شـــخص واحد، دفع له نقوده لكنه عرض عليه المبيت في المطعم أن رغب في ذلك حتى يحين موعد سفره، شكره سعيد وقرر ألا يثقل عليه كثيرا، قضى ليلة واحدة في فندق صغير في أطراف المدينة، في الصباح خرج يتسكع في وســـط المدينة أملا في أن يجد عملا مؤقتا في مكان ما،

لحسن الحظ اتصل به علي وأخبره أنهما تسلما بطاقات الإقامة صباح اليوم، وسوف يغادران المركز الآن، اقترحا عليه أن يسافرا إلى الحدود الفرنسية فورا، لأنّ من الأفضل محاولة عبور الحدود ليلا، اتفق سعيد أن يتصل به علي مرة أخرى، حين يغادر مع شقيقه المركز ليلتقي معهما في محطة القطار.

كانت الساعة الواحدة بعد الظهر حين التقوا أخيرا في محطة القطار، وجدوا أن أول قطار سينطلق بعد حوالي ساعتين، قاموا بشراء التذاكر، قيمة التذكرة الواحدة حوالي مائة وخمس وثلاثين دولارا، تبقى مع سعيد بعض المال، ساعده العمل في المطعم المصري لمدة أسبوع في تغطية تكلفة الفندق وتذكرة القطار واحتفظ لنفسه بالمبلغ الذي وصل به من ليبيا، بقي مع الشقيقان قليل من المال، لكن سعيد طمأنهما أنه لا يزال يملك بعض المال لتغطية أي نفقات غير متوقعة في رحلتهم.

اقترح سعيد أن يذهبا لأقرب متجر خارج المحطة لشراء بعض الخبز والبسكويت والماء، فالرحلة طويلة كما عرف من موظف بيع التذاكر، كما أننا نحتاج لمعاطف، الجو لا يزال دافئا لكنه يصبح باردا مساء وسنضطر لعبور الحدود في وقت متأخر من الليل، اقترح عادل أن يبحثوا عن مكان ملابس مستعملة، عثروا على متجر قريب، اشتروا منه ما يحتاجونه للرحلة الطويلة، سأل سعيد البائع بالإنجليزية إن كان هناك متجر للملابس والأشياء المستعملة، شرح له الرجل أن هناك

متجرا يبعد دقائق قليلة من المكان، أشار له على الطريق الذي يجب أن يسلكه، لحسن الحظ وجدا في المتجر ملابس مستعملة، اشتريا ثلاثة معاطف وثلاثة أحذية، أصر سعيد على دفع قيمة المشتريات رغم أن الشقيقين حاولا المساهمة، لكنه طلب منهما أن يحتفظا بالمبلغ المتبقي معهما ربما يحتاجان له في الفترة القادمة.

عادا إلى المحطة، تبقت حوالي الساعة على موعد القطار، تجولوا في محطة القطار القديمة، واشترى سعيد من متجر كتب في المحطة صحيفة الشرق الأوسط التي تصدر في لندن، انطلق القطار في تمام الساعة الثالثة والثلث، قال سعيد: حسب الجدول الذي أعطاه لي موظف التذاكر لدينا حوالي ست ساعات حتى نصل إلى مدينة اسمها تورينو، سنبقى فيها حوالي نصف ساعة ثم نستقل قطارا آخر إلى مدينة باردونيتشيا على الحدود الفرنسية، التي سنصلها قبل منتصف الليل بدقائق .

أخلد سعيد إلى النوم بعد أن قرأ الصحيفة كلها، حتى الإعلانات والصفحات الاقتصادية قراها كلها، مازحه علي قائلا: لقد قرأت الصحيفة من أول كلمة لآخر كلمة، كأنك تريد أن تسترد كلما دفعته فيها! ضحك سعيد وناوله الصحيفة، كان المساء قد بدأ يرخي سدوله وغابت في الظلام مشاهد الريف الإيطالي الجميلة، حيث القطار يعبر أسفل مدن غارقة في غابات تبدو

معلّقة في الضباب بين الفضاء وسفوح الجبال، يعبر شريط حياته وهو بين اليقظة والنوم مختلطا بالمشاهد التي يعبر القطار من فوقها، أشباح المدن، الأضواء المتناثرة، المطر الذي يطرق نافذة القطار كأنه يطلب الإذن للدخول، يعبر شريط الذكريات يرى نفسه هو وكمال شقيقه الأصغر يسبحان في مجاري المطر، يلعبان فوق شجرة التبلدي بعد توقف المطر، تذكر الراعي الطيب الذي استوقفهما مرة، أحضر ثمرة تبلدي كبيرة وشقها ثم حلب إحدى أغنامه في وعاء الثمرة، ثم أعطى الصبيين الثمرة ليشربا منها، كان خليط اللبن وثمار القونقليز لذيذا بصورة لم ير سعيد لها مثيلا، حتى إنه كان يطلب من أمه دائما أن تصنع له مثل ذلك العصير، لكن أمه تقول له: يجب أن أقوم بغلي اللبن على النار، لا يمكن أن احلب اللبن مباشرة فوق الثمرة، اللبن غير المغلي سيسبب لك الإسهال.

ينهمر شريط الذكريات كأنه يسابق القطار في الرحلة الليلية إلى المجهول، إلى المستقبل، حتى يتوقف شريط الذكريات عند الزيارة التي قلبت حياته رأسا على عقب، زيارة النقيب عبد الله حاملا حقيبة المستندات التي ربما دفع حياته ثمنا لها، ويدفع هو أيضا عمره في ترحال في أقاصي العالم، في قطار ليلي يمضي كأنه يطارد هدفا مستحيلا، لو أن أحدهم قال له قبل سنوات، ستذهب عبر البحر إلى أوروبا، فلا شك أنه سيضحك كثيرا من تلك النبوءة التي لا مكان لها في خطط مستقبله، فلم يكن يدر بخلده قط أنه يمكن أن يفارق هذا البلد وأهله، كان

طموحه أن يعود إلى النهود ويؤسس لنفسه ورشة صغيرة لصيانة السيارات، ويعيش بقية حياته مع سيدة ومع والديه.

توقف القطار في محطة تورينو، كان عليهم أن يغادروا القطار بسرعة، للحاق بالقطار الثاني الذي سيحملهم إلى المحطة الأخيرة.

في بهو المحطة بحثوا عن رقم الرصيف الذي يقف عليه القطار الثاني، وجدوا المعلومات كلها على لوحة رقمية كبيرة، أسرعوا إلى الرصيف رغم أنه كانت قد تبقت أكثر من نصف ساعة لهم، كان لا يزال في حقيبتهم بقية الخبز والأطعمة الخفيفة التي اشتروها من نابولي، لكن سعيد اقترح احتياطا أن يشتروا أشياء إضافية ربما يحتاجون لها في الرحلة بالأقدام عبر الحدود، ربما لا يجدون متجرا مفتوحا عند وصولهم منتصف الليل إلى محطتهم الأخيرة.

لاحظ عادل: المتاجر في محطات القطار تكون غالية الأسعار، هز سعيد رأسه وقال لن نشتري أشياء كثيرة، فنحن على كل حال سنسير على أقدامنا لعدة كيلومترات ولا يجب أن نحمل أشياء كثيرة على ظهورنا.

قال علي: أرجو أن يكون الحظ إلى جانبنا ولا نصادف البوليس الفرنسي، سيعيدوننا فورا إلى داخل حدود إيطاليا، عموما الرحلة لن تكون صعبة، ربما يكون المطر مزعجا قليلا لكنه أفضل كثيرا من الثلج، سمعت أن كثير من المهاجرين فقدوا

حياتهم أثناء محاولة عبور الحدود في فترة الثلوج ، يقال إن المهاجرين يفضّلون تلك الفترة بسبب وجود تراخ أمني أثناء أعياد الميلاد ورأس السنة الجديدة.

أشترى سعيد من أحد المتاجر بعض زجاجات مشروب الشاي البارد، واشترى أيضا بعض مشروبات الطاقة، قال ستكون مفيدة جدا أثناء المشي، ثم تسلقوا سلالم المحطة إلى الرصيف، انطلق القطار في موعده، كانوا يشعرون ببعض الخوف، نبههم عادل أن يقوموا بإخفاء بطاقات الإقامة مجرد دخولهم إلى الحدود.

أوضح علي: لابد أن نحاول الوصول إلى مدينة أخرى أن نجحنا في اجتياز الحدود، حسب ما سمعت من بعض المهاجرين في مركز الاحتجاز أن البوليس الفرنسي يعيد أولئك الذين يطلبون حق اللجوء السياسي في المدن القريبة من الحدود الإيطالية، يعيدهم إلى إيطاليا.

استغرق سعيد في النوم، لكن علي ايقظه بعد قليل، الرحلة من تورينو تستغرق فقط حوالي الساعة والنصف، خرجوا بسرعة من المحطة، كان الجو قد اصبح مائلا للبرودة، ارتدوا معاطفهم، قال سعيد لا اعرف الى اية اتجاه يجب ان نسير يجب ان نسأل شخصا ما، وجدوا أنفسهم بجانب امرأة شابة خرجت معهم من محطة القطار، سألها سعيد ان كانت من سكان المدينة وحين اجابت بنعم، قال لها نريد الاتجاه الى بلدة على

حدود فرنســـا، هل يمكنك ان تصـــفين لنا الطريق؟ ابتســـمت الســـيدة لابد انها عرفت انهم من المهاجرين ويريدون عبور الحدود، أشارت لهم الى الاتجاه الصحيح، قالت لهم ان الحدود قريبة جدا، وسألتهم الى اين يتجهون: قال سعيد الى: نيفاتشه، قالت المرأة انها قريبة ربما مسيرة ساعة او أكثر قليلا، ذهبت اليها مرة بالدراجة ومرة بالســـيارة، لكنني لم اجرب الذهاب مشيا على الاقدام، وصفت لهم الطريق بدقة شديدة، قالت لهم يقوم البوليس بدوريات منتظمة، ربما يكون الحظ الى جانبكم خاصـــة مع هذا الجو الماطر، لو دخلتم عن طريق الدراجات ربما لا ينتبه لكم أحد، هناك طريق مخصص للدراجات.

تابعوا طريقهم حسب وصف السيدة، بعد حوالي النصف ساعة وجدوا أنفســهم يســيرون بقرب مزارع خارج المدينة، ســاروا بحذر جوار المزارع بعيدا قليلا عن طريق الســيارات، مضــت قرابة الســـاعتين، قبل ان تبدا بعض اللافتات المعدنية باللغة الفرنســـية تظهر امامهم، فجأة وجدوا أنفســـهم بجانب مقهى صغير لم يصدقوا انهم في داخل الحدود الفرنسية، اقترح سعيد ان يشــربوا شــيئا دافئا ويســتفســرون من الطريق الى محطة القطار، قال علي: هذه مدينة صــغيرة ربما لا يوجد فيها محطة قطار، لكن يمكننا أن نســتقل البص الى اقرب مدينة بها محطة للقطار، لكن على كل حال يجب أن نجد شــخصــا ما ليدلنا على الطريق، لاحظ ســـعيد: غريب ان يكون هناك مقهى مفتوح في مثل هذا الوقت الساعة تقترب من الثالثة صباحا.

فجأة وهم على وشك دخول المقهى، غمرهم ضوء سيارة باهر توقفت أمامهم، هبط منها ثلاثة رجال شـــرطة، طلب أولهم أن يرى بطاقات هوياتهم.

00

أعادهم البوليس الفرنسي إلى داخل الحدود الإيطالية، قال لهم رجل الشرطة الإيطالي الذي تسلمهم أنه يجب عليهم أما البحث عن عمل، أو تقديم طلب للجوء قبل أن تنتهي مدة إقامتهم المؤقتة، ويتعرضون للترحيل، كانت الشمس قد أشرقت حين خرجوا من مركز الشرطة، اقترح سعيد أن يبحثوا عن فندق، لأنهم في حاجة للراحة بسبب إرهاق الليلة المنصرمة، أوقفوا رجلا لسؤاله عن أقرب فندق يمكنهم الذهاب إليه، نظر لهم الرجل ويبدو أنه عرف أنهم من المهاجرين، قال لهم يوجد فندق مخصص للشباب بأسعار زهيدة، تطوع الرجل بأن رافقهم إلى المكان، لحسن الحظ أعطوهم غرفة كبيرة مخصصة لشخصين لكنهم وضعوا فيها سريرا إضافيا، كان سعيد مرتاحا لعثورهم على مأوى بسهولة، رغم خيبات الليلة المنصرمة، وقال سنذهب لنأكل شيئا ونعود للنوم، ويمكننا ما دامت تكلفة المكان معقولة أن نفكر بهدوء في الخطوة القادمة ولا نتعجل محاولة عبور الحدود مرة أخرى.

استيقظوا عصرا، كانوا يشعرون بجوع شديد، تناولوا وجبة خفيفة من بعض ما تبقى معهم من خبز وبسكويت، وقرروا أن يخرجوا مساء للبحث عن مطعم لتناول وجبة العشاء، اقترح سعيد: أرى أن نقوم بطلب اللجوء هنا في إيطاليا.

عادل وعلي كانت لديهم معلومات أفضل حول أوضاع المهاجرين في إيطاليا، حسم الطلب يستغرق وقتا طويلا، أوضح عادل، وسيطلبون منك إحضار جواز سفر من بلدك لوضع الإقامة عليه، هذا إن سارت الإجراءات دون تعقيدات، وفي فترة انتظار الحسم لا يقدمون لك مكانا للسكن، البعض يقيمون في البيوت المهجورة أو المباني قيد الإنشاء، أو تقدم بعض الكنائس مسكن مؤقت للمهاجرين، نحن لا نملك جوازات سفر وسيكون صعبا جدا أن نحصل عليها لأن سفارات الحكومة لا تتعاون مع طالبي اللجوء.

اذن قال سعيد: لا حل سوى الدراجات، بدا على عادل وعلى أنهما لم يفهما ما يقصد، قال لهما هل تذكران كلام السيدة التي التقيناها أمام محطة القطار؟ قالت لنا إذا عبرتم الحدود بالدراجات لن ينتبه لكم أحد، باعتبار أن من يستخدم الدراجة هو بالضرورة يسكن في المنطقة.

صمت الشقيقان أملا في أن يوضح سعيد فكرته، قال سعيد: لماذا لا نجرّب ما دام طلب اللجوء هنا مستبعد في الوقت

الحالي، اقترح أن نخوض تجربة عبور الحدود مرة أو مرتين، إن لم ننجح لن يكون هناك حل سوى طلب اللجوء.

قال عادل: لنبحث إذن غدا عن متجر للأشياء المستعملة، ربما يحالفنا الحظ ونجد دراجات بأسعار معقولة، لكنني أقترح أن نبحث عن عمل، أخشى أن ما تبقى معنا من مال لن يكفي خصوصا إن فشلت المحاولة القادمة، هناك مزارع قريبة من الحدود مررنا بها بالأمس ما رأيكم أن نمر على بعض المزارع بحثا عن عمل؟

كان اقتراحا جيدا، قال سعيد إذن فليكن برنامجنا غدا الذهاب إلى منطقة المزارع لنبحث عن عمل.

صباحا عادوا للسير على نفس الطريق الذي سلكوه أثناء محاولة عبور الحدود، أول مزرعة زاروها اعتذر لهم المزارع لأنّ موسم حصاد التفاح قد انتهى، أشار لهم إلى مزرعة أخرى ربما يجدون فيها عملا، قال إن لديهم معملا لعزل الفواكه وتعبئتها، بالفعل وجدوا عملا هناك، قال صاحب المزرعة إنه يحتاج لشخصين، لكن لا مشكلة يمكنه أيضا أن يجد عملا للشخص الثالث.

عزل الفواكه التالفة يجب أن يتم بسرعة، فالماكينة التي تمر الفواكه عليها تتحرك بسرعة شديدة، بعد ساعتين حصلوا على استراحة، كان معهم عمال آخرين أفارقة وبعضهم من المغرب العربي، في السادسة مساء انتهى يوم العمل، طلب منهم

صــاحب المزرعة العودة في اليوم التالي مبكرا، كانوا في غاية الإرهاق حين عادوا نهاية اليوم إلى المدينة، تناولوا عشــاءهم بســرعة في مطعم صــغير وجدوه في طريقهم، قبل أن يعودوا إلى الفندق.

تواصــل العمل لمدة أســبوعين ثم أبلغهم صــاحب المزرعة أن العمل ســيتوقف وربما يحتاج إليهم بعد أيام، أعطاه ســعيد رقم هاتفه المحمول ثم فكّر قليلا، كان قد عرف من بعض العمال أن صــاحب المزرعة يســتورد أحيانا فواكه من داخل حدود فرنســا ليقوم بإعادة تعبئتها ثم بيعها.

بعد أن دفع لهم صــاحب المزرعة أجرة الأيام التي عملوا فيها، اســتوقفه ســعيد وأبلغه أنهم يريدون عبور الحدود إلى فرنســا، ويمكنهم أن يعملوا معه مجانا في شــحن عربة النقل من هناك بشرط أن يتركهم داخل الحدود.

فكر الرجل وابتســم قائلا إن ذلك قد يدخله في مشــاكل مع الســلطات الفرنســية، ثم ســأل ســعيد: هل تريدون الســفر إلى بريطانيا؟ كان قد ســمع أن معظم المهاجرين الذين يجازفون بعبور الحدود إلى فرنســا، يتجهون إلى مدينة كاليه لمحاولة العثور على شاحنة تقلهم سرا إلى بريطانيا.

أجاب سعيد: نعم نريد أن نحاول الوصول إلى بريطانيا.

قال الرجل الذي يبدو أنه كان راغبا رغم تخوفه في مساعدتهم، أعطني فرصة وسأتصل بكم إن أمكن لي ترتيب ذلك.

في طريق العودة قال عادل: اذن لا داعي لشراء الدراجات!

ابتسم سعيد وقال لننتظر ونرى، الرجل يبدو مترددا، لكن دعنا نأمل خيرا.

قال علي: أعطاني سؤال الرجل فكرة ثانية، لم لا نحاول فعلا الوصول إلى بريطانيا؟

لم يبد سعيد تعاطفا مع الفكرة، أوضح: نحن لنا قرابة الشهر لا نستطيع عبور حدود يستغرق عبورها أقلّ من ساعة، فكيف تريدنا عبور البحر إلى بريطانيا؟ سمعت أن بعض المهاجرين يفترشون الأرض لسنوات قبل أن تتاح لهم فرصة الدخول إلى بريطانيا، بالنسبة لي أريد فقط أن استقر في مكان ما، وابحث عن عمل وكما ترون فرص العمل كثيرة في هذه البلاد، في الأيام القليلة التي قضيتها في انتظاركم في نابولي وجدت عملا في مطعم، ولو ذهبنا إلى مدينة مثل روما مؤكد سنجد فرصا كثيرة، هنا في هذه البلدة الصغيرة وجدنا عملا لمدة أسبوعين، وربما نجد عملا آخر إن بحثنا فنحن لم نقصد في بحثنا سوى هذه المنطقة، فلماذا نقضي عمرنا كله في محاولة عبور الحدود من بلد إلى آخر؟

قال عادل: بريطانيا فيها فرص أكثر وفيها فرص أفضل للدراسة، كما أن الإنجليزية أفضل لنا، على الأقل درسناها في مدارسنا ونستطيع أن نتقدم فيها بسرعة.

لكن سعيد لم يقتنع، قال دعونا نصل إلى فرنسا، إذا أردتم التقدم فذلك خياركم، لكن بالنسبة لي ستكون فرنسا آخر محطة.

ذهبوا في اليوم التالي إلى متجر الأشياء المستعملة، وجدوا ملابس وأواني منزلية، وجدوا دراجات أيضا، قديمة بعض الشيء لكن أسعارها رخيصة، قرروا عدم التسرع بشرائها لحين اتصال صاحب المزرعة بهم.

كانوا يتسكعون في المدينة نهارا ويتناولون وجبة واحدة في مطعم جزائري في وسط المدينة، كان هناك أيضا مركز اتصالات وإنترنت اعتادوا على قضاء بعض الوقت فيه مساء، اتصل سعيد بشقيقه كمال للاطمئنان على والديه والسؤال عن اخبار النقيب عبد الله، كما اتصل بسيدة وطمأنها على أحواله وأخبرها أنه سيتصل بها قريبا مجرد أن تستقر أحواله.

مضت عشرة أيام ولم يتصل صاحب المزرعة، بدأ سعيد يشعر بالقلق، لابد أن الرجل خائف من تحمل المسئولية أن أوقفهم البوليس، رغم أنه طمأن الرجل أن معهم بطاقات إقامة إيطالية، ويمكن أن يقول إن أوقفهم البوليس في أية نقطة داخل الحدود، أنهم يعملون معه في المزرعة وحضروا معه أيضا لشحن فواكه من مزرعة داخل حدود فرنسا.

اتصل الرجل بعد يومين لم يتحدث كثيرا فقط قال لسعيد عندي لكم عمل، سأذهب لإحضار فواكه تعالوا غدا صباحا عند الساسة السابعة، عبروا الحدود في عربة النقل دون أية مشاكل قال لهم سنسافر حوالي ساعة إلى مزرعة قريبة من مدينة غرينوبل، هناك يمكنكم تحميل الفواكه في العربة والذهاب إلى المدينة، لركوب القطار إلى الجهة التي تقصدونها.

بعد أن قاموا بتحميل البضاعة أوصلهم الرجل قريبا من مشارف المدينة، وأصر على دفع أجرة عملهم لذلك اليوم، بل وأعطاهم مبلغا إضافيا وتمنى لهم التوفيق، وعده سعيد بأن يزوره أن جاء للمنطقة مرة أخرى ليرى إن كان عنده أية فرصة عمل له، شكروه بشدة على جهده وتحمله لمخاطر مساعدتهم في عبور الحدود، ثم اتجهوا إلى داخل المدينة.

قال سعيد لن أسافر إلى أي مكان، سنذهب إلى مركز الشرطة، حتى بالنسبة لكم، لن تخسروا شيئا إن طلبتم اللجوء، وان سنحت لكم فرصة السفر إلى بريطانيا فيمكنكم السفر، وربما لا تحتاجون إلى ذلك أن سارت الأمور بصورة جيدة هنا.

بالفعل قاموا بتسليم أنفسهم إلى مركز الشرطة، أرشدهم رجل مسن، كان يقطع الطريق مراقبا كلبه يمرح من حوله، أشار لهم إلى مركز الشرطة، قام اثنان من رجال الشرطة بالتحقيق معهم كل على حدة، ومن ثم ترحيلهم في وقت متأخر إلى مركز لاستقبال اللاجئين قريبا من مدينة باريس.

00

كان مركز اســـتقبال اللاجئين مكتظا بأعداد هائلة من البشـــر، يتكوّن المعسكر من خيم ضخمة وبيوت متنقلة صغيرة الحجم أشبه بشقة صغيرة بها غرفة واحدة ومطبخ صغير وحمّام، لحسن حظهم تم وضعهم الثلاثة لوحدهم في بيت متنقل، فور شعوره ببعض الاستقرار بجانب نشاطات المركز ومتابعته لملف قضيته مع منظمة المساعدة القانونية، قام سعيد بالبحث في المنطقة القريبة من مركز الاســـتقبال عن مقهى للإنترنت، عثر على مقهى صـــغير في شـــارع قريب، فحص أولا ذاكرة الفلاش ووجد كل الملفات موجودة بصورة جيدة، قام بإنشاء بريد إلكتروني ورفع الملفات كلها وحفظها في البريد الإلكتروني، ثم اختار بعض صور المستندات التي عثر عليها النقيب عبد الله أثناء تحقيقه في قضية محاولة اغتيال الرئيس المصري، وقام بطباعة ثلاث صور من تلك المستندات.

استطاع الحصول على عنوان السفارة السودانية من الإنترنت، سنحت له فرصة احتفال بعد أيام قليلة من وصولهم إلى فرنسا، دعت له منظمة الجالية الســـودانية في باريس، احتفالا بذكرى

ثورة أكتوبر، تعرّف على رجل من نفس منطقتهم سمع عنه كثيرا لكن لم تتح له الفرصة للقائه، كانت زياراته للسودان نادرة، رحّب بسعيد كثيرا وجلس يسأله عن جميع أهل مدينتهم، وحكى لسعيد جانب من ذكرياته هناك، كان والده يملك مشروعا زراعيا ومعملا لإنتاج الجبنة وأبقارا كثيرة، لكن بعد استيلاء الاخوان على السلطة أغرقوه في الديون، واستولوا على مشروعه الزراعي ومعمل الجبنة، وتركوه يموت بالحسرة، فجأة قال الرجل: أين عبد الله عثمان؟ كان زميلي في المدرسة! أعتقد أنه قريب لوالدك؟

حكى له سعيد باختصار ما حدث للنقيب عبد الله، وانّ مصيره مجهول حتى الآن، تأسّف الرجل كثيرا قال: رغم أن عبد الله اختار الانضمام لجماعة الإخوان، لكنه كان إنسانا مهذبا ونبيلا، لم يكن يشبههم واعتقد إنّ خطأ عمره كان في الانضمام لهذه الجماعة، سأله سعيد إن كانت له علاقات مع سفارة النظام، أوضح الرجل أن العلاقة معهم في حدود استخراج التأشيرات أو المعاملات الرسمية، لكنهم لا يسمحون لهم بمشاركتهم في برامجهم الثقافية والاجتماعية، لأن معظمهم هم في الواقع ضباط في جهاز الأمن والمخابرات، قال سعيد أريد معرفة اسم واحد من المنتمين لجهاز الأمن، أود إيصال رسالة لهم، لدي محاولة لكشف مصير النقيب عبد الله، تركت والديه وزوجته وأطفاله على وعد أن اساعد في كشف مصيره واعادته لهم ان كان لا يزال حيا.

كتب له الرجل اسم القنصل في ورقة، يمكنك توجيه الرسالة لهذا الرجل وستصل في نفس اليوم إلى جهاز الأمن والمخابرات، لكن يجب أن تكون حذرا جدا في التعامل معهم، هم يحاولون اختراق الجاليات، والتجسس عليهم وإثارة الفتن العرقية، نفس الفتن العرقية التي يثيرونها داخل الوطن، يريدون نقلها أيضا في أوساط مهاجرين هم في الواقع كلهم من ضحايا النظام نفسه.

قال سعيد: سأكون حذرا وسأحاول ألا أتعامل معهم إلا عبر البريد.

في اليوم التالي وضع سعيد اسم القنصل وعنوان السفارة على مظروف، ادخل فيه رسالة قصيرة إلى القنصل مع صور المستندات التي قام بطباعتها، كان ملخص الرسالة أنه يملك كل المستندات ومحاضر لجنة التحقيق في محاولة اغتيال الرئيس المصري، وأنه يمهل جهاز الأمن والمخابرات شهرا يعود فيه النقيب عبد الله إلى أسرته أو سيقوم بالبدء في نشر هذه المستندات، وأنه قد اتفق مسبقا مع إحدى الصحف على نشر المستندات ومحاضر التحقيق.

وضع على الرسالة أيضا بريده الإلكتروني، فكّر في وضع رقم تليفونه، لكنه تذكّر كلام الرجل الذي أعطاه معلومات القنصل، وتحذيره له من الاقتراب منهم كثيرا، بعد مرور ثلاثة أيام لم

يصله أية رد، رغم أنه داوم على فتح بريده الإلكتروني كل يوم صباحا ومساء.

كان علي وعادل قد انشـــغلا قليلا عنه، بدءا في دراســـة اللغة الفرنسية، حين أفصحا لإدارة المركز عن رغبتهما في استئناف دراســـتهما، أرســـلوهما إلى مدرســـة قريبة لدراســـة اللغة في دورات مكثفة، لأنّ فصـــل دراســـة اللغة داخل المركز، كان فقط لتعليم الطالب بعض مبادئ اللغة وبعض العبارات الشـــائعة في الاستخدام اليومي، وليس موجها لطالب يود استئناف دراسته الجامعية.

في اليوم الرابع وجد ســـعيد رســـالة في بريده الإلكتروني من القنصـــل، أبلغه فيها اهتمام جهاز الأمن بالرد عليه بســـرعة، وأنه يود مقابلته بأســـرع فرصـــة ممكنة للتباحث حول بعض الخطوات التي يجب اتباعها لحل المشكلة.

لكن سعيد رد عليه قائلا إنه يقيم في مركز للاجئين ولا يستطيع مقابلته، ويمكنه عبر البريد الإلكتروني أن يخطره بما يريد، لكن الرجل عاد ليرد على سعيد بسرعة، قال إنه يملك معلومات حول النقيب عبد الله لكنه لا يستطيع أن يرسلها عبر الإنترنت، وكرّر طلبه أن يلتقيا بأسرع فرصة، واقترح على سعيد موعدا بعد يومين ووضـــع له عنوان مقهى في باريس، وحدد له وقت اللقاء، ســـعيد لم يرد على الرســـالة رغم الفضـــول الذي اعتراه لمعرفة أي شـــيء عن مصـــير النقيب عبد الله، لكنه قرر ألا

يتعجل الاتصال المباشر بهم، شعر أنهم يخططون لشيء ما، ربما يقدمون حتى على قتله، سمع أنهم سبق لهم أن حاولوا اغتيال بعض المعارضين المقيمين في الخارج.

قرّر أن يشغل نفسه قليلا بدراسة اللغة الفرنسية والبحث عن عمل، تحادث مع شقيقه كمال ومع والديه ومع سيدة عدة مرات، طمأنهم أن أحواله تسير بصورة جيدة وأنه يتوقع الحصول على إقامة دائمة قريبا يتمكن بعدها من العمل وربما زيارتهم.

وجد عملا في عطلة نهاية الأسبوع، يقوم بغسل الأواني في مطعم، يقوم بوضع الأواني داخل ماكينة تقوم بغسلها وتجفيفها ويتولى هو إخراجها من الماكينة ووضعها في أماكنها، ومن ثم إعادة تعبئة الماكينة لغسل أوان أخرى، حين سأل مدير المطعم إن كان بإمكانه العمل أثناء الأسبوع أخبره المدير أنهم في الوقت الحالي لديهم ضغط في العمل فقط في عطلة نهاية الأسبوع، لكنهم سيتصلون به أن احتاجوا إلى مساعدة في أثناء الأسبوع.

في اليوم الذي حدده القنصل للقائه، لم يذهب سعيد، لكنه فوجئ باتصال تليفوني في نفس توقيت الموعد، اعتقد أنه ربما أحد الذين تعرف بهم في الحفل السوداني، لكنه فوجئ بأنّ المتصل كان هو القنصل نفسه! سأله سعيد كيف حصلت على رقمي، قال الرجل ضاحكا، مع هذه الثورة الرقمية ليس من الصعب

الحصول على رقم شخص ما في أي مكان في العالم ناهيك عن هذه البلاد، ثم ضحك وقال: لا تنس أن هذا عملنا أيضا.

قال لسعيد: أنا في انتظارك، أرجو ألا تضيع فرصة معرفة شيء ما عن وضع قريبك. يمكنك أن تستقل عربة تاكسي فورا وسأدفع لك أجرة التاكسي، لا أريد منك سوى نصف ساعة ويمكنك رفض لقائي مرة أخرى أن أردت، ثم اغلق التليفون وأرسل له عنوان المطعم مرة أخرى في رسالة نصية.

استقل سعيد سيارة تاكسي، مقررا أن يدفع أجرة التاكسي بنفسه، فكر سعيد أن الرجل دون شك تابع لجهاز الأمن، لكن رجال الأمن في الواقع لا يعلنون عن ذلك، لكنه شعر أن الرجل قصد أن يؤكد له علاقته بجهاز الأمن، حين أشار إلى أن معرفة رقم تليفون شخص ما هو من صميم عملهم، يبدو أنه يريد أن يعرف سعيد أنه يعالج موضوع النقيب عبد الله باعتباره ضابط في جهاز الأمن، وأنه أفضل جهة يمكن أن تكون نقطة اتصال بينه وبين الجهاز.

نظر سعيد داخل المطعم المزدحم في منطقة وسط باريس قريبة من محطة القطار الرئيسية، قبل أن يتجه إلى الشخص الوحيد الذي بدا من شكله أنه هو الشخص المقصود، صافحه وجلس بجانبه، سأله الرجل إن كان يريد شراب شيء قبل أن يحضر الطعام، لكن سعيد شكره وأوضح له أنه تناول عشاءه في البيت قبل خروجه، قال الرجل لا تستحي يا أخي، نحن إخوة

في هذه البلاد، يمكنك طلب أي مشـروب تريده حلال أم حرام لا فرق!!

ابتسم سعيد وفكّر: يمنعون شراب الخمر داخل الوطن، بدعوى أنه حرام وخارج الوطن يشـــربون كل شـــيء ويدعون الناس لشـــرابه! تذكّر أنه في الأيام التي عمل فيها في مطعم الرجل المصري في نابولي، كان يشرب قليلا من الخمر بعد أن يفرغا من العمل وكان المصري يعطيه بعض الساندوتشات للعشاء، ولأنه يعلم أن المصـــري كان يقدم لحم الخنزير لبعض زبائنه، كان يسأل المصري حين يقدم له الساندوتشات وهو مخمور: هل هذه حلال أم حرام؟

وكان المصـري يضـحك ويقول له: أنت سـكران وتسـأل عن الحلال والحرام! حكى له صاحب المطعم المصري أنه حين جاء إلى إيطاليا قبل ســنوات عمل في البداية في روما في مطعم يملكه مصـري من المسـيحيين، وأنه جادل صـاحب المطعم في الأيام الأولى حول تقديم لحم الخنزير وكان رد صـاحب المطعم: وما ذنب الخنزير؟ اسـتيقظ صـباحا ووجد نفسـه محرّما! وفي النهاية أصـبح لي مطعم وأصـبحت أيضـا أقدم لحم الخنزير للزبـائن، مطعمي في منطقـة سـيـاحيـة معظم زوارهـا من الأمريكيين، ونادرا ما يزور مسلمين مطعمي!.

قال القنصل: بذلت خلال الثلاثة أيام جهدا مضنيا، اتصلت بعدة جهات لمعرفة شـــيء عن مصـــير النقيب عبد الله، كما تعلم أن

فترة ما قبل الخلاف وانشقاق الحركة الإسلامية شهدت سيطرة تنظيم الحركة الإسلامية على أجهزة الأمن، كانت لديهم أجهزة أمن تابعة للتنظيم من قبل الانقلاب وبعد وصولهم للسلطة أصبحت تلك الأجهزة تتحكم في العمل الأمني ولديها نفوذ أقوى من جهاز المخابرات، تم حل بعض هذه الأجهزة بعد الانشقاق والبعض الآخر بعد اتفاقية نيفاشا، لكن المشكلة أن معظم الاعتقالات التي تمت قبل حل تلك الأجهزة الأمنية كانت تتم بصورة مخالفة للقانون ومعظم المعتقلين في تلك الفترة أصبح مصيرهم مجهولا.

استمع سعيد بصبر للرجل الذي لا يبدو أنه لديه أية أخبار عن النقيب عبد الله، بل ربما كان سعيد يعرف أكثر منه، لكن سعيد كان يعلم خبثهم وإخفائهم للحقائق، ومحاولة بعضهم الظهور بمظهر البريء الذي يدين أفعال أقرانه، ثم انتقل الرجل فجأة ودون مقدمات إلى الحديث حول المستندات، قال إن هذه المستندات مهمة وقد تُعرّض أمن ومصالح البلد كلها لمخاطر ومشاكل كثيرة، ثم قال بوضوح أكثر: لقد فُقدت هذه المستندات رغم أن اللجنة قدمت تقريرها ويفترض أن أمين الحركة الإسلامية يحتفظ بها، لكنها اختفت، شعر سعيد أن الرجل يكذب فقد فهم إن لم تخنه الذاكرة، أن النقيب عبد الله لم يقدم تقريره أبدا.

ثم قال الرجل: الجهة التي فقدت المســـتندات عرضـــت مكافأة ضــخمة، لمن يعيدها أو يدلي بمعلومات حول وجودها، وأعتقد أن من حقك الحصـــول على هذه المكافأة بمجرد اعادتك لهذه المستندات. صمت الرجل قليلا وقال المكافأة مليون دولار!

00

سعيد بقي بعد مقابلته للقنصل في حالة انتظار قلق، كان تحليله لكلام القنصل يشير فقط إلى حقيقة أنّ النقيب عبد الله قد تمت تصفيته، مثل كل الذين كانت لهم صلة بمحاولة اغتيال الرئيس المصري، لكنه برغم ذلك داوم على الاتصال بشقيقه كمال عسى أن يسمع شيئا يعيد الأمل في احتمال عودة النقيب عبد الله إلى أسرته، عرف أنّهم يحاولون إسكاته عن طريق الرشوة، ليست القضية قضية مستندات لأنهم يعرفون أنه يمكن أن يصنع منها ألف نسخة ويوزعها في ألف مكان ضمانا للاحتفاظ بها بعيدا عنهم، لكنهم يريدونه هو، موافقته على العمل معهم هي أفضل ضمان لسكوته لحين التخلص منه.

فكّر أنه لو كان في السودان لما ترددوا في تصفيته. انشغل في الأيام التالية بدراسة اللغة الفرنسية نهارا، كان يذهب إلى مدرسة اللغة داخل المركز مرتين في الأسبوع، ويعمل في نهاية الأسبوع ليلا، لكنه كان يحرص على مراجعة بريده الإلكتروني كل يومين، بسبب توقف تليفونه القديم الذي اشتراه من مركز الانتظار في إيطاليا، قام بشراء تليفون جديد، وجد أنّ بإمكانه إضافة بريده الإلكتروني إلى التليفون، فأصبح بإمكانه تلقى اشعار كلما وصلت رسالة إلكترونية جديدة في بريده.

أصبح أيضا عن طريق تطبيق الواتساب يتراسل مع شقيقه يوميا، أرسل له شقيقه صور والدته ووالده، مضت الأيام، شعر بهما وقد كبرا كثيرا في تلك الفترة، نظر في المرآة فرأى ملامحه قد تغيرت كثيرا، غزا الشعر الأبيض رأسه، وبدأ كأنه قطع في خلال عدة أشهر، عدة سنوات دون أن يشعر، ربما بسبب المصاعب والأهوال التي مرّ بها طوال سنوات منذ لحظة اعتقاله، وحتى وصوله إلى إيطاليا. كانت أربعة أشهر قد مرت منذ لقائه مع القنصل، حين فحص جهاز التليفون كعادته كلما استيقظ صباحا ليرى أن كانت هناك اية إشعار بوصول رسالة جديدة، وجد رسالة جديدة في بريده الإلكتروني، توقّع أن تكون من القنصل، لكنه فوجئ باسم مرسل الرسالة، نصر الدين الزبير، قبل أن يقرأ الرسالة بدأ يتذكر الاسم، هل يعقل أنه نفس زميله السابق قبل سنوات طويلة في المدرسة الابتدائية، كان والده مديرا للمدرسة الابتدائية وكانوا يسكنون في بيت تابع للمدرسة في نفس الحي الذي يسكن فيه سعيد مع أسرته، كان نصر الدين مشاغبا، ودائما ما تعرّض للعقاب بسبب شغبه الدائم، ولم يشفع له أن والده كان مدير المدرسة، كان سعيد يجد نفسه أحيانا متورطا في المشاكل التي يقع فيها نصر الدين، دون حتى أن يشاركه في شغبه ومعاركه اليومية.

التلميذ المسئول عن تسجيل أسماء التلاميذ الذين يحدثون فوضى في الفصل، ويقدمها لمرشد الفصل ليعاقبهم، كان دائما يضع اسم نصر الدين أولا، فجأة اختفى اسم نصر الدين من

قائمة الطلاب المشاغبين، وحلّ اسم سعيد مكانه، رغم أن نصر الدين لم يتوقف عن الشغب وتدبير المقالب لزملائه، بالصدفة اكتشف سعيد سر سحب اسم نصر الدين من قائمة المشاغبين، كان يبحث عن قلم بسبب ضياع قلمه، ولأنّ نصر الدين خرج من الفصل بحثا عن شيء ما، قام سعيد بفتح حقيبة نصر الدين بحثا عن قلم، وجد حقيبة قماش الدمور مليئة بأوراق صحف ومجلات، دهش سعيد فلم يكن نصر الدين من هواة القراءة، حين عاد نصر الدين إلى الفصل سأله سعيد عن الصحف والمجلات التي تمتلئ بها حقيبته، ضحك نصر الدين وأشار للطالب الذي يقوم بكتابة قائمة المشاغبين، وقال هامسا: أحضر له كل فترة مجموعة من الصحف والمجلات، ليتوقف عن كتابة اسمي، لحسن الحظ لدينا في البيت تلالا من هذه المجلات، بعد أن يقوم أبي بقراءتها تجمعها أمي وتضعها في المخزن، حتى كاد المخزن أن يمتلئ، تقول أمي يوما سنجد أنفسنا وقد غرقنا في تلال الورق!

ضحك سعيد حين تذكر تلك الواقعة، وفكّر أن نصر الدين ربما كان أول طفل في العالم يقوم برشوة شخص ما!، كان مندهشا إن كان هذا نصر الدين الذي أعرفه، من أين له ببريدي الإلكتروني، وقد انقطع أية تواصل لي معه منذ سنوات طويلة!

كأنّ الرجل قرا أفكاره ففي أول سطر ذكر نصر الدين انه حصل على بريده بالصدفة من شقيقه! قال انه كان يقضي عطلة في

النهود لأول مرة منذ ســـنوات، وانه ذهب لزيارة المدرســـة الابتدائية، لم يجد المدرســـة القديمة التي غرقت حين اجتاحت الســـيول المدينة قبل ســـنوات، لكن اهل المدينة قاموا ببناء المدرســـة من جديد، المدرســـة الجديدة أكبر وأجمل كثيرا من القديمة، ولأنّ سوق المدينة تمدد واتسعت المدينة قاموا ببناء عدة مخازن ملحقة بالمدرســـة، تم تأجيرها كمتاجر او مخازن للحبوب، لدعم ميزانية المدرسة.

وأثناء طوافه في المدينة التقى بالصـــدفة بشـــقيقه كمال، قال عرفته فورا، فهو صـــورة طبق الأصـــل منك، عرفت منه أنك هاجرت إلى أوروبا، وأنك تقيم في فرنسا، ومازح سعيد قائلا: يقال إنّ الفرنسيات في غاية الجمال، هل ستتزوج من فرنسية وتنســى بلدك وأصــدقاء الطفولة! ثم تمنى لســعيد التوفيق في سفره، ووعده بمراسلته من وقت لآخر، وفي ختام رسالته ذكر أنّ لديه الرغبة في السفر إلى بلجيكا في الصيف القادم، لزيارة إحدى شـــقيقاته التي تعيش هناك مع زوجها وأطفالها، وأنه سيحرص إذا تمت الزيارة في موعدها، أن يزور فرنسا ليلتقي به.

شعر سعيد ببعض الخوف، مرّت سنوات طويلة لماذا يتصل به نصـر الدين فجأة، حاول طرد الهواجس، قال لنفســه، لابد أنني أشعر بالخوف وأصبحت سريع التشكك في كل شيء يحدث من حولي، بسـبب المعركة التي وجدت نفسـي فيها مع النظام، منذ

أن سلّمني النقيب عبدالله تلك المستندات، ردّ على نصر الدين برسالة قصيرة، شكره على رسالته ووعده بالتواصل معه دائما، أوضح له سعادته برسالته بعد كل هذه السنوات، وإنه أيضا مشتاق للقائه واستعادة ذكريات ذلك الزمان الجميل.

أرسل بسرعة رسالة لشقيقه يسأله إن كان بالفعل قد أعطى شخصا ما بريده الإلكتروني.

ردّ كمال بسرعة قائلا: هل تقصد ضابط الأمن!

دق قلب سعيد بسرعة: هل هو ضابط أمن؟ اسمه نصر الدين!

رد كمال: نعم، التقيته بالفعل في السوق وسألني منك وطلب رقم تليفونك، لكنني قلت له إن معي البريد الإلكتروني، فكتبه في ورقة وقال لي إنه كان زميلك في المدرسة، قال لي إنه سيزورنا في البيت قبل عودته إلى مكان عمله في الخرطوم، كانت تلك أول مرة أراه فيها، وكان يقف معي أحد أصدقائي والده ضابط شرطة، قال لي بعد ذهاب نصر الدين، هل تعرف هذا الرجل؟ قلت له لا لكنه كان زميل أخي، فابتسم وقال لي: يقول الناس هنا أنه ضابط في جهاز الأمن والمخابرات.

شعر سعيد أن شكوكه حول الرسالة كانت في محلها، شعر أن لقاء نصر الدين بشقيقه لم يكن صدفة كما ذكر له، بل ربما كانت زيارته نفسها للمدينة لم تكن صدفة، فأسرته حسب علمه لم تكن أصلا من النهود، جاء والده منقولا من منطقة ما،

وحين تقاعد غادر مع أســـرته المنطقة وعاد للعيش في قريته في منطقة النيل الأبيض، فما الذي أتى بالرجل مرة أخرى إلى النهود؟ يقول إنـه أتى في عطلـة! لو كنـت أعمـل موظفـا في الحكومـة وذهبت في عطلـة اذهب اما إلى خـارج الوطن، وان اخترت الذهاب إلى مكان ما داخل الوطن فقطعا ســـأذهب إلى حيث تقيم أسرتي.

حاول ســـعيد أن يبقي بعض الأمل في أن الرجل صـــادق، ربما اشـــتاق الرجل لمهد طفولته وأيام الدراســـة الأولى، لكن هل يشـتاق ضـباط الأمن والمخابرات أيضـا إلى مهد طفولتهم مثل النـاس الآخرين؟ ضـــحك من فكرتـه لتصـــنيف رجـال الأمن والمخابرات باعتبارهم لا يمتون للبشـــر ومشـــاعرهم العادية بصـفة، فكّر أن النظام بممارسـاته السـيئة هو الذي رسّـخ تلك الفكرة عنـد عموم النـاس، أنّ رجـال الأمن هم وحوش آدميـة يمتلكون ســـلطات لتعذيب النـاس واعتقـالهم بـل وقتلهم ولا تستطيع أية جهة أن تحاسبهم.

تذكر أنه كان يراهم حين يعبرون في اسـتعراضـات أسـبوعية للقوة في ســـوق مدينة النهود، أكتافهم ورؤوســـهم مرفوعة، وأجســـامهم مدججة بالأســـلحة، يبتعد الناس عن طريقهم خوفا من جبروتهم، يمكنهم اختلاق مشـــكلة مع أي شـــخص فقط لمجرد إثبات قوتهم وسلطتهم ورغبتهم المعلنة في إذلال الناس وإرهابهم.

لم يطل انتظار سعيد وصلت رسالة أخرى في اليوم التالي إلى بريده الإلكتروني، بدأ رسالته بالقول لم تسألني أين اعمل كما توقعت، كنت قد درست القانون في جامعة القاهرة الفرع، وبعد أن أكملت دراستي كانت هناك وظائف في جهاز الأمن، قدمت أوراقي وجاء القبول بعد فترة، أرسلوني إلى الكلية الحربية تلقيت فيها تدريبا لعدة أشهر، ثم تم تعييني برتبة الملازم أول وترقيت حتى وصلت الآن درجة الرائد، أعمل الآن مع جهاز الأمن الاقتصادي.

بدأت الأوراق تتكشف، فكّر سعيد، آثر عدم الرد بسرعة حتى يفكر فيما يجب أن يكتبه، شعر أنّ الرائد نصر الدين يحاول استدراجه في اتجاه معين، كتب له مساء ردا قصيرا، قال له ممازحا مع شغبك القديم وسعيك الدائم لتكون قائدا لمجموعتنا، لو أنك بقيت في الجيش بعد إكمال الكلية الحربية، كنا توقعنا أنك دون شك ستُدبر انقلابا عسكريا!

رد نصر الدين بعد ساعات ضاحكا وقال ما كان لي أن أستمرّ طويلا في الجيش، لقد كنت مُجرد متطفل، لفترة قصيرة.

سأله سعيد في الرسالة التالية، وهل شاركت في العمليات العسكرية؟

قال نصر الدين في رسالته التالية: نعم شاركت في عملية صيف العبور التي استهدفت القضاء على التمرد في الجنوب.

رد عليه سـعيد: سـمعت من جندي شـارك في تلك العمليات أنه تم فيها ارتكاب جرائم رهيبة في حق المدنيين، قال لي لقد نفذنا أمرا بعد دخولنا إحدى المدن، بحرق المستشفى بكل ما فيه من مرضى!

لم ينف نصر الدين ذلك، قال الحرب مشكلة ولا توجد حرب في الدنيا لم يتم فيها ارتكاب تجاوزات!

لكن تلك التجاوزات الرهيبة قال سـعيد، أدّت لانفصـال الجنوب، أدّت لتعميق المشكلة.

رد نصر الدين ضاحكا وقال أود أن أتبادل معك ذكريات الطفولة لماذا تجرني إلى الحروب والسياسة؟

توقفت المراسلات بينهما لأيام، تحاشى سعيد أن يأتي على ذكر النقيب عبد الله لم يكن متأكدا إن كان نصـــر الدين يذكره، كان متقدما عليهما بدفعة واحدة، انشـــغل ســـعيد خلال الأســـبوع، بســـبب انتعاش حركة الســـياحة صـــيفا أبلغه مدير المطعم أن بإمكانه العمل لثلاثة أيام خلال الأسـبوع أن رغب في ذلك، دفن مخاوفه في العمل كان يشـعر أن اتصـال نصـر الدين به يحمل تهديدا خفيا، أرســـل في فترة الاســـتراحة أثناء العمل رســـالة لشـقيقه طالبا منه أن ينتبه إلى والديه وإلى نفســه، وألا يتأخر خارج البيت مساء.

لم يقرأ شـقيقه الرسـالة، كان الوقت متأخرا لابد أنه أخلد إلى النوم، في الصباح وجد رسالة من شقيقه، ووجد رسالة بريد إلكتروني من نصـر الدين، بدأ رسـالته بالقول أنه محرج أن يكتب له في هذا الموضـوع، لكنه وبحكم الزمالة والصـداقة والجوار آثر في النهاية أن يتحدث إليه بوضـوح، قال إن المهم أن يصـدقه أن هذه الرسـالة لا يعلم بها أحد، وأنه قد يطرد من عمله ويتعرض لمشاكل أن عرف بها أحدهم، لم يفهم سعيد من يقصـد بأحدهم؟ هل يقصـد جهاز الأمن والمخابرات أم جهة أخرى.

قال نصـر الدين أنه بحكم عمله يتاح له الدخول إلى ملفات سرية كثيرة، وقد عرف بالصدفة بعض المعلومات حول مشكلة المسـتندات بحوزته، قال إنه لا يعرف بالضـبط طبيعة هذه المسـتندات وما الذي أوقعها في يده، لكن ما يعرفه جيدا أن الجهة التي يهمها أمر هذه المسـتندات، تولي هذا الأمر أهمية قصـوى، وانّ هذه المسـتندات ربما تسـاوي عندهم الكثير، وبحكم خبرته وبحق الصـداقة والزمالة يرجوه أن يتنازل ويتفاهم معهم أن اتصـلوا به، لأن عدم التعاون معهم قد يقود لعواقب خطيرة ربما تهدده شخصيا وتهدد سلامة أسرته.

للوهلة الأولى شعر سعيد بالندم، لسفره، كان قرارا أنانيا، كان يظن انه يعرّض نفسـه فقط للخطر حين يكشـف عن وجود المسـتندات معه، كان يجب أن يفكر انّ إجرامهم الذي يطال

الأبرياء دائما، قد يمتد الى اسـرته، كان يجب اما ان يبق معهم أو يأخذهم معه في سفره، فكّر أن السفر لوالديه المسنين عبر الصـــحراء والبحر قد يكون انتحارا، لكن كمال كان يمكن أن يرافقه، فكّر مرة أخرى: يسافر كمال معه، ولمن يترك والديه؟

عرف انّ مراســـلات الرائد نصـــرالدين كانت كلها ومن اول رسالة تحمل رسائل مبطنة له، ربما لم يقم الرائد نفسه بكتابة تلك الرسائل، الإشارة لمقابلته لشقيقه كانت أكثر الرسائل التي أصـبحت تؤرق سـعيد، بدأ يفكر بسـرعة عرف أنّ الخطر يقع مباشرة على شقيقه، ستكون تلك ورقتهم لمساومته، تذكر أنّ لوالدته ابنة أخت تعيش وحيدة مع أطفالها بعد وفاة زوجها، وقد ســـبق لها أن ترجت والدته كثيرا في الفترة التي لم يكن كمال موجودا فيها في المدينة، لتنتقل مع والده للســـكن معهم في بيتهم الكبير حتى تتمكن من رعـايتهـا مع أطفـالهـا، لكنّ والدته وربما والده أيضا كانوا دائما يرفضون ترك البيت.

قرر ان يحاول التصرف بسرعة، أرسل لكمال رسالة واتساب بسرعة يسأله ان كان بإمكانه السفر، حاول ان يجعله يفهم ان هنـاك خطرا عليـه، طلب منـه أن يـذهب لمقـابلـة بنت خـالتـه ويبلغها انه مضـــطر للســـفر لأمر طارئ ويطلب منها ان تنقل والدته ووالدها للعيش معهم لحين عودته.

كان قد تحدث مع بعض المهاجرين القادمين من دولة تشـــاد، ابلغوه ان السـفر من تشـاد أكثر سـهولة من السـفر عبر ليبيا،

ويمكن لقريبه المسافر الحصول على جواز تشادي، وببعض المجهود والمال يمكن الحصول على فيزا في جواز السفر.

طلب من كمال ان يبلغ والديه انه مسافر لأمر هام، وسيعود قريبا وعليهم الانتقال مؤقتا للعيش مع سكينة ابنة اخت والدته، وطلب منه ان يسافر فورا، وبأية وسيلة ممكنة، وسيرسل له كل ما يحتاجه من مال بمجرد وصوله الى تشاد.

طلب منه الحذر والا يحمل حقيبة او أي شيء يمكن ان يشي بنيته السفر، فقط جواز السفر وبعض المنصرفات، كما طلب منه أن ينبه ابنة خالته أن تنتظر حتى يسافر، ثم تحضر لنقل والديه الى بيتها، حتى لا ينتبه أحد الى أنه ينوي السفر.

مساء اليوم نفسه كان كمال في الفاشر، أبلغ سعيد انه سيستقل عربة الى مدينة ابشي وسيصل انجمينا غدا ظهرا، حين غادر الفاشر أرسل كمال رسالة أخرى، وطمأن سعيد ان كل شيء يسير بصورة جيدة، وانه خلال ساعات سيعبر الحدود وسيتصل به مجرد ان يصل الى مدينة ابشي.

لم يستطع سعيد النوم طوال الليل، ربما بسبب ضعف الانترنت في المنطقة الحدودية، لم يقرأ كمال الرسائل التي أرسلها سعيد بعد مغادرة كمال للفاشر.

كان قد قرّر الا يذهب تلك الليلة الى العمل في المطعم، لكنه فكر انه لن يستطيع النوم قبل أن يطمئن على وصول كمال الى

داخل تشـــاد، وان من الأفضـــل لـه أن يذهب الى العمل، ربما يحول الانشــغال بالعمل بينه وبين القلق والتفكير المســتمر في الخطر الذي يمكن ان يتعرّض لـه شقيقه.

00

قام يزيد موسى وعدد من المحررين بتمشيط العاصمة المثلثة كلها، لم يتركوا مستشفى أو حتى المراكز الصحية الصغيرة ونقاط الشرطة في أطراف العاصمة، قاموا بطباعة صورة هاجر، وتوزيعها في أماكن التجمعات مع رقم تليفون الصحيفة، لكن كل ذلك لم يثمر شيئا.

توقف إصدار صحيفة الفجر بسبب نهب كل أجهزة الكمبيوتر، كان واضحا أنهم يريدون تعطيل الصحيفة لأطول فترة ممكنة، لم يكتفوا بحمل أجهزة الكمبيوتر كلها، استولوا على كل الأجهزة التي عثروا عليها في المكان، حتى ثلاجات الماء والطابعات الصغيرة والكاميرات وأجهزة التسجيل التي تستخدم للحوارات الصحفية، وحطموا المكاتب بعد أن نثروا محتويات إدراجها على الأرض، قام رجال الشرطة بمعاينة المكان، بدا عليهم وهم يفحصون كل شيء بصورة آلية أنهم يعرفون الفاعل.

سأل ضابط الشرطة رئيس التحرير إن كان يشك في شخص ما، أوضح لهم أن إحدى زميلاتهم تعرضت قبل يوم من الحادث

إلى الاختطاف من جهة مجهولة، قال: اعتقد إنّ هناك رابط بين الواقعتين، لم يزد عن ذلك ولم يسال الشرطي عن ظروف اختطاف الصحفية، أو لماذا يعتقد رئيس التحرير بوجود رابط بين الحادثتين.

تفرغ رئيس التحرير هو أيضا للبحث والسعي مع المحامي لمحاولة الاتصال مع بعض النافذين علّ أحدهم يتمكن من تقديم المساعدة.

اتصلت والدة هاجر في اليوم السابع كان صوتها مضطربا وهي تبلغه أنهم عثروا على ابنتها ملقاة في الشارع بين الحياة والموت.

أسرع محمد نور الدين إلى هناك، عرف من بعض شباب الحي الذين التقوه أمام البيت أن سيارة بدون لوحات، توقفت في وقت متأخر من ليل أمس في جزء مظلم من الميدان وسط الحي وقاموا بحمل هاجر من داخل السيارة، ووضعوها على الأرض، ثم لاذوا بالفرار بعربتهم، أوضحوا أنهم شاهدوا العربة أثناء وقوفها المريب، وأسرعوا نحوها وقبل وصولهم كانت قد انطلقت مرة أخرى.

كان واضحا أنها تعرضت للتعذيب، هالات سوداء حول العيون، ورضوض في كل أجزاء جسمها، طلب الطبيب الذي عاينها بعد أن استدعاه محمد نور الدين، طلب نقلها فورا إلى المستشفى،

أسرّ لرئيس التحرير أنّ الفتاة تعرضت فيما يبدو لتعذيب شديد ولاعتداء جنسي،

أُجريت لها إسعافات سريعة في المستشفى، كان هناك كسر في إحدى يديها، استدعت وضعها في الجبس، نُظفت جروحها، وأعطيت حقنة مهدئ قوي استسلمت على اثرها للنوم، نامت والدتها بجانبها وبقي رئيس التحرير ويزيد وبعض الزملاء الآخرين ساهرين طوال الليل، في الصباح كانت لا تزال مرهقة، لاحظ الطبيب ارتفاعا في درجة الحرارة، طلب من المعمل فحص الدم، وجدوا أنها مصابة أيضا بالملاريا، شرح الطبيب لرئيس التحرير أن الملاريا ربما إصابتها بسبب الإرهاق الشديد وسوء التغذية، حقنها الطبيب فور ظهور نتيجة الفحص، بدواء آرتيمثر المضاد للملاريا.

في اليوم الثالث كانت حالتها قد تحسنت كثيرا، قال الطبيب إنه يمكن أن تذهب إلى البيت وسيقوم بزيارتها يوميا، قام رئيس التحرير بإعادتها مع والدتها إلى البيت، طوال فترة وجودها في المستشفى لم تتكلم هاجر، ولم ترد على أسئلة رجل الشرطة الذي جاء بناء على تقرير المستشفى، كانت الدموع تغطي وجهها باستمرار، استمرت نفس الحالة في البيت، قال الطبيب بعد أول زيارة لها في البيت لرئيس التحرير، وبعد أن حقنها بالجرعة الأخيرة من دواء الملاريا، إنّ من الأفضل

عرضـها على طبيب نفسـي، أوضـح أنـها تعاني في الغالب من انـهيار عصبي أو اكتئاب حاد.

اعتذر الطبيب النفسـي الذي اتصـل بـه رئيس التحرير عن الحضـور إلى البيت، وطلب إحضـار المريضـة إلى عيادته، اضـطروا لحملها مرة أخرى، لم تكن راغبـة في التحرك من البيت، فحصـها الطبيب، وكتب بعض الأدوية وطلب أن يراها مرة أخرى خلال أسبوع، شرح الطبيب بعد أن خرجت المريضة بمسـاعدة والدتها لرئيس التحرير وليزيد موسـى، معتقدا أنـهما إخوة المريضـة، أنـها قد تعرضت لاعتداءات شـديدة ربما أيضـا اعتداء جنسـيا، وان الصـدمة سـببت لها انـهيارا عصـبيا، وقد تحتاج إلى علاج طويل لمعالجة آثار الصـدمة القوية الناتجة عن تجربة غير عادية.

اقترح عليهما الطبيب رفع مذكرة إلى المندوب السـامي لحقوق الإنسـان عبر مكتب الأمم المتحدة في الخرطوم، قال لـهما أنـه عالج حالات كثيرة لضـحايا الاعتقال والتعذيب خلال السـنوات الأخيرة، وانّ هـذه ممـارسـة يوميـة عـاديـة لجهـاز الأمن والمخابرات.

قال إنـه كتب لـها دواء يسـاعد على النوم، ودواء آخر يعالج بعض آثار الصـدمة، قال إن الأدوية وحدها لن تكون كافية وأنّ هناك علاج متخصـص لمثل هذا النوع من الصـدمات، لكنـه يفضـل أن يبدأ هذا العلاج بعد تعافيها من آثار الجروح وكسـر

اليد، أوصـــى الطبيب بأن يكون هناك من يتابع المريضـــة على مدار الساعة، أوضح أن المريض في مثل هذه الحالات قد يُقدم على الانتحار.

شـــكره رئيس التحرير ولحق بهما، توقف عند صـــيدلية قريبة من عيادة الطبيب لشـــراء الأدوية، وجد دواء واحدا ولم يعثر على الآخر تطوّع يزيد بالذهاب إلى صـــيدلية أخرى قريبة، وفعلا عاد بالدواء بعد قليل.

أعادهم إلى البيت، أبلغ محمد نور الدين والدة هاجر بوصـــية الطبيب حول ضـــرورة الانتباه لهاجر طوال الوقت، حتى لا يحملها الاكتئاب الشـديد على أن تؤذي نفسـها. اقترح يزيد أن يقضـي الليل معهما ربما تكون هناك حاجة لأي شـيء، شـكره رئيس التحرير على مبادرته، رحّبت والدة هاجر بالفكرة، وَاعَدْت له بسرعة غرفة في الفناء مخصصة للضيوف.

أعادوها مرة أخرى بعد أيام إلى الطبيب النفسـي، فحصـها مرة أخرى، لكنها لم ترد على تســاؤلاته، عرف من والدتها أنها لا تنام جيدا رغم اســتخدامها للدواء، كتب الطبيب دواء أقوى وطلب أن يراها ليبدأ المرحلة الثانية من العلاج الذي قد يستغرق عدة أشـهر، بمجرد أن تتعافى جروحها وكسـر اليد، قال الطبيب إنه يتوقع رؤيتهم بعد حوالي شـــهرين هي الفترة التي يحتاجها عظم اليد ليلتئم.

كانت الأم تحاول طوال النهار أن تغذيها حسب تعليمات الطبيب حتى تلتئم الجروح والكسور، كانت تحضر الترمس بكميات كبيرة، بعد أن أوصتها بعض جاراتها بفائدته في سرعة شفاء كسور العظام.

بقي يزيد معهم، كان يذهب أحيانا أثناء النهار بعد أن يشتري لهم كل طلبات البيت، يذهب إلى بيتهم يبقى لبعض الوقت مع والدته واخوته، قبل أن يعود إلى بيت هاجر، كان يذهب أحيانا إلى الصحيفة رغم أن محمد نور الدين أبلغه أن لا داعي لحضوره فليس هناك شيء، وان ما يقوم به من عمل الآن هو أهم من أية عمل آخر.

ذات يوم كان يزيد مع رئيس التحرير لوحدهما، قال لرئيس التحرير، يبدو أنها تعرّضت كما قال الطبيب للاغتصاب من هؤلاء الكلاب، نظر رئيس التحرير إليه ببعض الحرج وقال أرجو ألا تقول هذا الكلام لأي من الزملاء، أو أي إنسان آخر، أنت تعرف حساسية هذا الأمر في مجتمعنا.

قال يزيد ولأنني أعرف حساسية هذا الأمر جئت لأتحدث إليك.

قال رئيس التحرير مندهشا: ماذا تريد أن تقول؟

قال يزيد أريد أن وافقت هاجر أن أقوم بعقد زواجي منها فورا!

بدا على وجه رئيس التحرير شعور غريب، مزيج من الدهشة والإعجاب، عرف أن يزيد كان يشعر أن هاجر تغرق في بحر

صدمة الخوف من نظرة الناس والمجتمع أكثر من آلام التعذيب والجروح، وأنه يمد يده لإنقاذها.

صمت قليلا ثم قال: إنني أشكرك على موقفك النبيل، هذا موقف كريم من إنسان أصيل، لا أملك إزائه إلا الاحترام، لكن المشكلة أنت ترى أنها حسب كلام الطبيب مصابة بصدمة، تحتاج لعلاج طويل، ومن الصعب مفاتحتها الان في أمر كهذا، رغم أنني متأكد أنها ستقدر لك يوما هذا الصنيع.

شعر يزيد ببعض خيبة الأمل: قال كنت أعتقد أن مثل هذا الأمر سيساعدها على تجاوز المحنة.

نعم قال رئيس التحرير لكن المشكلة في الخطوة الأولى كيف السبيل لمفاتحتها في مثل هذا الأمر الآن، دعنا ننتظر قليلا ونرى نتائج العلاج، الأيام تداوي الكثير من المصائب، دعنا نأمل خيرا ربما خلال أيام تستعيد رغبتها في الكلام، ونفاتحها في الأمر.

لكن هاجر الساري لم تسمع قط برغبة يزيد في مساعدتها، كانت تعرف بأنه يحبها، وبدأت هي نفسها تشعر بميل نحوه في الفترة ما قبل اختطافها، لكن تلك البذرة لم يقدر لها قط أن تنمو وترى الضوء، في نفس ذلك اليوم الذي تحدث فيه يزيد مع رئيس التحرير، أيقظته الأم نائحة في وقت متأخر من الليل، قالت إن هاجر لا تستطيع التنفس، أسرع يزيد بنقلها إلى المستشفى كان رئيس التحرير يترك عربته ليزيد يوميا

لاستخدامها ليلا في حال حدوث أمر طارئ، نقلها يزيد بسرعة إلى المستشفى، بذلوا جهدا خارقا لإنقاذها في قسم الطوارئ لكن دون جدوى، قال الطبيب إنها تناولت جرعة عالية من الدواء المنوّم.

00

رغم انشـــغاله بالعمل طوال الليل لكن ســـعيد بقي قلقا على شقيقه، ينظر في شاشة تليفونه كل بضع دقائق أملا أن تصل رســـالة تزيل قلقه، لكن الجهاز بقي جثة هامدة، عاد إلى مركز اللجوء صـباحا مرهقا وأخلد إلى نوم مشـوش، رأى فيه كمال وقد حاصرته مياه السيول، استيقظ فزعا منتصف النهار، قبل أن يفتح عيونــه جيـدا، رفع التليفون أمــام عينيــه، قفز من الفرحة، كانت هناك رســـالة من كمال، يعتذر فيها على التأخر في الرد على رسائله، قال إنه وصل مدينة ابشي صباحا، وأنه أضــاع بعض الوقت، قبل أن يعثر على متجر لأجهزة التليفون، ويقوم بشراء كارت جديد وشحن تليفونه المحمول، أوضح أنّ كل شــيء يســير بصــورة جيدة، ســوف يســتقل حافلة أخرى، وسيصل مساء اليوم إلى انجمينا وعده سعيد بأن يرسل له كل ما يحتاجه من مال للإقامة في أنجمينا وكل منصرفات السفر.

بعد أن اطمأن قليلا على كمال، غســـل وجهه ونظّف أســـنانه وحلق ذقنه، وقضـــى بعض الوقت في دورة المياه، ثم اغتســـل وأعد لنفســـه وجبة خفيفة من البيض المقلي والقهوة، كان لا

يزال يشعر بالقلق، يذكر أنه سمع مرة في الفترة التي قضاها في السجن إنّ انجمينا تعج بعملاء جهاز الأمن التابع للإخوان المسلمين، بسبب أنّ تشاد كانت مقرا لبعض الحركات المتمردة في إقليم دارفور.

كان قد حصل على رقم تليفون مهاجر تشادي يقوم بتحويل النقود إلى تشاد، يقوم باستلام النقود ويتصل بشخص في أنجمينا لتسليم المبلغ للمرسل إليه. مساء بعد أن اطمأن إلى وصول كمال إلى انجمينا قام بإرسال المال لشقيقه ليدفع تكلفة الفندق الذي سيقيم فيه، ويدفع مبلغا من المال لشخص ما سيساعده في الحصول على جواز سفر تشادي، ولتغطية كل منصرفاته الأخرى، ووعده بأن يرسل له منصرفات السفر خلال أيام، بمجرد أن يحصل على جواز السفر.

كمال قضى بضعة أيام قبل أن يعثر على شخص وعده بالمساعدة في استخراج جواز سفر، كان جنديا في الشرطة، ساعده أحد موظفي استقبال الفندق على التعرف إليه، أحضر الرجل لكمال أوراقا لتعبئة معلوماته وطلب منه إحضار صور، دفع له كمال جزءا من المبلغ الذي طلبه ، وبقي في الانتظار، كانت المدينة تشبه أي مدينة في السودان، وفي كل الشوارع التي كان يتسكع فيها أثناء النهار، كان يستمع إلى الأغاني السودانية تنطلق من المطاعم، ومتاجر بيع أجهزة الموبايل وبيع أقراص الفيديو.

سـعيد كان يتحدث معه يوميا، حكى له كمال كثيرا عن الأحوال داخل الوطن، وعن معاناة الناس بسبب الغلاء والبطالة المنتشرة وسط الشباب، الذين لا يجدون فرص عمل بسبب أن الحكومة تفضل فقط تعيين أعضاء حزبها، وأنه يتوقع أن تنفجر الأوضاع قريبا، أوضح لسعيد أنّ أهل النظام كانوا يتوقعون أنّ الأحوال ستنفرج بعد انفصال الجنوب بمعجزة ما، لكن ما حدث هو العكس تماما، ازدادت الأحوال سوءا.

أبلغه كمال بعد أيام أنه استلم جواز السفر، وأن الشرطي نفسه الذي قام باستخراج جواز السفر اتفق معه على أن يقوم بإجراءات الحصول على الفيزا، لقاء مبلغ آخر من المال، أوضح كمال أنه تبقى معه بعض المال سيدفعه كدفعة أولى للشرطي، لكنه سيحتاج لمبلغ آخر ليدفع بقية المبلغ المتفق عليه لعمل الفيزا ولشراء تذاكر السفر، وعده سعيد أنه سيرسل له كل المبلغ المطلوب فورا، حتى يكون مستعدا أن أعاد له الشرطي جواز السفر في أية لحظة.

شعر سعيد ببعض الارتياح، الأمور تسير بصورة جيدة، لكنه كان لا يزال يشعر بقلق خفي، ما لم يركب شقيقه الطائرة لن يطمئن قلبه، قام بتحويل كل النقود التي تبقت معه من رحلة البحر وكل النقود التي قام بادخارها من العمل في إيطاليا وبعد وصوله إلى فرنسا، كان مبلغا معقولا سيكفي في الغالب لكل منصرفات كمال حتى وصوله إلى فرنسا، استلم كمال المبلغ في

اليوم التالي، كتب لسعيد أنه استلم المبلغ، وأنّ الشرطي وعده أنه سيعيد إليه الجواز خلال أسبوع تبقت منه ثلاثة أيام، وعده الشرطي أيضا بأنه سيأخذه إلى وكالة سفر بعض أصدقائه لشراء تذكرة السفر وحجز مقعد الطائرة، ذكر في نهاية رسالته أنه يريد الذهاب الآن إلى السوق بحثا عن معطف، لأنه سمع أن البرد أصبح شديدا في أوروبا.

كانت الساعة الثامنة مساء حين تلقى سعيد تلك الرسالة، ستكون تلك آخر رسالة يتلقاها من شقيقه، خلال دقائق قليلة أصبح تليفون كمال مغلقا، بقي سعيد قلقا طوال الليل رغم أنه حاول أن يطمئن نفسه، ربما فرغت بطارية التليفون الموبايل وهو خارج الفندق، لم يذهب إلى العمل تلك الليلة وبقي ساهرا حتى الصباح.

استسلم قرابة الفجر للنوم بسبب الإرهاق الشديد، لكنه استيقظ بعد حوالي ساعتين، أمسك بجهاز الموبايل أملا في أن تكون رسالة من كمال قد وصلت، لم يجد شيئا، أرسل له رسالة أخرى، لم تكن هناك إشارة تفيد بوصول الرسالة، حاول الاتصال به، فهم من الرسالة المسجلة أنّ التليفون مغلق، تذكر أن كمال كان قد أرسل له في إحدى رسائله اسم ورقم تليفون الفندق الذي يقيم فيه، كان قد كتب ضاحكا أنه سمع أن هناك مجموعات من الصبية، تخطف التليفون الموبايل أثناء استخدامه في الشارع، أخشى أن يختطف أحدهم تليفوني! تذكر

سـعيد تلك الرسـالة وأعطاه ذلك بعض الأمل تمنى من قلبه أن يكون أحدهم قد خطف جهاز تليفون شقيقه، وأن يكون ذلك هو السبب في عدم رده على الرسائل أو الاتصالات.

اتصـل مباشـرة برقم تليفون الفندق، رد عليه شـخص ما من اسـتقبال الفندق، عرّفه سـعيد بنفسـه وسـأله إن كان شـقيقه موجود في الفندق، قال الرجل: إن كمال خرج بالأمس ولم يعد مرة أخرى، ربما تأخر في الخارج لسـبب ما لأنه لم يعد مفتاح حجرته، ولا تزال بعض ملابسه موجودة في الغرفة!

سقط سعيد أرضا من هول الصدمة، لابد أنهم اختطفوه! لا بد من أن أسـوأ ما كان يتوقعه قد وقع، بعد أن تمالك نفسـه قليلا عاد ليتصل بالفندق، سأل الرجل عن الشرطي الذي استخرج جواز السفر لكمال ربما يعرف شيئا عنه، قال الرجل إن زميله الآخر قريب للشـرطي وهو الذي عرّف كمال به، لكنه غير موجود الآن، ووعد سـعيد أنه بمجرد حضـوره سـيطلب منه الاتصـال بقريبه الشـرطي لسـؤاله عن كمال، ويمكنه أن يعاود الاتصال خلال بضع ساعات.

شعر سعيد أنه سيفقد عقله، كان يعتقد أنه يمكنه أن ينتزع ابن عمه النقيب عبد الله من بين أيديهم، فإذا هو يخسـر شـقيقه أيضـا، ماذا سـيقول لوالديه؟ هل يقول لهم أنه قام بنفسـه بدفع شـقيقه إلى حتفه؟ ومن سـيرعى والديه؟ هل يعود هو أيضـا

ليلقى حتفه أم يبقى بعيدا ليموت من القلق على شـــقيقه الذي انضم لقائمة المفقودين، ومن القلق على والديه.

تذّكر في غمرة القلق والجنون الذي انتابه، المثل الذي يقول: (جاء يكحلها فأعماها) كانت الدموع تغطي وجهه وهو يردد: يا ليتني لم أبحث عن النقيب عبد الله، ليتني لم أخبرهم أنني أملك تلك المستندات اللعينة التي دمرتني ودمرت أسرتي كلها!

بدأ بعد قليل يمسح دموعه، ويحاول ترتيب أفكاره: لازلت أملك الورقة التي تعني لهم الكثير، ســأقاتلهم حتى النهاية وســأثأر لكل ما فعلوه بي وبأسرتي! وسأبدأ من سفارتهم هنا!

بدأ يهدأ قليلا، عرف أنّ الاحتفاظ بالهدوء وصـــفاء التفكير ســيكون الوســيلة الوحيدة للنيل منهم، اتصـــل مرة أخرى بالفندق، تحدّث مع الرجل الآخر قريب الشـــرطي، أبلغه الرجل أنه اتصل بصالح قريبه الشرطي، الذي أوضح أنه أيضا يحاول منذ الأمس الاتصال بكمال دون جدوى، لأنه يريد تسليمه جواز السفر بعد أن قام بعمل الفيزا.

سأل سعيد موظف الفندق إن كان بإمكانهم عمل بلاغ للشرطة، قال الرجل إنه سيتصل بقريبه الشرطي مرة أخرى لسؤاله كيف يجب عمل ذلك، ترجّاه ســعيد أن يقوم بذلك فورا لأن حياة شقيقه ربما تكون في خطر، وشرح لموظف الفندق باختصار أنه يخشى أن يكون جهاز الأمن السوداني قد اختطف شقيقه، بدا الرجل متشــككا قليلا، أوضــح: ربما تكون جريمة ســرقة،

ربما كان مع شقيقك مبلغ من المال! لكن عموما سأبلغ الشرطة بما قلته لي عند فتح البلاغ، لابد أنهم يعلمون إن كان للأمن السوداني وجود في المدينة.

فكّر سعيد أن يسافر إلى انجمينا لكنه لم يكن يملك أية وثيقة سفر، وحتى لو حصل على الوثيقة لابد أنهم سيقتلونه هناك في لحظات مادام اختطفوا شقيقه بتلك السهولة، ودون أن يتركوا أية أثر.

توقّع أن تصله رسالة عبر البريد الإلكتروني لكنه لم يجد شيئا حتى نهاية اليوم، ظل يعاود الاتصال بالفندق حتى تأكد أنهم قاموا بعمل بلاغ لدى الشرطة، وانّ الشرطة وعدتهم بالتحري ومراقبة كل السيارات والحافلات التي تسافر شرقا أملا في العثور عليه أن أقدمت الجهة التي اختطفته على نقله إلى السودان.

اتصل سعيد في اليوم التالي بمحاميه وأخبره بواقعة اختفاء شقيقه في إنجمينا، أوضح انه يعتقد أنّ جهاز الأمن والمخابرات قام باختطافه، طمأنه المحامي أنه سيقوم بكتابة تقرير عن الواقعة، ويرسله مع معلومات شقيقه إلى منظمة الصليب الأحمر، وعدد من منظمات حقوق الإنسان، وسيرسل أيضا بالمعلومات الجديدة إلى وزارة العدل الفرنسية، طلب فقط من سعيد أن يطلب من موظف الفندق إرسال صورة من بلاغ الشرطة عن طريق الفاكس أو الإيميل.

بدأ سعيد يفكر بهدوء أكثر في اليوم الثالث، مؤكد أنهم سيتصلون به لمساومته، سيعطيهم ذاكرة الفلاش، وسيحاول إنقاذ حياة شقيقه، يعرف أنهم سيضعون كل الاحتمالات، وسيفترضون أنه يحتفظ بصور أخرى من المستندات! سيحاول أن يجاري ألاعيبهم دون أن يتورط في أية تنازلات أو يستجيب لإغراءاتهم.

كان عقله يعمل بسرعة، يحاول في نفس الوقت أن يفكر بهدوء، حتى لا يرتكب أية أخطاء أخرى، يجب أن يقوم بترتيب أوضاع والديه، وضمان ألا يؤثر غياب كمال عليهما، يبحث عن منظمات أو جهات يمكنها مساعدته، يتابع مع محاميه إجراءات الحصول على إقامة،

تتيح له الحصول على وثيقة سفر لضمان حرية الحركة إن اضطر للسفر، للقاء والديه في أي مكان.

بعد أسبوع وصلت رسالة أخيرة من تليفون شقيقه، كان واضحا من صيغتها أنه لم يكتبها:

وصلت أرض الوطن بخير، سيتصل بك صديقك نصر الدين خلال أيام للسلام عليك واستعادة ذكريات أيام رفقة الزمن الجميل!

تأمّل سعيد الرسالة بقلب منفطر، من خلال دموع جفّت في قاع عينيه، حاول النفاذ إلى كل حرف فيها، إلى كل إشارة ترقد بين

سـطورها القليلة، ألقى التليفون الذي كان يصـدر صـفيرا حادا إيذانـا بقرب نفاذ بطاريتـه، ألقاه بجانبـه وللمرة الأولى لم يفكر في إعادة شـــحنه: إذن فقد كتبها نصـــر الدين: زميل أيام رفقة الزمان الجميل!

بعد ســـقوط نظام عمر البشـــير الديكتاتوري الإخواني، راجت شـائعات قوية عبر وسـائط التواصل، أن أعدادا كبيرة من آلاف المفقودين خلال تلـك الحقبـة المظلمـة، قد عُثر عليهم في حـال مزرية في ســجون ســرية تحت الأرض، في أنحاء مختلفة من الســـودان، لكن أحدا من هؤلاء المفقودين وبعد مرور أكثر من عام على سقوط الديكتاتور لم يعد بعد إلى ذويه.